الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التربية الوطنية

نصوص فلسفية مختارة

السنة 3 من التعليم الثانوي
شعبة آداب و فلسفة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التربية الوطنية

نصوص فلسفية مختارة

السنة 3 ثانوي آداب وفلسفة

إشراف وإعداد

حسين بن عبد السلام

(مفتش التربية والتكوين)

شارك في الإعداد

جمال الدين بوقلي حسن

الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية



مقدمة الكتاب

إن هذا الكتاب الموسوم بـ «نصوص فلسفية مختارة»، والذي نتشرّف بوضعه بين أيدي تلاميذ وأساتذة السنة الثالثة (شعبة آداب وفلسفة) يُعدّ ، من حيث المنهجية العامة وطريقة التناول البيداغوجية ، بمثابة امتداد لسابقه المعتمد لتلاميذ السنة الثانية في نفس الشعبة ؛ لكنه من حيث المضمون ينطوي على مادة نصيّة أكبر كمّاً وأعمق كيفاً بما يناسب حجم تغطية الإشكاليات الأربعة المحتواة في البرنامج تغطيةً تامّة ومُستفيضة من جهة ، و بما يترجم أهمية المادة في أقسام امتحان نهاية المرحلة الثانوية لهذه الشعبة المستحدثة في إطار الإصلاح من جهة ثانية .

فأمّا فيما يتّصل بكونه امتداداً واستمرارية ، فإن ذلك تفرضُه – من منظور مبادئ الإصلاح الجديدة – ضرورةُ إحداث قدر كاف من الانسجام العموديّ و الأفقي ، ليس فقط بين المراحل والأطوار التعليمية ، بل كذلكَ بين المستويات والشعب والمواد ؛ وهو رهان ينبغي تحقيقه . ومن هنا ، حرصنا كل الحرص على أن نجعل هذا الكتاب :

- أولا : يندرج – مثل صنْوه في السنة الثانية – ضمن نسقية كبرى قوامها التوجّهات العامة التي أقرّها البرنامج الرسمي المعتمد ، وهي التوجّهات المتعلقة بتجذير وتفعيل المقاربة بالقدرات والكفاءات كاستراتيجية جديدة تتّسع لتشمل كافة الأنشطة البيداغوجية في المادة . ويأتي تحليل النص الفلسفي في صدارة هذه الأنشطة باعتباره إجراءً تطبيقياً لا يمكن الاستغناء عنه.

- ثانياً : يستهدف ذات المرامي الفكرية والغايات المنهجية تقريباً مما نتصوّر أن التلميذ، بتوجيه من أستاذه ، يكون قد حقّقه (أوحقّق أكثره) بشكل أوّليّ بفضل تعامله مع النصوص التطبيقية المقرّرة عليه خلال السنة الثانية . وللتذكير ، فإن تلك المرامي والغايات تتنوّع إجمالا إلى :

1. اعتبار النصوص الفلسفية بمثابة وسيلة يتوسّل بها التلميذ والأستاذ معاً إلى توفير مادة معرفية يقتضيها البرنامج من أجل بلورة الكفاءات العملية على نحو بيداغوجيّ فعّال وصارم . (ومن نافلة القول أن طريقة تحليل النص ، في سياق هذه البيداغوجية ، هي ذاتها لم يطرأ عليها أيّ تعديل أو تغيير).
2. اعتبارها أقصرَ السّبل للتعامل مع آراء الفلاسفة باستقائها مباشرةً من مصادرها الأصلية، مع ما ينتجُ عن ذلك من إحاطة بمذاهب هؤلاء الفلاسفة ، ومناهجهم ، ولغة عرضهم لمصطلحاتهم ، وصيغ طرحهم لمشكلاتهم.
3. النظر إليها بوصفها أضمن أداة للاستشهاد والاستئناس واستثمار المقولات سواء في تدعيم الدروس بما يناسبها من تصدير منهجيّ ، أو في إثراء المقالات بما تحتاجه من إحالات ومواقف وآراء.
4. جعلها أرضيةً لمعالجة وضعيات مشكلة كمشاريع داخل الحصص التطبيقية .

وفضلا عن ذلك، راعينا تواصلا لا بدّ منه في الجوانب التقنية البحتة؛ فقد حافظنا على روح التصميم العام للنصوص المختارة متناً وهامشاً ، وذلك من حيث تصنيف هذه النصوص بحسب الإشكاليات الأربع وما يتفرّع عنها من مشكلات جزئية، فعمَدْنا إلى تصدير كل إشكالية بعرض مَنطوقها مشفوعاً بعناوين النصوص المتصلة بمشكلاتها الجزئية، وهي عناوين مرقمة ترقيماً تسلسلياً يُيسِّر الإحالة إليها كلّما اقتضى الأمر ذلك، ثم عيّنا مدخلا يجمل مضامين هذه المشكلات للغرض ذاته . وعند تناول كل نصٍّ لجأنا إلى تحديد عنوان له، وطرح إشكالية تساعد على تحليله ، وصياغة أسئلة تذيّله تقود إلى الإحاطة بمراميه . وفي مَتْنِه تَوَخَّيْنا ضبط شكله ضبطاً تاماً ، وتَقيَّدنا بسائر علامات الوقف المتعارف عليها تقنياً من أجل تسهيل قراءته وفهم معانيه ، مع إحالات مناسبة إلى هوامش تُتيح فتحَ مغالقه الاصطلاحية ، وتوسيع آفاقه الفكرية والمعرفية . وتَعمّدنا ألاّ نتوسع في التعريف بالفلاسفة ومذاهبهم ، والمؤلفين وآثارهم ، وتركناه مشروعاً أمام التلاميذ لمزيد من التعمّق والتقصّي والبحث . والْتَزمنا ، في آخر المطاف ، ختمَ الكتاب بفهرسين أوّلهما خاص بالمصادر والمراجع التي تمّ التعويل عليها في جمع النصوص وإعدادها ، وثانيهما يتضمن محتوياته العامة..

على أن الذي يميّز هذا الكتاب في المقام الأول ، احتواؤه بين دفّتيه لنصوص أكثر عدداً، وأشدّ تنوعاً ، ويكاد يكون توزيعها متقارباً (مع بعض الاستثناءات القليلة) ، واعتمادها بشكل مستقلّ عن الإنتاج الفلسفي يعزّز أهميتها الإجرائية . علاوة على أنها تجمع ، كمادة فكرية وفلسفية ، بين الإنتاج الجزائري المعاصر ، والتراث العربي الإسلامي قديمه وحديثه، والإبداع الغربي سواء في شقّه الأوروبي أو منسوباً إلى فكر العالم الجديد . واحتاج منا إعدادها ، بما يكفل تغطية الإشكاليات المقررة تغطية شاملة [1]، جمع المصادر الأصيلة لأجل التعويل عليها فضلا عن الوسائط الشارحة ؛ واقتضى المقام ، في معرض ذلك ، التصرف فيها جزئيا، مع لجوئنا (نحن المؤلفين) أحيانا إلى ترجمة تقريبية للمعاني الواردة في نصوص رجعنا إليها في لغتها الأجنبية . وأخذت منا ، في النهاية ، معالجة هذه النصوص الجهد والعناية الضروريتين حتى يتمّ إخراجها على النحو العلمي والبيداغوجي المناسب .

[1] . هذا ، وإن الجديد في هذه النصوص المختارة كونها تمثل مسْحاً ، ليس فقط للأبواب الثلاثة المعروفة (ونعني بها : القضايا النفسية، وفلسفة العمل، وفلسفة العلوم)، بل فضلا عن ذلك، لباب جديد مستحدث هو : التصوف وعلم الجمال وفلسفة الفن .



وعلى صعيدِ التصميم التقني ، تمّت مراجعة هيكلة المتن والهامش بما يراعي مقتضيات النسقية العامّة للكتاب؛ والغرضُ من ذلك جعله واضحاً ومقروءاً مما يمكّن من التعامل معه بشكل أنسب، مع إبراز التهميش أكثر بما يسمح بالاستفادة القصوى منه كإحالة وسند ضروريين من الناحية الأكاديمية .

إننا نأمل أن يحقّق الجهد المبذول في هذا الكتاب الغاية التي وضعت له ؛ مَعيناً ومرجعاً ، ووسيلة ونبراساً للتلميذ والأستاذ في آن معاً . فإذا تحقق كلّ ذلك ، أو جلّه ، كان لنا بمثابة خير الجزاء .

والله من وراء القصد

بريان (غرداية) في :14 فبراير 2007

حسين بن عبد السلام

الإشكالية الأولى : في إدراك العالم الخارجي

عندما نقول بأن مصدر المعرفة الحسية هو الحواس ، فهل نعني بذلك أنه ليس مسبوقا بأي نشاط ذهني ؟ أليس لمكتسباتنا اللغوية و الفكرية ، و لمكبوتاتنا النفسية دخلٌ في تحديد مدركاتنا ؟ وهل يعني هذا ، أننا لا نستطيع أن ننظر إلى العالم الخارجي ، كما هو في حقيقته : فقد نستحضره حسب إرادتنا ، و نؤوله حسب عاداتنا ، و أهوائنا و حياتنا الانفعالية ، وقد نستبدله بعوالم أخرى نبدعها بتخيلاتنا ؟

1 – طبيعة الإحساس

2 – الإحساس وأخطاء الإدراك

3 – الإدراك حكم عقلي

4 – الإدراك ونظرية الصورة الكلية

5 – المعايشة قوام الإدراك

6 – دلالة الانفعال

7 – اللغة من الانفعال إلى الرمز

8 – اللغة والفكر والانفعال

9 – اللغة بين الثبات والتغير

10 – الوظيفة التواصلية للغة

11 – نحو ترجمة آلية

12 – الشعور النفسي والشعور الفيزيائي

13 – الشعور واجهة الأنا

14 – من الشعور إلى اللاشعور

15 – تشكّل سلطة الأنا الأعلى

16 – القيمة العلمية لفرضية اللاشعور

17 – الذاكرة وظيفة عضوية





مدخل

• **في الإحساس و الإدراك** : هل علاقاتنا بالعالم الخارجي تتم عن طريق الإحساس أم الإدراك ؟ وهل كل معرفة ينطوي عليها الإدراك مصدرها الإحساس؟ و إذا كان الإحساس عملية أولية للاتصال بالعالم الخارجي، فهل معنى ذلك أنه خال من أي نشاط ذهني؟

• **في اللغة و الفكر** : إذا لم تكن اللغة مجرد أصوات نحدثها ولا مجرد رسوم نخطها ، فما عساها أن تكون؟ أليست عبارة عن إشارات ورموز نبدعها لتساعدنا على تنظيم حياتنا الداخلية وعلى تحقيق التواصل مع غيرنا فضلا عن تحديد علاقاتنا مع عالم الأشياء؟

• **في اللاشعور و الشعور** : على الرغم من أن الإنسان يتميز بوعيه (أو شعوره)، إلا أن لاشعوره فيما يرى التحليل النفسي ، يكشف عن طبيعته الأولى ويفضح مكبوتاته ويؤثر في توجيه سلوكه؛ فهل يتجه بنا هذا الطرح إلى اعتبار اللاشعور قضية فلسفية أو علمية؟

• **في الذاكرة و الخيال** : إذا كنا لا نستغني عن العالم الخارجي في نشاطاتنا الذهنية ، فإننا في استحضار ذكرياتنا وتحريك خيالاتنا، نبني ونبدع؛ ولكن لماذا لا يسعنا في بنائنا أو إبداعنا، إعادة معطيات الماضي ولا مدركات الحاضر كما هي ؟

• **في العادة والإرادة** : هل الاختلاف الذي يفرق بين العادة و الإرادة (المشحونة بأهواء وانفعالات) في تكيفهما مع الواقع، عائق لإيجاد سبل التقارب والاتفاق بينهما؟

1 - طبيعة الإحساس

[هَلْ تَتَكوَّنُ انْطِباعاتُنا [1] الحِسِّيَّةُ عنِ العالَمِ الخارجيِّ بِصُورةٍ آليَّةٍ ؟]

« مُنذُ ما يُقارِبُ ألْفينِ وخمسمائة سنةٍ ، أيْ في عهْدِ دِيمُقْريطَسْ [2] ، و الحُكَماءُ يتجادلونَ في كيفيَّةِ الرُّؤيةِ والسَّمعِ والذَّوْقِ وبَاقِي الحواسِّ. وَقد كانَ ظَنُّ هذا الفَيْلسوفِ قريباً إلى الواقعِ من خلالِ نظريَّتِه القائلَةِ : إنَّهُ لا بُدَّ من أنْ ينْبعِثَ من كُلِّ شَيْءٍ في الوُجودِ مادَّةٌ غيرُ منْظورةٍ تفرضُ نَفْسَها على الدِّماغِ فَنحُسّ بِهِ . لَكِنْ لم يَتسَنَّ لهُ ولا للحُكماءِ أمثالِه أنْ يتأكَّدوا من هذه النَّظريَّةِ ، لأنَّ طَريقَتَهُم كانتْ أنْ يجْتمِعوا ويتجادَلوا دونَ الوُصُولِ إلى نَتيجةٍ .

وَمُنذُ أكثرَ من قرنٍ، عَمَدَ علَماءُ النَّفسِ إلى اكْتِشافِ هذا السرِّ الغامضِ، وَهوَ كيْفَ يحصُلُ الإنسانُ على انطباعاتِهِ عن العالَمِ المحيطِ بِهِ . وَقَد كانَ « علمُ النَّفسِ الحِسِّيّ » [3] أهمَّ مجالٍ للْبحْثِ ، وَيعْتَبِرُهُ الأخِصَّائِيُّونَ من الأدَواتِ الأَساسيَّةِ ، خاصَّةً مُنذُ أنِ انْشَقَّ عُلماءُ النَّفسِ الحِسِّيُّونَ عَمَّنْ سَبقَهُم وَلجأُوا إلى المُخْتَبَرِ لاكْتِشافِ الحَقيقَةِ [...].

وَقد سهَّلَ لنا عُلماءُ النَّفسِ الحِسِّيُّون معرفةَ أَنَّ جميعَ حواسِّنا تعْتمِدُ على أطرافِ الأَعصابِ التي تَستجيبُ للمُنبِّهاتِ الطَّبيعيَّةِ النَّقَّالةِ الصَّادرةِ عنِ العالَمِ الخارجيِّ .

---

[1] - ما ينطبع على الذهن من صور جراء انفعال الحواس . وهيوم Hume (ت 1776) هو أول من أدخل هذا المصطلح في نظرية المعرفة.

[2] - (Démocrite d'Abdère) فيلسوف مادي يوناني ، عاش بين (460 و370 ق.م) ، أسس نظرية الجزء الذي لا يتجزأ ، و نادى بأن الذرات ثابتة و خالدة و في حالة حركة مستمرة . و قد اعتبر، حسب نظريته المشار إليها في المتن ، الإدراك الحسي مصدرا رئيسيا للمعرفة ، بالإضافة إلى العقل الذي يعرف ماهية العالم ، أو الذرات ؛ فأثار بذلك مشكلة العلاقة بين الحواس و العقل في المعرفة ، والتي أدلى فيها الحكماء ، من معاصريه و من جاء بعده ، بدلوهم ؛ و خاصة أبيقور و لوبكريسيوس.

(أنظر، م. روزنتال وي. يودين، الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة، ط 3، بيروت 1981، ص 213– 214) .

[3] - أو علم النفس التجريبي (Psychologie Expérimentale) الذي ظهر في القرن 19 على يد الباحثين فيخنر Fechner و فوندت wundt.



وَقدْ تكونُ هذه المُنبِّهاتُ أضواءً ، أو أصواتاً ، أو مادَّةً مُتبَخِّرَة [1] تُحدِثُ أثرًا في أعْصاب الشَّمِّ ... إلخ. وَمن مَزايَا الحَواسِّ أنَّها لا تَكْتفِي بِتأْدِيةِ عملِها فَحسْب؛ فقدْ تَبيَّنَ أنَّ الأنْفَ عندَ الإنسانِ يُمكِنُهُ تَمْيِيزُ مادَّةٍ كَالمِسْكِ الاصْطِناعِيِّ (وَهوَ من العُطورِ) حتَّى وَإنْ كانَ مُخفَّفًا بِمُعدَّلِ جُزءٍ واحِدٍ من 32 مليونَ جُزءٍ من الهَواءِ، كَمَا أنَّ عُيونَنا تستطيعُ تَمْيِيزَ مليونٍ من الظِّلالِ وَالألوانِ المُختلفة . وَزيادةً على شِدَّةِ حساسيَّةِ العَينِ ، فَهيَ دليلٌ وَاضِحٌ على مَبْدَأ أشَدَّ خَطراً وتأثيراً في عِلمِ النَّفسِ الحِسِّيِّ ؛ فهِيَ تَتلقَّى صُوَراً معكوسَةً وَمقلوبَةً ، لَكِنَّ هذا الوَضْعَ لا يُسبِّبُ لها ارْتباكاً ، إذْ يُمكِنُنا رُؤيَةُ الأشياءِ بِوضُوحٍ تامّ، وَكلُّ صُورةٍ تَقعُ على العَينِ، حِينَ سَيْرِنا في الطَّريقِ، تَتحرَّكُ عَبْرَ شَبكِيَّتِها الَّتي تَكُونُ هِيَ أيْضاً في حَالَةِ تَحرُّكٍ، لَكِنَّ رُؤيَةَ البناياتِ وَرَصِيفِ الشَّارعِ تَبْقَى كمَا هِي وَلا نَراها في غَيرِ مَواضِعِها . وَغالباً ما تَلتقِطُ صورَةَ البابِ القائمِ مُنْحَنِيَةً أوْ مُشوَّهَةً، وَمَع هَذا نَظَلُّ نَرى البابَ قائِمَ الزَّوايَا [...]. لِذَا نَرى أنَّ الحَواسَّ البَشَرِيَّةَ ذَاتُ كِفاياتٍ [2] أبْعَدَ كثيراً من مُجرَّدِ الكِفايةِ الطَّبيعيَّة، لأنَّها تَعمَلُ بِطريقَةٍ يُمكِنُنا وَصْفُها بِأنَّها نَوْعٌ مِنَ الإدْراكِ أوْ العَقْلانِيَّة. أمَّا انْطباعاتُنا عَنِ العَالَمِ الخارجِيِّ فَهِيَ سَليمةُ الوَضْعِ ، لأنَّ تَرابُطَها يُؤلِّفُ صُوَراً ذِهْنِيَّةً كامِلَةَ المَعانِي . وَقِيامُ حَواسِّنا بِإرْشادِنا إلى مَا نَحْتاجُ إلى مَعرِفَتِهِ، هُوَ فِعلاً عَمَلٌ مُدْهِشٌ وَكافٍ مِنَ النَّاحِيَةِ العَمَلِيَّة» . [3]

ميخائيل البيطار [4]

أسئلة :

1 – قارنْ ، من خلال النص ، بين النظريتين التقليدية والحديثة في تفسير حدوث الإحساس .

2 – عدِّدْ ما في النص من الشواهد التي تثبت أن الصور الحسية لا تتمُّ على نحوٍ آليٍّ (أو نقلٍ فوتوغرافي مباشر للمحسوسات) .

3 – ماذا تستنتج ، كخلاصة ، من ربط الانطباعات ليس فقط بالحواس ، بل بالعقل أيضاً ؟

---

[1] - تعبير علمي يقصد به مجمل الروائح المنتشرة عبر الهواء .

[2] - أو كفاءات؛ وتعني هنا مؤهلات أو قدرات ما يتطلبها قيام الحواس بنشاطها كالاستعداد، والملكة الذهنية الأولية .

[3] - ميخائيل البيطار، علم النفس وأثره في حياتنا الحديثة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون طبعة ولا تاريخ ، ص (27–28 – 29) .

[4] - هو أستاذ وباحث أكاديمي لبناني ، يشغل كرسي التربية الحديثة و علم النفس في كثير من الجامعات الكبرى والمعاهد الخاصة .

2 - الإحساس وأخطاء الإدراك

[كَيفَ يمكنُ الاعْتِقادُ بأنَّ أخطاءَنا الإدْراكيَّةَ لا تعُودُ إلى العَقْلِ بَلْ إلى الإحْساسِ؟]

« وَلمَّا كانَتِ الأَفْكارُ الَّتي أتلَقَّاها عَنْ طَريقِ الحَواسِّ أَشَدَّ حَياةً، وَأَقْوَى تَعْبيراً، وَ في بَابِهَا أَمْيَزَ مِنَ الأَفْكارِ القادِرَةُ نَفْسي عَلَى خَلْقِها بالتَأَمُّلِ، أَوْ مِنَ الأَفْكارِ المَوْجودَةِ مَطْبوعَةً في ذاكِرَتي، فَقَدْ بَدَا لي أَنَّها لا تَصْدُرُ عَنْ نَفْسي. لِهَذا لا بُدَّ من أنْ تكونَ أَشْياءُ [1] أُخْرَى قَدْ أَحْدَثَتْها لِي. وَلَمَّا كُنْتُ لا أَمْلِكُ مِنْ مَعْرِفَتي لِهَذِهِ الأَشْياءِ إِلَّا مَا مَنَحَتْني إِيَّاها هَذِه الأَفْكارُ عَيْنُها، فَمِنْ غَيْرِ المُسْتَطاعِ أَنْ يَخْطُرَ بِبالي سِوَى أَنَّ هَذه الأَشْياءَ تُشْبِهُ الأَفْكارَ الَّتي تُحْدِثُها.

وَلمَّا تَذَكَّرتُ أَيْضاً أَنِّي اسْتَعْمَلْتُ الحَواسَّ قَبْلَ أَنْ أَسْتَعْمِلَ العَقْلَ، وَأَنَّ أَفْكاري عَنْ نَفْسي لَيسَتْ وَاضِحَةً كَأَنِّني تَلَقَّيْتُها بِطَريقِ الحَواسِّ، بَلْ تَتَرَكَّبُ أَغْلَبَ الأَحْيانِ مِنْ أَجْزاءِ هَذه [2]، فَقَدْ هَانَ الاعْتِقادُ أَنَّ كُلَّ أَفْكَاري سَلَكَتْ مِنْ قَبْلُ طَريقَ حَواسِّي.

وَلَكِنَّ اخْتِباراتٍ كَثيرَةً قَوَّضَتْ [3] شَيْئاً فَشَيْئاً كُلَّ مَا لَدَيَّ مِنْ ثِقَةٍ بِالحَواسِّ. فَقَدْ لاحَظْتُ مَرَّاتٍ عَديدَةً، أَنَّ الأَبْراجَ الَّتي كانَتْ تَلُوحُ لِي مُسْتَديرَةً عَنْ بُعْدٍ، تَلُوحُ لِي مُرَبَّعَةً عَنْ قُرْبٍ، وَأَنَّ التَّماثيلَ الضَّخْمَةَ المُقَامَةَ عَلَى قِمَمِ تِلْكَ الأَبْراجِ، تَبْدو لِي تَمَاثِيلَ صَغيرَةً إذا نَظَرْتُ إِلَيْها مِنْ أَسْفَلَ.

كَذَلِكَ فِيمَا لَا يُحْصَى مِنَ المُناسَباتِ الأُخْرَى؛ لَقَدْ وَجَدْتُ خَطَأً في الأَحْكامِ المَبْنِيَةِ عَلى الحَواسِّ الخارِجيَّةِ، بَلْ وَفي الأَحْكامِ المَبْنِيَةِ عَلى الحَواسِّ الدَّاخِليَّةِ. إِذْ هَل

---

[1] - المقصود بـ «الأشياء» هنا، جملة الموضوعات الخارجية المفارقة للذات أو الأنا، من المحسوسات إلى ظواهر الطبيعة المادية.

[2] - أي من أجزاء الحواس.

[3] - قوّض الشيء تقويضاً: أي هدّمه من أساسه.



ثَمَّةَ مَا هُوَ أَعْمَقُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْأَلَمِ وَ أَلْصَقُ بِهَا ؟ مَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ تَعَلَّمْتُ سَابِقاً ، مِنْ بَعْضِ الأَشْخَاصِ الَّذِينَ بُتِرَتْ أَذْرُعُهُمْ وَسِيقَانُهُمْ ، أَنَّهُ كَانَ يَلُوحُ لَهُمْ أَحْيَاناً أَنَّهُمْ يُحِسُّونَ بِأَلَمٍ فِي الْجُزْءِ الْمَبْتُورِ مِنْ أَجْسَامِهِمْ ، مِمَّا حَدَانِي عَلَى التَّفْكِيرِ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَيْضاً الثِّقَةَ بِوُجُودِ أَذًى حَقِيقِيٍّ فِي أَعْضَاءِ جِسْمِي وَإِنْ أَحْسَسْتُ فِي هَذَا الْعُضْوِ بِأَلَمٍ » . [1]

روني ديكارت [2]

أسئلة :

1 – ما الذي يوحي ، للوهلة الأولى، بأن الإحساس هو مصدر كل معرفة ؟

2 – كيف أمكن للتجربة أن تزعزع هذه الثقة ؟

3 – عدِّدْ الأخطاء التي يكون الإحساس ، مهما كان نوعه، عرضةً لارتكابها ؟

4 – إذا لم يكن الإحساس، بسبب أخطائه، مصدراً للمعرفة؛ فما المصدر الحقيقي الذي بإمكانه، ليس فقط، تصويب هذه الأخطاء ، بل القيام بدوره كمصدر أوثق لأية معرفة ؟

---

[1]- روني ديكارت، تأملات ميتافيزيقية، ترجمة/ كمال الحاج، ط 3، دار عويدات، بيروت 1982، ص (224 – 225 226) بتصرف .

[2]- René Descartes هو أبو الفلسفة الحديثة (1596– 1650) ، وعالم في الرياضيات والفيزياء . ثار على الفكر القديم في مجال المنهج . من مؤلفاته : مبادئ الفلسفة ، مقال عن المنهج ، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، محن الروح، رسالة في الموسيقى .



3 - الإدراك حكم عقلي

[هَلِ الإِدْرَاكُ تأْوِيلٌ لِلإِحْسَاسِ وَتَصْحِيحٌ لِأَخطائِه، أَمْ أَنَّهُ حُكْمٌ عَقْلِيٌّ يَتجاوَزُهُ ؟]

« لِنَخْتَبِرْ الأَمْرَ جَيِّداً ! إِنَّ هَذا الأُفُقَ البَعِيدَ، لا أَراهُ بَعِيداً؛ إِنِّي أَحْكُمُ بِأَنَّهُ بَعِيدٌ حَسَبَ لَوْنِه وَحَسْبَ بُعْدِ الأَشْياءِ النِّسْبِي حَيْثُ أَراهُ، وَحَسْبَ تَداخُلِ التَّفاصِيلِ وَتَواسُطِ الأَجْسامِ الأُخْرَى الَّتي تُخْفيه عَنّي جُزْئِيًا. وَالَّذي يَشْهَدُ عَلى أَنِّي أَحْكُمُ، أَنَّ الرَّسّامِينَ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَمْنَحُونَنِي ذَلِكَ الإِدْراكَ لِجَبَلٍ بَعِيدٍ بِمُحاكَاةِ المَظاهِرِ عَلى اللَّوْحَةِ [1] . وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ، أَرَى ذَلِكَ الأُفُقَ بِنَفْسِ الوُضوحِ الَّذي أَرى بِهِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ أَمامي . وَكُلُّ هَذِهِ المَسافاتِ أُدْرِكُها [...] .

وَلَقَدْ شاعَ الزَّعْمُ بِأَنَّ اللَّمْسَ يُعَلِّمُنا، وَهَذا عَنْ طَرِيقِ المُلاحَظاتِ الصِّرْفَةِ والبَسيطَةِ دُونَ أَيِّ تَأْوِيلٍ. وَلَكِنَّ هَذا غَيْرُ صَحيح : فَأَنا لا أَلْمِسُ هَذا الحَجَرَ المُكَعَّبَ؛ لا ! فَأَنا أَلْمِسُ عَلَى التَّتالِي، أَضْلاعاً وَحُدوداً وَسُطوحاً صَلْبَةً وَمَلْساءَ . وَبِرَدِّي هَذِهِ المَظاهِرِ كُلِّها إِلَى شَيْءٍ واحِدٍ، أَحْكُمُ بِأَنَّ هَذا الشَّيْءَ مُكَعَّبٌ [2] [...].

إِنَّ الإِدْراكَ – عَلى الأَصَحِّ – هُوَ تَجاوُزُ حَرَكاتِنا وَآثارِها. وَالغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ بِلا شَكٍّ هُوَ دَوْماً، الحُصولُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الإِحْساسِ أَوْ رَفْضُهُ، كَما لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْتَطِفَ إِنَّ الصَّيّادَ يُدْرِكُ جَيِّداً، إِذا عَرَفَ كَيْفَ يَتَعَرَّفُ إِلَى كِلابِهِ الَّتي يَسْمَعُها؛ إِنَّهُ يُجيدُ الإِدْراكَ، إِذا عَرَفَ كَيْفَ يَبْلُغُ الحَمامَةَ الَّتي تَطيرُ . بَيْنَما الطِّفْلُ لا يُحْسِنُ الإِدْراكَ عِنْدَما يُريدُ بُلوغَ القَمَرِ بِيَدَيْهِ أَوْ بُلوغَ غَيْرِ ذَلِكَ [...]. أَمّا الإِحْساسُ نَفْسُهُ، فَلَيْسَ مُثيراً لِلشَّكِّ وَلا مُخْطِئاً [3]، وَبالتّالي لَيْسَ واقِعِيّاً؛ إِنَّهُ راهِنٌ عَلى الدَّوامِ حِينَ يَحْصُلُ لَدَيْنا .

---

[1] - و ذلك بالتحكم في نسبة الضوء والظل كخلفية، كما تعبر عنه لوحات الانطباعيين مثلا .

[2] - وهذا الحكم، بطبيعة الحال، حكم عقلي .

[3] - من الواضح أن في ذلك إشارة إلى الموقف الديكارتي المعروض في النص السابق .

ثَمرةً أوْ أتفادى ضَرْبَةَ حَجرٍ . فَالإدْراكُ الصَّحيحُ مَعْناهُ مَعْرِفَةٌ مُسْبَقَةٌ لِلْحَركَةِ الَّتي سَوْفَ أَقُومُ بِهَا لِلْوُصُولِ إلَى هَذِهِ الأغْراضِ . وَمَنْ يُدْرِكْ جَيِّداً ، يَعْرِفْ مُسْبَقاً مَا يَجِبُ فِعْلُهُ .

وَلِهَذا ، فَإنَّ الخَطَأَ فِي إدْراكِ شَبَحٍ لَيْسَ مَا تُشْعِرُنا بِهِ أَعْيُنُنا مِنْ نُورٍ عَابِرٍ أوْ دَنَسٍ مُلَوَّنٍ [1] ، وَإنَّما هُوَ فِي تَجاوُزِنا [2] . فَرُؤْيَةُ شَبَحٍ مَعْنَاهُ افْتِراضُ شَيْءٍ ، وَهُوَ أنَّهُ – حَسْبَ الانْطِباعَاتِ المَرْئِيَّةِ – عِنْدَمَا نُمَرِّرُ أَيْدِيَنَا ، فَسَوْفَ نَلْمَسُ شَيْئاً حَيّاً [3] [...] .

وَلِهَذا أيْضاً ، فَإنَّهُ بَاتَ وَاضِحاً أنَّ الإدْراكَ لا يَتَمَيَّزُ عَنِ الخَيَالِ إلَّا بِرابِطَةٍ تَجْمَعُ سَائِرَ تَجارِبِنَا ، وَبِمُراقَبَةِ سَائِرِ تَجَاوُزَاتِنا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ . وَلَكِنَّ الخَيالَ فِي أَدَقِّ إدْرَاكٍ ، يَمْضِي دَوْماً ؛ إلَّا أَنَّهُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا ، يُقْصَى مِنْ طَرَفِ تَحْقِيقٍ سَرِيعٍ ، وَتَغَيُّرٍ طَفِيفٍ يَقُومُ بِهِ المُلاحِظُ ، وَأخيراً ، بِحُكْمٍ صَارِمٍ » [4] .

آلان [5]

أسئلة :

1 – انطلاقاً من الأمثلة الواردة في النص، كيف يمكن للإدراك أن يتجاوز حدود الإحساس؟

2 – ما الصلة، التي حددها المؤلف، بين طبيعة الإدراك العقلية ووظيفته في المعرفة والتكيف؟

3 – هل بإمكاننا أن نحيل ما نحسبه خطأ حسيّاً ، إلى الوظائف العقلية ذاتها ؟ علّل إجابتك.

---

[1] - المقصود بالدنس الملون تلك اللطخة الكبيرة على الجدار أو غيره، و التي تلوح للرائي– وهو في حالة حركة– كأنها شبح أو طيف .

[2] - أي في تجاوز الواقع الذي نتواجد فيه كتجربة راهنة تربطنا بها مجموعة إحساسات ومشاعر وانفعالات .

[3] - و معنى ذلك أن الاعتقاد بوجود شبح لا يعود إلى خطأ في الإحساسات، بل إلى الخيال الذي هو ملكة قريبة من الإدراك .

[4] – Alain , Eléments de philosophie , Collection idées , Editions Gallimard France , 1941 , p.(22 ; (52–53) ; 57) .

[5] - هو(إميل أوغست شارتيي) المعروف بـ« آلان » Alain (1868– 1951) : فيلسوف فرنسي وأستاذ جامعي ذو نزعة عقلية . من أشهر مؤلفاته: مقتطفات ، عناصر الفلسفة ، الأفكار، الأفكار والعصور، الآلهة، مغامرات القلب .



4 - الإدراك ونظرية الصورة الكلية

[ما الذي يُثبِتُ أنَ الإدْراكَ لَيس مَجمُوعة إِحْساسَاتٍ ؛ إنَّهُ انتِظامٌ كُليٌّ لِلْمجالِ؟]

« إنَّ الفِكْرَةَ الأَسَاسِيَّةَ في نَظرِيَّةِ الصُّورةِ [1]، هِيَ أنَّ الأنساقَ الذِّهنِيَّةَ لَيْسَتْ أبداً مُكوَّنَةً مِنْ تأْليفٍ أَو اجْتِمَاعِ عناصِرَ مُعطاةٍ في حالَةِ انْعِزالٍ قبلَ اجْتِماعِهَا، بلْ هِيَ دائِماً جُمَلٌ مُنتَظِمَةٌ مُنذُ البِدايَةِ في « صُورةٍ »، أو بِنْيَةٍ شامِلَةٍ. وَعَليْه ، فَالإدراكُ لَيْسَ تَرْكيباً لإحْساساتٍ سابِقَةٍ [2]؛ بلْ أنَّه يَتحكَّمُ فِيهِ في جَميعِ المُستَوَياتِ « مَجالٌ » عَناصِرُهُ مُترابِطةٌ لأَنَّها مُدْرَكَةٌ مَعاً . مِثالُ ذلِكَ أنَّ نُقطَةً سَوْداءَ واحِدَةً إذا رُئِيَتْ على وَرَقَةٍ كَبيرَةٍ، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ إدراكُها كَعُنْصُرٍ مُنعَزِلٍ مَهْما كانَتْ وَحِيدَةً، إِذْ هِيَ تَنفَصِلُ بِصِفَتِها « شَكْلاً » على « خَلْفِيَّةٍ » تُكوِّنُها الوَرَقَةُ، وَأنَّ عَلاقَةَ الشَّكلِ- الخلفِيَّةِ تَفتَرِضُ انْتِظامَ المَجالِ البَصَرِيِّ بِأَجْمَعِه. وَمِمَّا يُؤَكِّدُ صِحَّةَ هَذا الأَمرِ، هُوَ أنَّه كانَ يُمكِنُ، في أَسْوَأِ الفُروضِ إدراكُ الورَقَةِ على أَنَّها الشَّيْءُ « الشَّكلُ »، وَالنُّقطةِ السَّوْداءِ على أَنَّها ثُقْبَةٌ؛ أَيْ عَلى أَنَّها الجُزْءُ الوَحِيدُ المَرْئِيُّ مِنَ « الخَلْفِيَّةِ ». فلماذا يَختارُ إِذَنْ الضَّربَ الأَوَّلَ مِنَ الإدراكِ ؟ وَلِماذا، إذا رَأَيْنا ثَلاثَ أو أَربَعَ نُقَطٍ مُتقارِبةٍ بَدَلَ النُّقطَةِ الواحِدَةِ ، لَمْ نَسْتَطِعْ أَن نَمنَعَ أَنفُسَنا مِنْ جَمْعِها في صُورةٍ تَقْديرِيَّةٍ مِنَ المُثَلَّثاتِ أَو المُرَبَّعاتِ؟ ذلِكَ أنَّ العَناصِرَ المُدْرَكَةَ في مَجالٍ وَاحِدٍ يَقَعُ رَبْطُها مُباشَرَةً في بِنْيَاتٍ شامِلَةٍ تَخْضَعُ لِقَوانِينَ مُعَيَّنَةٍ، هِيَ « قوانِينِ الانْتِظامِ » [3] .

---

[1] ـ هي النظرية الغشتالتية، و تعني كلمة Gestalt في أقرب معانيها إلى العربية : الصورة أو الشكل الكلي . (انظر المعاجم المتخصصة) .

[2] ـ في ذلك إشارة إلى موقف التجريبيين من أمثال لوك Lock وهيوم Hume، والذي مؤدّاه أن الإدراك ما هو إلا تجميع لإحساسات .

[3] ـ للتفصيل : عُدْ إلى هذه القوانين ، فضلا عن الأشكال و الرسومات و الأمثلة ، في ثنايا المشكلة الأولى الخاصة بالإحساس و الإدراك من كتاب الدروس : مشكلات فلسفية .



وَقوانِينُ الانْتِظامِ هَذِهِ ، وَهِيَ الَّتي تَتَحَكَّمُ في جَميعِ عَلاقاتِ المَجالِ ؛ لَيْسَتْ بِالنِّسْبَةِ إلى الفَرَضِ «الغِشْتالتي» [1] سِوَى قَوانينِ التَّوازُنِ الَّتي تَتَحَكَّمُ في آنٍ واحِدٍ ؛ في التَّيَّاراتِ العَصَبِيَّةِ الَّتي يَبْعَثُها الاتِّصالُ النَّفْسانيُّ بِالأَشْياءِ الخارِجِيَّةِ، وَالأَشْياءِ ذاتِها مُجْتَمِعَةً في مُحيطٍ كُلِّيٍّ يَشْمَلُ في آنٍ واحِدٍ العُضْوِيَّةَ وَوَسَطَها القَريبَ » . [2]

جان بياجي [3]

أسئلة :

1 – بيّنْ، من خلال الأمثلة، دور عناصر المجال في تكوين الصورة الكلية للإدراك .

2 – كيف يمكن اعتبار الإدراك متوقفاً على قوانين الانتظام ثلاثية الأبعاد ؟

3 – قارنْ بين هذه النظرية ، والنظرية التقليدية التي تميز بين الإحساس والإدراك من حيث الطبيعة والتركيب وأسبقية الحدوث ؟

---

[1]. نسبة إلى النظرية الغشتالتية السالفة الذكر، و التي راجت في النصف الأول من القرن العشرين في ألمانيا ثم في أمريكا، على يد أقطابها الثلاثة المعروفين : فيرتهايمر wertheimer ، كوفكا Koffka ، و كوهلر Kohler .

[2] . Jean Piaget ، La psychologie de l'intelligence ، Armand celin 1962 p .(69–70).

[3] . Jean Piaget هو عالم نفس ومربي سويسري معاصر (1896– 1980) من أشهر مؤلفاته : اللغة والتفكير عند الطفل، نشأة الذكاء عند الطفل، علم نفس الطفل والتربية .



5 - المعايشة قِوَامُ الإدراك

[إلى أيّ حدٍّ يُمكنُ اعتبارُ الإدراك ظاهِرَةً يتعذّرُ فيها فصلُ الذّاتِ عنِ الموضُوعِ ؟]

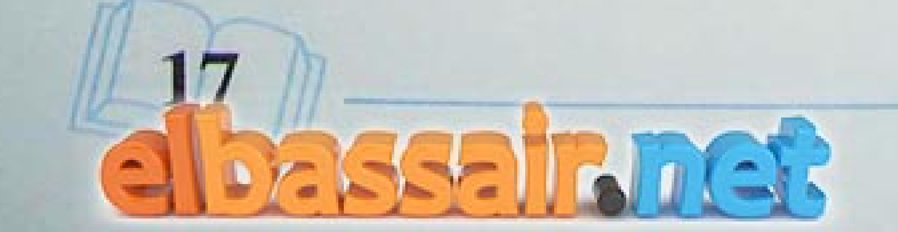
« لَمَّا أَنْظُرُ في إِدْراكي ، مُتنقِّلاً من جَرَيانه المُباشِرِ إلى تَصوُّرِه ، فَإِنَّني أَقُومُ بِبِنائِه مِن جَديدٍ ، فَأُصادِفُ ثانِيَةً تَصوُّراً أَوَّلِيّاً سابِقاً يُمارِسُ نَشاطاً ما عَلى الإِدْراكِ نَفْسِه ، فَيكُونُ هَذا الأَخيرُ مُجرَّدَ أَثَرٍ لَهُ . وَبِمِثْلِ هَذا التَّصوُّرِ أُدْرِكُ الغَيْرَ ؛ فَلا أَمْلِكُ ، وَالحَالَةُ هذِه ، إِلاَّ أَنْ أَشْعُرَ بِجِدَّةِ إِدْراكي وَأَنا أَتبادَلُ النَّظَراتِ مَعَهُ ، فِيمَا يُشْبِهُ التَّأَمُّلَ القائِمَ عَلى التَّعْبيرِ الوِجْدانِيِّ [...] .

لَكِنَّ إِدْراكَ الغَيْرِ سابِقٌ دائِماً [1] ؛ وَثَمَّةَ مُلاحَظاتٌ تَجْعَلُ هَذا الأَمْرَ مُمْكِناً . فَالصَّبِيُّ في سِنِّ الخَمْسَةَ عَشَرَ شَهْراً مِنْ عُمُرِه ، يَلْجَأُ إِلَى فَتْحِ فَمِه أَثْناءَ اللَّعِبِ مَعَهُ ، بِمُجَرَّدِ أَنْ أَضَعَ إِحْدَى أَصابِعِه داخِلَ فَمِي مُتَظاهِراً بِمُحاوَلَةِ « العَضِّ » عَلَيْهَا ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ وَجْهَهُ أَوْ فَمَهُ أَوْ أَسْنانَهُ في المِرْآةِ ، فَهُوَ لا يَعْرِفُ أَنَّ أَسْنانَهُ تُشْبِهُ أَسْناني . وَمَعَ أَنَّهُ يُحِسُّ مِن داخِلِه ، أَنَّ فَكَّهُ، أَي أَسْنانَهُ وَفَمَهُ، يُشَكِّلُ وَسيلَةً « لِلْعَضِّ » تَماماً كَما هُوَ حالُ فَكِّي الَّذي يَراهُ مِنَ الخارِجِ، فَهُوَ قادِرٌ، مُنْذُ البِدايَةِ وَمُباشَرَةً، عَلى إِدْراكِ مَقاصِدِ « العَضِّ » كَدَلالَةٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَنا. إِذَنْ، فَهُوَ يُدْرِكُ مَقاصِدَهُ في جِسْمِه وَجِسْمي أَيْضاً، وَبِالتَّالي إِدْراكَ مَقاصِدِه من خِلالِ جِسْمِه [2] ؛

---

[1] - أي أن إدراكي لذاتي لا يتم إلا من خلال ، و بعد ، إدراكي للغير L'Autrui، وهذا « الغير » حاضر دائما في إدراكاتي عن طريق فكرة المعايشة، والتعاطف، و الوجدان؛ (وذلك ما يتضح أكثر في المثال المعروض في الموضع اللاحق) . فلا مبرر للقول إذن، بوجود إدراك عقلي خال من الامتداد والتواصل مع الموضوع ، لأنه من خلال احتواء التجربة الحسية التي قوامها الغير والأشياء، يقوم كظاهرة موحدة لا انفصام لها، خلاف ما ذهب إلى ذلك أنصار النظرية التقليدية من العقليين، بل لا يوجد ما يبرر التمييز بين الإدراك و الواقع .

[2] - إن هذه « التبادلية » عند الظواهريين تمثل جوهر فكرة المعايشة، فالذاتية الخالصة وهمٌ، والتجربة الشعورية لا تكون إلا بموضوع .



فَالارْتِبَاطَاتُ القَائِمَةُ بَيْنَ تَعْبِيرَاتِي الجِسْمِيَّةِ وَنظِيرتها عِنْدَ غَيْرِي مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ مَقَاصِدِ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ المُشْتَرَكَةِ، يُمْكِنُهَا أَنْ تُوَضِّحَ لَنَا السَّبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةٍ مُنَظَّمَةٍ لَا مِنْ خِلَالِ الإِدْرَاكِ المُبَاشِرِ، بَلْ الإِدْرَاكُ الَّذِي أَعِيشُهُ كَجِسْمٍ ظَوَاهِرِيٍّ [1] لِي وَلِغَيْرِي كَمَا يَبْدُو مِنَ الخَارِجِ. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ رَابِطَةً بَاطِنِيَّةً تَدْفَعُنِي إِلَى إِدْرَاكِ الغَيْرِ دَائِماً بِوَصْفِهِ تَتِمَّةً لِلْجُمْلَةِ». [2]

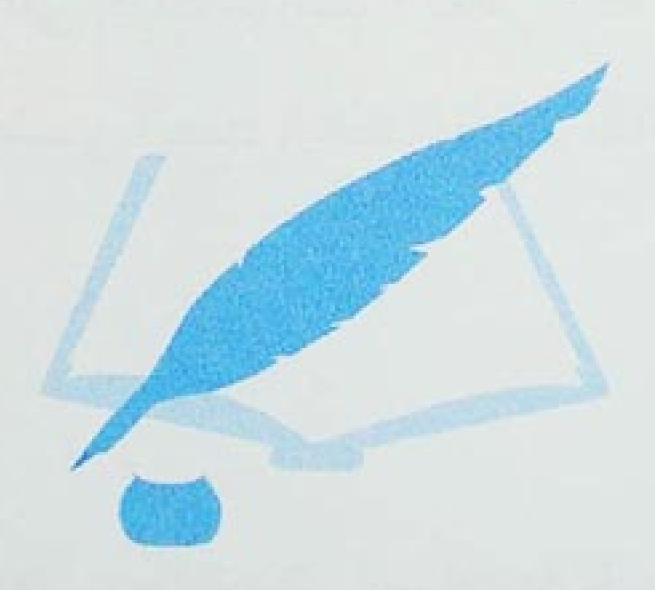
موريس ميرلوبونتي [3]

أسئلة :

1 – كيف يتمّ إدراك الذات ، بما فيه من جدّة ، من خلال إدراك الغير كموضوع ؟

2 – بيّن ، على ضوء المثال ، أن المعايشة و حضور الغير الدائم ، أسبق في إدراك الذات ؟

3 – ماذا تستنتج من اعتبار الإدراك متوقفاً على الإحساس العام بالجسم ، و الشعور المشترك مع الغير ؟



[1] ـ وعلى أساس ذلك سمّي هوسرل Husserl (ت 1938) مذهبه بالظواهرية أو Phénoménologie .

[2] – Maurice Merleau ponty ، Phénoménologie de la perception . N.R.F ، Paris ،1964 . p .(404 – 405) .

[3] ـ Maurice Merleau ponty هو فيلسوف فرنسي معاصر (1908– 1961) ذو نزعة ظواهرية، تأثر بالغشتالتيين، وله صلة بالوجوديين . من مؤلفاته : المعنى واللامعنى، بنية السلوك ، فينومونولوجيا الإدراك، والمرئي واللامرئي .



6 - دلالة الانفعال

[هَلْ يُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ غَائِيَّةَ[1] الانْفِعَالِ تَحْمِلُ في طَيَّاتِهَا دَلَالَةً بِمَعْزِلٍ عَنْ وَعْيِنَا بِهَا؟]

« لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ الانْفِعَالَ مَا لَمْ نَبْحَثْ عَنْ دَلالَةٍ لَهُ. وَهَذِهِ الدَّلالَةُ حَرَكِيَّةٌ بِطَبِيعَتِهَا، لِذَا نَرَى أَنْفُسَنَا مُلْزَمِينَ بِأَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ غَائِيَّةِ الانفِعَالِ، وَهَذِهِ الْغَائِيَّةُ يُمْكِنُ إِدْرَاكُهَا بِصُورَةٍ مَلْمُوسَةٍ عَنْ طَرِيقِ امْتِحَانٍ إِيجَابِيٍّ لِلسُّلُوكِ الْانْفِعَالِيِّ. وَالْأَمْرُ لَا يَتَعَلَّقُ قَطُّ بِنَظَرِيَّةٍ فِي الْانْفِعَالِ- الْغَرِيزَةِ تَكُونُ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ غُمُوضًا وَتَرْتَكِزُ عَلَى أُسُسٍ مُسْبَقَةٍ أَوْ مَبْدَإٍ مُسَلَّمٍ بِهِ؛ إِنَّ مُجَرَّدَ اعْتِبَارِ الْأَفْعَالِ يَقُودُنَا إِلَى حَدْسٍ تَجْرِيبِيٍّ عَنِ الدَّلَالَةِ الْغَائِيَّةِ لِلْانْفِعَالِ، فَإِذَا حَاوَلْنَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنْ نُثْبِتَ جَوْهَرَ الْانْفِعَالِ كَفِعْلٍ تَابِعٍ لِلسَّيْكُولُوجْيَا الدَّاخِلِيَّةِ[2] فِي نِطَاقِ حَدْسٍ تَامٍّ، نَسْتَطِيعُ إِدْرَاكَ تِلْكَ الْغَائِيَّةِ وَهِيَ لَاصِقَةٌ بِهَيْكَلِهِ.

وَهَكَذَا نَأْخُذُ بِعَيْنِ الْاعْتِبَارِ طَبِيعَةَ الْانْفِعَالِ الرَّئِيسِيَّةَ؛ فَالْانْفِعَالُ مُتَلَقَّى، وَهُوَ مُفَاجِئٌ وَيَنْتَشِرُ حَسَبَ قَوَانِينَ خَاصَّةٍ، وَبِدُونِ أَنْ تَتَمَكَّنَ عَفَوِيَّتُنَا الْوَاعِيَةُ مِنْ تَعْدِيلِ سَيْرِهَا بِطَرِيقَةٍ ذَاتِ قِيمَةٍ. فَالْانْفِعَالُ هُنَا بِمَثَابَةِ هُرُوبٍ أَمَامَ الْإِيحَاءِ الْوَاجِبِ عَمَلُهُ، مِثْلُهُ مِثْلُ النَّوْمِ الَّذِي يَكُونُ أَحْيَانًا بِمَثَابَةِ هُرُوبٍ مِنْ قَرَارٍ يَجِبُ اتِّخَاذُهُ.

يَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ دَلَالَةَ سُلُوكِنَا الْوَاعِيِّ هِيَ خَارِجَةٌ كُلِّيًا عَنِ الشُّعُورِ نَفْسِهِ، أَوْ إِذَا شِئْنَا، يَكُونُ الْمَدْلُولُ عَنْهُ مُنْقَطِعًا كُلِّيًا عَنِ الدَّالِّ، وَسُلُوكُ الشَّخْصِ هُوَ بِحَدِّ ذَاتِهِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ حَلُّ رُمُوزِهِ بِوَسَائِلَ خَاصَّةٍ، كَمَا يُصَارُ إِلَى حَلِّ لُغَةٍ مَوْصُوفَةٍ[3].

---

[1] -الغائية : أو (Finalité) تعني ، كما حددها أرسطو في الفلسفة الأولى ، أن لكل الأشياء قدرها المقدر تقديرا مسبقا ، و أن كل الأشياء تحمل في ذاتها مبدأ غرضيا إيجابيا نحو الكمال الأول ، و كل الأغراض في الطبيعة تخضع لغاية أسمى واحدة . أما توظيفها العلمي فلا يخرج عن اعتبارها مرادفة للقصدية التي تتضمنها عملية التكيف القصوى للأشياء مع ما يحيط بها .

[2] -و هو علم النفس المتعلق بدراسة أحوال الشعور عن طريق المنهج المعروف بالاستبطان .

[3] -أي لغة اصطلاحية قابلة للوصف ؛ و الانفعال بهذا المعنى ليس اعتباطيا ، إنما يحمل في طياته دائما رموزا و دلالات قابلة للتحليل و الوصف ، لا عن طريق الوعي الذي يتخذها ، بل بامتحان السلوك .



وَيَبْدُو، فِي الْبَدْءِ، أَنَّ النَّتِيجَةَ الأَوَّلِيَّةَ لِتَفْسِيرٍ كَهَذَا أَنْ يُصْبِحَ الْوَعْيُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَدْلُولِ عَنْهُ، وَأَنْ نَقْبَلَ بِأَنَّ الْوَعْيَ يَتَّخِذُ لَهُ دَلاَلَةً بِدُونِ أَنْ يَعِيَ الدَّلاَلَةَ الَّتِي يَتَّخِذُهَا. وَهَذَا لاَ يَعْنِي أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الدَّلاَلَةُ صَرِيحَةً تَمَامًا، وَفِي ذَلِكَ دَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ مُمْكِنَةٌ لِلْجُمُودِ وَالْوُضُوحِ ، فَلاَ يَجِبُ أَنْ نَسْأَلَ الْوَعْيَ مِنْ خَارِجٍ، كَمَا نَسْأَلُ بَقَايَا الْمَوْقِدِ أَوْ الْمَكَانَ الَّذِي خَيَّمْنَا فِيهِ ، بَلْ عَلَيْنَا أَنْ نَبْحَثَ فِيهِ مِنَ الدَّاخِلِ عَنِ الدَّلاَلَةِ . فَالْوَعْيُ هُوَ نَفْسُهُ الْفِعْلُ وَالدَّلاَلَةُ وَالْمَدْلُولُ عَنْهُ مَعًا » .[1]

جان بول سارتر[2]

أسئلة :

1 – وضّح بدقة عناصر المفهوم الجديد في تعريف سارتر للانفعال .

2 – ما هي الأسس التي تقوم عليها غائية الانفعال ؟ بيّن لماذا لا نعدّه سلوكاً عفوياً .

3 – ما رأيك في تلك النتيجة الأولية المشار إليها في النص : « أن نقبل بأن الوعي يتّخذ له دلالة بدون أن يعي الدلالة التي يتّخذها » ؟



[1] - ج. ب. سارتر ، نظرية الانفعال ، ترجمة /هاشم الحسيني ، دار مكتبة الحياة ، بدون طبعة ولا تاريخ ، ص ، (39 – 40 – 41 – 42 – 43 بتصرف) .

[2] - Jean-Paul Sartre هو فيلسوف وكاتب فرنسي (1905 – 1980) يعدّ أحد أقطاب الوجودية المعاصرة . من مؤلفاته : الوجود والعدم ، و نقد العقل الجدلي. و له روايات تترجم اتجاهه منها : الغثيان والأيدي القذرة .

7 - اللغة من الانفعال إلى الرمز

[إِلَى أَيِّ مَدًى يُمْكِنُ الاعْتِقَادُ بِأَنَّ تَكْوِينَ اللُّغَةِ خَاضِعٌ لِمَرْحَلِيَّةٍ وَ تَدَرُّجٍ ؟]

« إِنَّ الرَّضِيعَ يَسْلُكُ وِفْقًا لِمَبْدَإِ اللَّذَّةِ، بِحَيْثُ إِنَّ حَرَكَاتِه لَا تَتَشَكَّلُ كَوَسَائِلَ لِلتَّوَاصُلِ إِلَّا انْطِلَاقًا مِنَ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَكْتَسِي فِيهَا تِلْكَ الْحَرَكَاتُ طَابَعًا تَرْمِيزِيًا [1] نِسْبِيًّا. فَاسْتِعْمَالُ الْحَرَكَةِ أَمَامَ الْآخَرِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى الشَّيْءِ بِالسَّبَّابَةِ تَدُلُّ فِي آنٍ مَعًا عَلَى قَصْدِيَّةِ الرَّضِيعِ وَعَلَى الْمَوْضُوعِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ . وَمَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِالسَّبَّابَةِ هِيَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ « كَلَامٌ » [2]. وَلَكِنْ يَصْدُقُ ذَلِكَ عَلَى الصُّرَاخِ وَالْمُنَاغَاةِ وَالْبُكَاءِ أَيْضًا؛ فَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ وَالْإِشَارَةِ بِالسَّبَّابَةِ يَكْمُنُ فِي أَنَّ تِلْكَ السُّلُوكَاتِ لَمْ تُسْتَعْمَلْ مِنْ طَرَفِ الطِّفْلِ كَعَلَامَاتٍ؛ فَإِذَا كَانَتْ تُعَبِّرُ عَنِ الْأَلَمِ وَالْجُوعِ وَعَنِ الرَّغْبَةِ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْآخَرِ...إلخ، فَإِنَّهَا تَفْتَقِدُ إِلَى وُضُوحِ مَقَاصِدِهَا. غَيْرَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ، إِذَا كَانَ الصُّرَاخُ وَالْبُكَاءُ وَالْهَيَجَانُ عِبَارَةً عَنْ نَشَاطَاتٍ تَحْمِلُ دَلَالَةً مُحَدَّدَةً، فَإِنَّهَا تُعْتَبَرُ لُغَةً لِكَوْنِهَا نَشَاطَاتٍ تَعْبِيرِيَّةً. فَمُنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي يَتِمُّ فِيهَا اسْتِخْدَامُ نَشَاطٍ مِنَ النَّشَاطَاتِ السَّابِقَةِ [3] الذِّكْرِ أَمَامَ الْآخَرِ أَوْ لِلَفْتِ نَظَرِه – حَتَّى وَإِنْ كَانَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ « أَنَا » وَ « أَنْتَ » [4] غَيْرَ حَاصِلٍ – قُلْنَا مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ إِنَّ هُنَاكَ كَلَامًا . كَمَا يُمْكِنُنَا الْقَوْلُ إِنَّ تِلْكَ السُّلُوكَاتِ تَرْتَبِطُ بِأَنْسَاقِ الْمُعَالَجَةِ وَبِأَنْسَاقِ التَّمَثُّلِ، حَيْثُ تَنْحَصِرُ الْأُولَى فِي بُنْيَةِ اللُّغَةِ وَتَتَحَدَّدُ الثَّانِيَةُ فِي الدَّلَالَةِ . فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ تَتَّخِذُ فِي الْبِدَايَةِ شَكْلَ لُغَةِ الْجِسْمِ بِرُمَّتِه، فَإِنَّهَا تَصْبُو نَحْوَ اتِّخَاذِ أَشْكَالٍ أَكْثَرَ دِقَّةً بِمُجَرَّدِ أَنْ تَتَنَوَّعَ مَيَادِينُ مُمَارَسَةِ الطِّفْلِ لِنَشَاطِه . وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي الْبَحْثُ عَنْ جُذُورِ مَا نُسَمِّيهِ عَادَةً بِاللُّغَةِ ، أَوْ فَلْنَقُلِ اللِّسَانَ [5] ، فِي أُصُولِ وَمَنَابِعِ نَشَاطِ الطِّفْلِ . وَهَذَا مَا يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَاطِ اللُّغَةِ بِنُمُوِّ أَنْسَاقِ الْمُعَالَجَةِ وَالتَّمَثُّلِ الْوِجْدَانِيِّ– الْمَعْرِفِيِّ [6].

---

[1] - أي يستخدم رموزا للدلالة على مقاصد معينة لا تخرج عن كونها في النهاية مشارا إليه (أو مدلولا) .

[2] - لا شك في أن الإشارة بالسبابة لا تشبه الكلام المنطوق من حيث كونها صامتة ، إلا أنها تحقق ذات المقصد في كثير من الاحيان و بأوجز صورة .

[3] - و هي جملة النشاطات المذكورة قبل ذلك : كالصراخ و البكاء والهيجان و كل أشكال التعبير الفطري .

[4] - يرمز كل من هذين الضميرين المنفصلين ، كما هو واضح ، إلى الذات و الآخرين على الترتيب .

[5] - يرتبط مصطلح (لسان = Langue) ، عادة ، باللغة في بعدها التواصلي والاجتماعي ، و لا يتعلق ببنيتها الفكرية أو الدلالية ؛ و السبب في ذلك كونه عضوا ظاهرا لا يستخدم للتفكير بل للكلام و التبليغ والتواصل مع الغير .

[6] - إن أنساق المعالجة تتم من خلال الانفعال الجسمي و الوجداني فتحمل تعبيرا فطريا عن حاجة مبهمة المقاصد للأنا ، أما أنساق التمثل فتتم بواسطة الرموز المعرفية فتحمل دلالة واضحة لشيء منفصل عن الأنا يراد تبليغه إلى الآخرين .

وَمَا يَظَلُّ بَارِزًا وَوَثِيقَ الصِّلَةِ بِالْمَوْضُوعِ – بِاعْتِبَارِ أَنَّ هَذِهِ الْقَطِيعَةَ تُمَثِّلُ شَرْطًا ضَرُورِيًا لِظُهُورِ الْكَلَامِ – هُوَ أَنَّهُ بِمُجَرَّدِ مَا تَبْدَأُ اللُّغَةُ فِي تَكْوِينِ الْوَسَائِطِ [1] وَبِمُجَرَّدِ مَا تُنَظَّمُ بِوَاسِطَةِ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهَا تَتَجَاوَزُ الْوَسِيلَةَ الْأَصْلِيَّةَ لِلتَّعْبِيرِ . فَبِتَرْجَمَتِهَا إِلَى كَلَامٍ ، تُصْبِحُ اللُّغَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْآخَرِ تَوَاصُلًا . وَبِذَلِكَ ، فَإِنَّهَا تُحَقِّقُ شَرْطَ اتِّخَاذِ بُعْدٍ عَنِ الذَّاتِ ، وَهُوَ شَرْطٌ ضَرُورِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ لِتَحْقِيقِ الذَّاتِ وَالْآخَرِ . وَبِاحْتِلَالِهَا لِمَكَانَةٍ وَسِيطِيَّةٍ بَيْنَ «أَنَا» يَتَشَكَّلُ وَ «أَنْتَ» تَعْمَلُ عَلَى تَشْكِيلِهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهَا لَا تَكُفُّ عَنْ تَسْجِيلِ وَإِبْرَازِ وَأَخْذِ مَسَافَةٍ عَنِ الذَّاتِ وَعَنِ الْآخَرِ وَعَنِ الْأَشْيَاءِ. فَالْكَلَامُ ، بِاعْتِبَارِهِ نَسَقًا مُنَظَّمًا مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالسُّلُوكَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ دَلَالَةً ، يُتِيحُ لِلُّغَةِ أَنْ تُصْبِحَ شَيْئًا فَشَيْئًا لِسَانًا» . [2]

جان ماري دول [3]

أسئلة :

1 – بيّنْ ، على ضوء النص، محدودية التعبير الانفعالي في أن يصنّف إلى لغة كاملة.

2 – استنتج في أسطر قليلة دور كلّ من الذات و الآخر في تكوّن اللغة . وهل تعتقد أن دورهما متكافئ بالضرورة ؟

3 – ارسُمْ جدولا تعيّن فيه ، استناداً إلى النص ، الحدّ الفاصل بين أنساق المعالجة وأنساق التمثل من حيث المصدر والطبيعة والعناصر المكونة و الغاية المرجوة .

4 – تتبّع، في فقرة مختصرة، المسار المتدرّج لتكوّن اللغة حتى تصير لساناً كما عُرض ذلك في النص .

---

[1] من أشهر هذه الوسائط اللغوية بطبيعة الحال «الكلمة» سواء كانت منطوقة أو مكتوبة ، و الإشارة سواء كانت جسمية أو حركية .

[2] جان ماري دول ، من فرويد إلى بياجي ، ترجمة/ عليمي الحاج و علي افرفار ، دار الطليعة ، ط1 ، بيروت 1998، ص ،(97–98 بتصرف) .

[3] Jean_Marie Dolle . هو باحث وأكاديمي فرنسي معاصر، يشغل حاليا كرسي علم النفس التكويني في جامعة ليون الثانية . ومن مؤلفاته: من فرويد إلى بياجيه ، من أجل فهم بياجيه ، و سياسيون ومربون (أو ديدرو و مشاكل التربية) .

8 - اللغة والفكر والانفعال

[لِماذا يَصْعُبُ عَلَيْنا فصْلُ اللّغة عَنِ الفِكْرِ ، فِيمَا يتيَسَّرُ لنا تَمْيِيزُهَا عَنِ الانْفِعَالِ ؟]

« إِنَّ الإِنْسَانَ ، دُونَ الحَيَوَانَاتِ الأُخْرَى ، مُزَوَّدٌ بِجِهَازٍ يُمَكِّنُهُ مِنْ تَوْصِيلِ أَفْكَارِهِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ . وَعَلَى هَذَا ، فَلا يَجُوزُ الْفَصْلُ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْفِكْرِ . وَمِنَ الْمُسْتَبْعَدِ جِدًّا أَنْ تُحْرِزَ الْبَشَرِيَّةُ مَا أَحْرَزَتْهُ مِنَ التَّقَدُّمِ فِي مِضْمَارِ الْحَضَارَةِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا لُغَةٌ تَخْدُمُ الْفِكْرَ وَتُقَدِّمُ لَهُ الْقَوَالِبَ الَّتِي تُصَاغُ فِيهَا الْمَعَانِي. إِنَّ اللُّغَةَ إِذَنْ ، أَدَاةٌ لَا غِنَى عَنْهَا مِنْ جِهَتَيْنِ : أَوَّلًا إِنَّهَا وَسِيلَةٌ لإِبْرَازِ الْفِكْرِ مِنْ حَيِّزِ الْكِتْمَانِ إِلَى حَيِّزِ التَّصْرِيحِ. وَثَانِيًا فَهِيَ عِمَادُ التَّفْكِيرِ الصَّامِتِ وَالتَّأَمُّلِ ، وَلَوْلَاهَا لَتَعَذَّرَ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَسْبِرَ الْحَقَائِقَ [1] إِلَى عُمْقِ أَعْمَاقِهَا حِينَمَا يُسَلِّطُ عَلَيْهَا أَضْوَاءَ فِكْرِهِ؛ إِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْفِكْرِ وَطِيدَةٌ ، فَاللُّغَةُ تُقَدِّمُ لِلْفِكْرِ تَعَارِيفَ جَاهِزَةً، وَتَصِفُ الأَشْيَاءَ بِخَصَائِصِهَا حَتَّى لَا تَتَدَاخَلَ مَعَ غَيْرِهَا ، وَتُسَاعِدُ الْمُفَكِّرَ فِي عَمَلِهِ ، إِذْ تُزَوِّدُهُ بِصِيَغٍ وَتَعَابِيرَ مَعْرُوفَةٍ ، وَتَضَعُ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ أَسَالِيبَ مَدْرُوسَةً .

عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَنْ نَنْسَى[...] أَنَّ التَّعْبِيرَ يَتَّخِذُ شَكْلَيْنِ : فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِطْرِيًّا طَبِيعِيًّا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ وَضْعِيًّا اصْطِلَاحِيًّا: فَأَمَّا النَّوْعُ الْفِطْرِيُّ، فَهُوَ لُغَةُ الْعَوَاطِفِ وَالانْفِعَالَاتِ وَالأَحَاسِيسِ فِي شَكْلِهَا الْفَجِّ، قَبْلَ أَنْ تَخْتَرِعَ لَهَا الْحَضَارَةُ مَا شَاءَتْ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ وَالتَّعَابِيرِ، وَقَبْلَ أَنْ يَصْطَنِعَ لَهَا الْمُجْتَمَعُ قَوَالِبَ الأَلْفَاظِ وَصِيَغَ الْجُمَلِ.

إِنَّ التَّعْبِيرَ الطَّبِيعِيَّ يَتِمُّ بِوَاسِطَةِ الصُّرَاخِ وَالضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ وَاحْمِرَارِ الْوَجْهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَظَاهِرِ الإِرَادِيَّةِ الَّتِي نُدْرِكُهَا بِالْحَوَاسِّ، وَنَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى مُعَانَاةِ الشَّخْصِ الْمُتَلَبِّسِ بِهَا [2] لِلأَلَمِ أَوِ الْحُزْنِ أَوِ الْخَوْفِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ [...] .

---

[1] - أي أن يكتشفها ويحيط بمعرفتها .

[2] - أي الذي تظهر عليه كما يظهر اللباس .



وَأَمَّا النَّوْعُ الْوَضْعِيُّ أَوْ الاصْطِلَاحِيُّ ، فَهُوَ لُغَةُ التَّفْكِيرِ وَالْعَمَلِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُعَقَّدَةِ، وَلُغَةُ الْحَضَارَةِ وَالتَّقَدُّمِ، وَبِهَا يَتَعَامَلُ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ وَيَتَفَاهَمُونَ لِقَضَاءِ شُؤُونِهِمْ. وَيَتَمَيَّزُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ بِكَوْنِهِ إِرَادِيًّا وَمَقْصُودًا، وَبِعَدَمِ اقْتِصَارِهِ عَلَى الْحَاجَاتِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْبَقَاءِ ، إِذْ يُمْكِنُ بِوَاسِطَةِ اللُّغَةِ الاصْطِلَاحِيَّةِ أَنْ نُعَبِّرَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، سَوَاءٌ مِنْهُ الضَّرُورِيُّ أَوْ الْكَمَالِيُّ، وَسَوَاءٌ كَانَ مَادِيًّا أَوْ رُوحِيًّا، مَلْمُوسًا أَوْ مُجَرَّدًا».[1]

حنفي بن عيسى[2]

أسئلة :

1 – بيّنْ ، بالرجوع إلى النص، أسباب تعذّر فصل اللغة عن الفكر.

2 – قارنْ بين نوعي التعبير من حيث الطبيعة والقيمة كما عرض لهما صاحب النص.

3 – لتقويم النص، حدّدْ موقفك مما طُرح فيه، معززاً إيّاه بحجج و أمثلة .



[1] ـ حنفي بن عيسى ، محاضرات في علم النفس اللغوي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط 2 ، الجزائر 1980. ص ، (78– (79–80) – 81–82) بتصرف .

[2] ـ هو باحث أكاديمي جزائري حامل لإجازة في التربية وعلم النفس ، و رسالة دكتوراه في الفلسفة وعلم النفس اللغوي. عمل أستاذا بمعهد علم النفس بجامعة الجزائر . له : محاضرات في علم النفس اللغوي ، و فن الترجمة تنظيرا وتطبيقا ، و مؤلفات أخرى في الأدب والتاريخ والاجتماع .



9 - اللغة بين الثبات والتغير

[كَيفَ يمكنُ التَّسليمُ بأنَّ تطوُّرَ اللّغةِ عبرَ الزّمنِ يقتضي ثباتَها وتغيُّرها في آنٍ معاً ؟]

«إنَّ الزَّمَنَ ، الَّذي يَضْمَنُ اسْتِمْرارِيَّةَ اللُّغَةِ ، لَهُ أثَرٌ مُخْتَلِفٌ يَبْدُو مُناقِضًا لِهَذِهِ الاسْتِمْرارِيَّةِ: فَهُوَ يُساهِمُ أيْضًا في إحْداثِ تَغْيُّراتٍ سَرِيعَةٍ في الإشاراتِ اللُّغَوِيَّةِ . وَبِهَذا يُمْكِنُ الحَديثُ في آنٍ مَعًا ، عَنِ اسْتِقْرارِ الإشارَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَكَذا عَنْ عَدَمِ اسْتِقْرارِها .

وَلا غَرْوَ في ذَلِكَ، إذْ تُبَيِّنُ آخِرُ التَّحْليلاتِ أنَّ كِلا الأثَرَيْنِ مُتَرابِطانِ تَرابُطًا سَبَبِيًّا؛ فالإشارَةُ هِيَ في حالَةِ تَغَيُّرٍ بِسَبَبِ كَوْنِها مُسْتَمِرَّةً. وَبِما يَتَحَكَّمُ في كُلِّ تَغَيُّرٍ هُوَ اسْتِتْبابُ الإرْثِ القَديمِ [1] بِما يَجْعَلُ التَّغَيُّرَ ذاتَهُ إزاءَ الماضي نِسْبِيًّا وَمَحْدودًا. وَبِذَلِكَ يَتَأسَّسُ مَبْدَأُ التَّغَيُّرِ عَلى مَبْدَإ الاسْتِمْرارِيَّةِ .

وَهَذا التَّغَيُّرُ في الإشارَةِ اللُّغَوِيَّةِ عَبْرَ الزَّمَنِ يَتَّخِذُ أشْكالًا مُتَنَوِّعَةً يُمْكِنُ لِأيٍّ مِنْها أنْ يَحْتَلَّ فُصولًا مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ . وَبِدونِ إيغالٍ في التَّفاصيلِ، بِوُسْعِنا اسْتِنْباطُ، أنَّ مَعْنى كَلِمَةِ تَغَيُّرٍ لا يَجِبُ أنْ يُؤْخَذَ عَلى عِلّاتِهِ [2]؛ فَقَدْ يَحْمِلُ عَلى الاعْتِقادِ بِأنَّ الأمْرَ يَتَعَلَّقُ تَخْصيصًا بِتَحْويراتٍ [3] في النُّطْقِ وَالتَّلَفُّظِ الصَّوْتِيِّ لِلإشارَةِ، أوْ بِالمُقابِلِ، بِتَحْويراتٍ في المَعْنى مِمّا يَحْمِلُهُ تَصَوُّرُ المُشارِ إلَيْهِ [4]. لَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ لا يَفي بِالمَطْلوبِ . إذْ مَهْما كانَتْ عَوامِلُ التَّغَيُّرِ في اللُّغَةِ، سَواءٌ تَمَّتْ بِطَريقَةٍ مَعْزولَةٍ ، أمْ مُنَسَّقَةٍ، فَإنَّ نَتيجَتَها الحَتْمِيَّةَ وَالدّائِمَةَ تَتَضَمَّنُ تَحَوُّلًا ما في العَلاقَةِ بَيْنَ الإشارَةِ وَالمُشارِ إلَيْهِ [...] .

إنَّ أيَّةَ لُغَةٍ لا تَسْتَطيعُ بِشَكْلٍ جِذْرِيٍّ رَدَّ هَذا التَّحَوُّلِ الحاصِلِ مِنْ وَقْتٍ إلى آخَرَ، في العَلاقَةِ بَيْنَ الإشارَةِ وَالمُشارِ إلَيْهِ؛ تِلْكَ إحْدى نَتائِجِ الطّابَعِ التَّحَكُّمِيِّ لِلإشارَةِ اللُّغَوِيَّةِ [5] .

---

1 - أي استقراره و ثباته بما يملكه الماضي التاريخي من رصيد جماعي ضاغط .

2 - المقصود : ألا يؤخذ هذا التغير على معناه المطلق . والعلّات من العلة ؛ أي السبب والباعث والمبرر .

3 - حوّر يحوّر تحويرا أي : غيّر وبدّل وعدّل جزئيا أو كليا.

4 - قد تكون الإشارة والمشار إليه بمثابة الكلمة وما تدل عليه . والكلمة خاضعة للتغير في لفظها (كما في تؤنس وتونس) ، أو في معناها(كما في عقل = وثاق ، وعقل = ملكة التفكير في العربية) .

5 - التحكمي هو ما يقبل التحكم فيه من اصطلاح وتواضع سواء في اشتقاق الكلمة أو حذفها أو تحويرها . و يحصل ذلك إما بالاتفاق الصريح(على نحو ما تعتمده أكاديميات ومجامع اللغة في البلاد العربية مثلا حينما يتعلق الأمر بمصطلح جديد أو تركيب لفظي أجنبي منحوت لتوّه خصيصا للتعبير عن اكتشاف ما). وإما بشكل عفوي بواسطة إدراج أو حذف كلمات بالتداول أو عدم التداول من طرف اللاشعور الجمعي .

أَمَّا المُؤَسَّسَاتُ الإِنْسَانِيَّةُ الأُخْرَى، مِثْلُ الأَعْرَافِ، القَوَانِينُ.. إلخ ، فَهِيَ جَمِيعُهَا تَقُومُ ، بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، عَلَى جُمْلَةِ الرَّوَابِطِ الطَّبِيعِيَّةِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ ؛ فَثَمَّ تَوَافُقٌ ضَرُورِيٌّ بَيْنَ الوَسَائِلِ المُسَخَّرَةِ وَالغَايَاتِ المَنْشُودَةِ ، أَمَّا في اللُّغَةِ ، فَعَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ ، لاَ يُوجَدُ مَا يُبَرِّرُ الجَمْعَ بَيْنَ هَذِهِ الفِكْرَةِ وَتِلْكَ الأَصْوَاتِ [1] [...] . وَنَلْمَسُ ذَلِكَ التَّعْقِيدَ في الكَيْفِيَّةِ الَّتِي تَتَطَوَّرُ مِنْ خِلاَلِهَا اللُّغَةُ ؛ فَهِيَ بِتَوَاجُدِهَا، في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، ضِمْنَ إِطَارِ المُجْتَمعِ وَإِطَارِ الزَّمَنِ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَطَالَهَا التَّغْيِيرُ . وَلَكِنْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، بِفِعْلِ الطَّابَعِ التَّحَكُّمِيِّ لِلإِشَارَاتِ فِيهَا وَمَا يَقْتَضِيهِ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، تَظَلُّ نَظَرِيًّا عُرْضَةً لِلتَّغْيِيرِ المُسْتَمِرِّ لِتِلْكَ العَلاَقَةِ. وَيَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ ، أَنَّ العَامِلَيْنِ مُتَّحِدَانِ وَمُسْتَقِلاَّنِ في آنٍ مَعًا .

وَبِهَذِهِ الصِّفَةِ تَتَطَوَّرُ اللُّغَةُ عَلَى نَحْوٍ حَتْمِيٍّ لاَ يُمْكِنُ مُقَاوَمَتُهُ؛ فَفِي مَدًى مُعَيَّنٍ مِنَ الزَّمَنِ يُمْكِنُ مُلاَحَظَةُ هَذِهِ التَّحَوُّلاَتِ العَمِيقَةِ وَالمُؤَثِّرَةِ في مَسَارِ اللُّغَةِ » . [2]

فرديناند دو سوسير [3]

أسئلة :

1 – وضّح ، اعتماداً على النص ، قابلية اللغة للثبات و الاستقرار عبر الزمن .

2 – بيّنْ بالمقابل إمكانية و حدود التغير الذي يفترض أن تكون اللغة عرضةً له .

3 – أجبْ عن السؤال التالي : لماذا يكون طابع التغير في اللغة تحكمياً لا ضرورياً منطقياً ؟

4 – برهنْ ، بالرجوع إلى النص ، أنه لا تناقض في القول باستقرار (ثبات) و عدم استقرار (تغير) اللغة عبر مسار تطورها التاريخي .

---

[1] - إن طابع معظم الكلمات في أية لغة تحكمي واصطلاحي : أي لا يوجد رابط ضروري و منطقي يجعل الأحرف المكونة لكل كلمة تدل– هي دون غيرها– على المشار إليه ، بل يبقى ذلك مجرد اتفاق بين أعضاء الجماعة الواحدة في ظرف زمني محدد ، فإذا رأت نفس الجماعة أو غيرها أن تغيرها حصل ذلك اتفاقا أيضا . وهذا ما يفسر تطور اللغة ذاتها عبر التاريخ من جهة، و تنوع اللغات واللهجات في جميع مراحل التاريخ الإنساني من جهة ثانية .

[2] – Ferdinand De Saussure ، Cours de linguistique Générale ، Editions TALANTIKIT ، Béjaia (ALG) ، 2002 ، p . (94–95–96) .

[3] - Ferdinand De Saussure هو عالم لغوي سويسري (1857– 1913) يعتبر أشهر مؤسّسي علم اللغة(اللسانيات أو الألسنية) المعاصرة . جمع تلامذته مجمل المحاضرات التي كان يلقيها في هذا التخصص ، و نشروها بعد وفاته (أي في سنة 1916) تحت عنوان : « محاضرات في علم اللغة العام » الذي يعدّ أعظم أثر له على الإطلاق . و هو أثر أضاء معالم الطريق لمن جاء بعده .



10 - الوظيفة التواصلية للغة

[إلى أيِّ مدى يُمكنُ القولُ : إنَّهُ مهما تعدَّدتْ وظائفُ اللُّغة ، فلا مناصَ منْ إرْجاعِها كُلِّها إلى وظيفةٍ واحدةٍ هيَ التَّواصُلُ الاجْتماعِيُّ ؟]

«إنَّ حَقيقَةَ اللُّغَةِ لاَ تَتوَقَّفُ عِنْدَ الإِحاطَةِ بِهذَيْنِ الحَدَّيْنِ المُتقابِلَيْنِ: الأَنا وَالعَالَم ، إذْ يُوجَدُ حَدٌّ ثَالِثٌ لاَ تَخْفى أَهَمِّيتُهُ، وَهُوَ " الآخَرُ" الَّذي أَتوجَّهُ إلَيْه بِكَلامِي. فَأَنا أَتكلَّمُ لأَنِّي لَسْتُ وَحيدًا، وَحتَّى حينَما أَتَكَلَّمُ مَعَ ذَاتِي ، كَما في حَالَةِ المُناجاة البَاطِنِيَّة فَإِنِّي أَعُدُّ ذَاتِي بِوَصْفِهَا آخَرَ .

إنَّ اللُّغَةَ تَثْبُتُ [1] ، مُنْذُ تَكَوُّنِ أَشْكَالِهَا البِدَائِيَّة، عَلَى امْتِدَادِ الأَنَا الشَّخْصِيِّ خَارِجَ الذَّاتِ؛ فَحِينَ يَضْحَكُ المَوْلُودُ الصَّغِيرُ، أَوْ يَنْتَقِلُ بِسُرْعَةٍ مِنَ الضَّحِكِ إِلَى البُكَاءِ، فَإِنَّهُ يَتوَجَّهُ بِذَلِكَ إِلَى مَنْ يُحِيطُ بِهِ طَالِبًا حَاجَةً مَا . وَمِنْ هُنَا فَوُجُودُ الإِنْسانِ لَيْسَ مُتَمَرْكِزًا عَلَى الذَّاتِ وَحْدَهَا، بَلْ أَنَّ مَحْدُودِيَّةَ الجِسْمِ ، وَإِنْ وُضِعَتْ حَدًّا فاصِلاً ، لاَ تُمَثِّلُ نِهَايَةً مُطْلَقَةً ، وَ" الآخَرَ" لَيْسَ نَتِيجَةً تَحْصُلُ بِالخِبْرَةِ وَالاسْتِدْلاَلِ بِقَدْرِ مَا هُوَ شَرْطُ وُجُودِ الإِنْسَانِ ذَاتِهِ .

إنَّ وَعْيَ الإِنْسَانِ بِواقِعِه يَقْتَضِي الإِقْرارَ بِتَعَدُّدِ الأَفْرادِ، وَكَذا بِلاَمَرْكَزِيَّةِ الوُجُودِ؛ وَقَدِ اتَّضَحَ ذَلِكَ مُنْذُ أُولَى أَطْوارِ حَيَاتِه حِينَمَا كَانَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ التَّعَرُّفُ عَلَى نَفْسِهِ مُسْتَقِلاًّ عَنِ الآخَرِينَ ، وَلاَ يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خَلاَلِ مُشَارَكَتِه فِي التَّظاهُراتِ المَعِيشِيَّةِ الكَبِيرَةِ لِقَبِيلَتِه، فَلا يَضَعُ ذَاتَهُ مُقَابِلَ الآخَرِينَ ، بَلْ مَعَ الآخَرِينَ بِفَضْلِ إِدْرَاكِه أَنَّ التَّواصُلَ اللُّغَوِيَّ لاَ يَقُومُ بِوَاسِطَةِ فَرْدٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا بَيْنَ أَفْرادٍ كَثِيرِينَ ؛ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ لُغَةٌ وُجِدَتْ عَلاَقَاتٌ بَيْنِيَّةٌ .

---

[1] - أي تستقرّ وتتعيّن في الواقع الملموس .



وَبِنَاءً عَلَى هَذَا ، تَضْطَلِعُ اللُّغَةُ فِي جَوْهَرِهَا بِوَظِيفَةِ تَمْتِينِ عُرَى التَّوَاصُلِ وَتَعْزِيزِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الأَفْرَادِ فِي سَعْيِهَا إِلَى الاسْتِمْرَارِيَّةِ وَالتَّطَوُّرِ ، بِمَا يَجْعَلُ هَذَا التَّوَاصُلَ بِمَثَابَةِ وُجُودٍ هُوَ الْوُجُودُ الْحَقُّ » . [1]

جورج غوسدورف [2]

أسئلة :

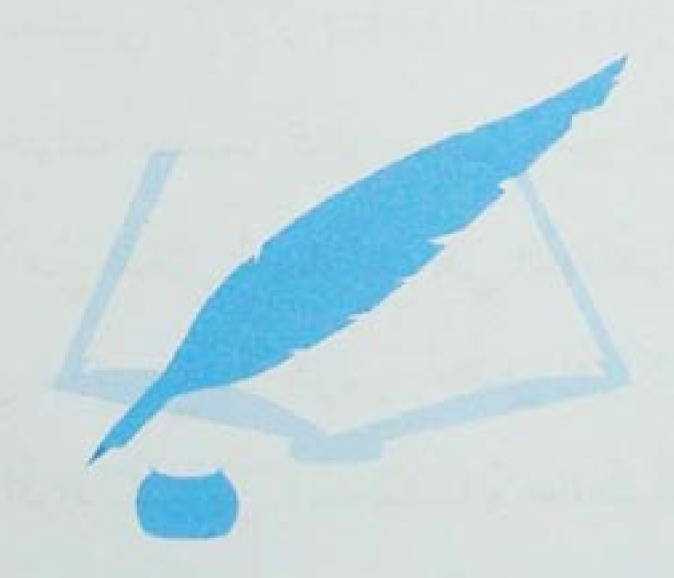
1 – استخرج الحجج الموظفة لتبرير الأطروحة الواردة في ثنايا النص ، مصنّفاً إيّاها إلى :

أ) حجة سيكولوجية (تتعلق بعلم النفس) .

ب) حجة انثروبولوجية (تتعلق بعلم أصل الإنسان) .

ج) حجة سوسيولوجية (تتعلق بعلم الاجتماع) .

2 – أصدرْ حكماً تتناول فيه قيمة الأطروحة .



---

1 – Georges Gusdorf ، La parole ، P.U.F ، Paris1977 ، p . (43-45-46) بتصرف.

2 – Georges Gusdorf هو باحث وأكاديمي فرنسي معاصر(وُلد في 1912) . من مؤلفاته : الكلام ، و أسطورة وميتافيزيقا .

11 - نحو ترجمة آلية

[كَيفَ يُمْكِنُ سَدُّ نَقائِصِ التَّرْجَمَةِ الآلِيَّةِ الحالِيَّةِ بِبَدائِلَ أَكْثَرَ نَجاعَةً في المُسْتَقْبَلِ؟]

« إِنَّ التَّقَدُّمَ الأَخيرَ الذي أَحْرَزَهُ عِلْمُ اللِّسانِيَّاتِ وَنَظَرِيَّةُ الإِعْلامِ وَتِقْنِيَّاتُ مُعالَجَةِ المُعْطَياتِ الرَّقْمِيَّةِ، يُبَشِّرُ بِجَعْلِ تَرْجَمَةِ اللُّغاتِ بِواسِطَةِ الآلَةِ أَمْرًا مُمْكِنًا [1]. وَأَكْبَرُ عَمَلٍ أُنْجِزَ حَتَّى الآنَ في هَذا المَجالِ، يَتَعَلَّقُ بِإِمْكانياتِ التَّرْجَمَةِ الحَرْفِيَّةِ، لأَنَّهُ يَسْهُلُ تَحْقيقُها ميكانيكيًا. وَالتَّرْجَمَةُ الحَرْفِيَّةُ تَكْمُنُ في إِبْدالِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ لُغَةٍ بِكَلِمَةٍ أَوْ كَلِماتٍ مِنَ اللُّغَةِ الأُخْرى مَعَ المُحافَظَةِ عَلى تَرْتيبِ الكَلِماتِ [...] .

وَبِما أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ تَطابُقٌ تامٌّ بَيْنَ مُفْرَداتِ مُخْتَلِفِ اللُّغاتِ، فَإِنَّ التَّرْجَمَةَ الحَرْفِيَّةَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَعَدَّدَ فيها - وَبِالنِّسْبَةِ إِلى مُعْظَمِ الكَلِماتِ- تَرْجَماتٌ عَلى اخْتِيارٍ يَبْقى عَلى القارِئِ في النِّهايَةِ انْتِقاءُ واحِدَةٍ مِنْها. وَإِدْخالُ الاخْتِياراتِ المُتَعَدِّدَةِ يُعَرْقِلُ وَيَعْمَلُ عَلى إِبْطاءِ القارِئِ حَتَّى وَلَوِ اسْتَطاعَ غالِبًا- وَلَوْ بَعْدَ الدِّراسَةِ- أَنْ يَتَلَقَّطَ المَعْنى الصَّحيحَ .

وَثَمَّةَ مُشْكِلٌ آخَرُ خَطيرٌ هُوَ أَنَّ تَرْتيبَ الكَلِماتِ- وَهُوَ في الغالِبِ يَخْتَلِفُ في اللُّغَتَيْنِ - يَزيدُ في غُموضِ المَعْنى بِالنِّسْبَةِ إِلى القارِئِ. وَأَخيرًا، ثَمَّةَ الصُّعوباتُ الدَّقيقَةُ لِلتَّعْبيراتِ الاصْطِلاحِيَّةِ وَاخْتِلافِ وَسائِلِ اللُّغاتِ في التَّعْبيرِ عَنْ نَفْسِ الأَشْياءِ البَسيطَةِ .

إِنَّ حَلَّ مُشْكِلَةِ المَعاني المُتَعَدِّدَةِ وَتَرْتيبِ الكَلِماتِ وَالتَّعْبيراتِ وَالغُموضِ العامِّ لِلْمَعْنى في حالَةِ التَّرْجَمَةِ الحَرْفِيَّةِ، يَبْقى البَحْثُ عَنْهُ في تَرْجَمَةِ الجُمْلَةِ بِالجُمْلَةِ [...] .

---

[1] - إن الآلة هنا ليست سوى جهاز الإعلام الآلي المزود ببرمجيات معالجة المعطيات الرقمية المعروفة .

إنَّ مَهَمَّتَنَا الحَالِيَّةَ هِيَ في تَوْفِيرِ مُعْجَمٍ خَاصٍّ بِنَمَاذِجِ الْجُمَلِ ، وَسَوْفَ نَشْتَغِلُ- تَمَاشِيًا وَالنِّهَايَةَ الْمَنْطِقِيَّةَ لِهَذِهِ الْخُطَّةِ - بِبُنْيَاتٍ أَطْوَلَ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، وَسَوْفَ نَحْصُلُ عَلَى تَقْرِيبَاتٍ تَتَحَسَّنُ دَوْمًا لاسْتِحْضَارِ اصْطِلاحِيَّةٍ نَفْتَرِضُ مَقْصُودَهَا لَدَى الكَاتِبِ ، وَسَوْفَ نَكُونُ في حَاجَةٍ إِلَى آلاتٍ تَحُلُّ الرُّمُوزَ وَآلاتٍ أُخْرَى تَضَعُهَا ، تَتَمَتَّعُ بِقُدْرَةٍ في التَّذَكُّرِ قَرِيبَةٍ مِمَّا هِيَ لَدَى الْعُضْوِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ . وَلاَ يَخْتَلِفُ نَقْلُ الرُّمُوزِ وَتَرْجَمَةُ اللُّغَاتِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّرَجَةُ » . [1]

فيكتور إينجف [2]

أسئلة :

1 – عدّدْ بإيجاز، انطلاقا من النص ، أهمّ الصعوبات التي تواجه الترجمة الآلية الحرفية .

2 – اذكرْ البدائل التي يقترحها صاحب النص .

3 – هل ترى أن هذه البدائل ممكنة التطبيق على المدى المنظور ؟



---

[1] – Victor H. Yngve ، La traduction des langues à la machine ، trad . R . Pagès cité dans Le langage ، Classiques Hachette ، Paris ، 1959 ، p . (82–83) .

[2] – Victor H. Yngve هو باحث متخصص في لغة البرمجيات من أصل أمريكي (وُلد في 1920) ، درّس علم اللسانيات في جامعة شيكاغو . و من أشهر مؤلفاته : الترجمة الآلية .



12 - الشعور النفسي والشعور الفيزيائي

[هَلْ إمْكَانِيَةُ ضَبْطِ قِياسِ الزَمَنِ النَفْسِيِّ وَ الزَمَنِ الفِيزِيَائِيِّ في الشُّعُورِ وَاحِدَةٌ ؟]

« مَا دُمْنَا فِي مَيْدَانِ الشُّعُورِ فَإِنَّ مَفْهُومَ الزَّمَنِ يَظَلُّ وَاضِحًا نِسْبِيًّا . فَنَحْنُ لاَ نُمَيِّزُ فَقَطْ بَيْنَ الإِحْسَاسِ الحَاضِرِ وَالأَحَاسِيسِ المَاضِيَةِ أَوْ تَوَقُّعِ الأَحَاسِيسِ المُقْبِلَةِ ، وَلَكِنَّنَا نَعْرِفُ جَيِّدًا مَاذَا نَعْنِي عِنْدَمَا نُقَرِّرُ أَنَّ ظَاهِرَتَيْنِ شُعُورِيَتَيْنِ احْتَفَظْنَا بِذِكْرَاهُمَا قَدْ سَبَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، أَوْ أَنَّ إِحْدَى ظَاهِرَتَيْنِ شُعُورِيَتَيْنِ مُتَوَقَّعَتَيْنِ سَتَحْدُثُ قَبْلَ الأُخْرَى .

لَكِنَّنَا عِنْدَمَا نَقُولُ إِنَّ حَادِثَتَيْنِ شُعُورِيَتَيْنِ مُتَزَامِنَتَيْنِ ، نَعْنِي أَنَّهُمَا تَتَدَاخَلاَنِ بِعُمْقٍ وَإِلَى دَرَجَةِ أَنَّ التَّحْلِيلَ الَّذِي يَسْعَى إِلَى فَصْلِهِمَا لَنْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِتَشْوِيهِهِمَا . فَالنِّظَامُ الَّذِي نُرَتِّبُ الحَوَادِثَ الشُّعُورِيَّةَ دَاخِلَهُ لاَ يَتَضَمَّنُ أَيَّ تَعَسُّفٍ [1] ، إِنَّهُ مَفْرُوضٌ عَلَيْنَا دُونَ أَنْ نُغَيِّرَ مِنْهُ شَيْئاً . وَلِكَيْ يُصْبِحَ مَجْمُوعُ إِحْسَاسَاتٍ قَابِلاً لِلتَّرْتِيبِ دَاخِلَ الزَّمَنِ ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ المَجْمُوعُ قَدْ كَفَّ عَنْ كَوْنِهِ حَالِياً ، وَأَنْ نَكُونَ قَدْ فَقَدْنَا الحِسَّ بِتَعَقُّدِهِ اللاَّنِهَائِيِّ ، وَإِلاَّ ظَلَّ حَالِياً. يَجِبُ ، إِذَا جَازَ التَّعْبِيرُ ، أَنْ يَكُونَ قَدْ تَبَلْوَرَ حَوْلَ مِحْوَرِ تَرَابُطَاتِ أَفْكَارٍ سَتَكُونُ كَنَوْعٍ مِنَ البِطَاقَةِ [2] .

لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُرَتِّبَ حَوَادِثَنَا النَّفْسِيَّةَ دَاخِلَ الزَّمَنِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَدْ فَقَدَتْ كُلَّ حَيَاةٍ ، وَذَلِكَ مِثْلَمَا يَفْعَلُ عَالِمُ النَّبَاتِ الَّذِي يُرَتِّبُ الزُّهُورَ المُجَفَّفَةَ دَاخِلَ مِعْشَبَتِهِ [3] ، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ البِطَاقَاتِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَدَدُهَا إِلاَّ نِهَائِيًا. فَالزَّمَنُ السَّيْكُولُوجِيُّ يَكُونُ زَمَناً مُنْفَصِلاً .

إِنَّنَا لاَ نُرِيدُ أَنْ نُدْخِلَ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ ظَوَاهِرَ شُعُورِنَا وَحْدَهُ ، وَلَكِنْ أَيْضًا الَّتِي يَكُونُ شُعُورُ الآخَرِينَ مَسْرَحاً لَهَا . وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا إِنَّنَا نُرِيدُ أَنْ نُدْخِلَ فِيهَا الحَوَادِثَ الفِيزِيَائِيَّةَ ؛

---

[1] - التعسف هنا بمعنى إمكانية التجاوز أو التعديل أو التصرف .

[2] - أو Fichier : كتشبيه لقابلية تصنيف الحوادث الشعورية تصنيفا يجعل منها أساساً حوادث منتهية .

[3] - هذا تشبيه ثانٍ يعزز الأول ؛ و المعشبة هي المكان الذي يحتفظ فيه عالم النبات بالمواد التي يدرسها .



تِلْكَ الأَشْيَاءُ الَّتي نَملأُ بهَا المكَانَ و لاَ يَرَاهَا مُبَاشَرَةً أَيّ شُعُورٍ . وَإذَا كَانَ الزَّمَنُ النَّفْسِيُّ مُعْطًى لَنَا ، فَإِنَّنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلُقَ الزَّمَنَ الفِيزِيَائِيَّ . مِنْ هُنَا تَبْدَأُ الصُّعُوبَةُ : هَذَانِ شُعُورَانِ يُشْبِهَانِ عَالمَيْنِ لاَ يَنْفُذُ أَحَدُهمَا إِلَى الآخَرِ ، فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ نُدْخِلَهُمَا في القَالَبِ نَفْسِهِ أَوْ أَنْ نَقِيسَهُمَا بِنَفْسِ القَامَةِ ، كَمَا لَوْ أَنَّنَا أَرَدْنَا أَنْ نَقِيسَ بِالغَرَامِ وَأَنْ نَزِنَ بِالمِتْرِ ، بَلْ لاَ جَدْوَى مِنَ الحَدِيثِ عَنْ قِيَاسٍ ؛ فَنَحْنُ قَدْ نَعْرِفُ أَنَّ حَادِثاً سَابِقٌ في الحُدُوثِ عَلَى آخَرَ ، وَلَكِنَّنَا لاَ نَعْرِفُ ذَلِكَ مَعْرِفَةً كَمِّيَّةً ، لأَنَّنَا- بِاخْتِصَارٍ- لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَوِّلَ الزَّمَنَ السَّيكُولُوجِيَّ الكَيْفِيَّ، إِلَى زَمَنٍ كَمِّيٍّ » .[1]

هنري بوانكاري[2]

أسئلة :

1 – بيّنْ ، بواسطة الشواهد المأخوذة من مقدمة النص ، طبيعة الزمن النفسي الظاهرية .

2 – قارنْ بين نظام ترتيب الحوادث داخل الزمن في كل من الشعور النفسي والشعور الفيزيائي .

3 – عدّدْ العوائق الموضوعية التي تَحُولُ، حسب بوانكاري، دون إمكانية قياس الزمن في الشعور النفسي بالقدر نفسه الذي يمكن اعتماده في الشعور الفيزيائي .

---

[1] ـ هنري بوانكاري ، قيمة العلم ، ترجمة/ الميلودي شغموم ، دار التنوير ، ط1، بيروت 1982 . ص ، (27–28) بتصرف .

[2] ـ Jules Henri Poincaré هو عالم رياضي و إبستمولوجي فرنسي (1854– 1912) كان أستاذا بجامعة باريس وعضوا بالأكاديمية الفرنسية ، و قد خصّص كثيرا من الاهتمام لدراسة مشكلة المعرفة وأسسها العامة كما في مؤلفاته : العلم والفرض ، و قيمة العلم ، و العلم والمنهج .



13 ـ الشعور واجهة الأنا

[مَا الَّذي يَدُلُّ عَلى أنَّ الشُّعُورَ لا يُطابِقُ الأنا ، إنَّما يُمَثِّلُ وَاجِهَةً لَهُ فَحَسْب ؟]

« يَرْتَبِطُ الشُّعُورُ بِالأَشْيَاءِ ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، بِالإِحْسَاسَاتِ الَّتي تَصِلُ إِلَى أَعْضَاءِ الحِسِّ مِنَ العَالَمِ الخَارِجِيِّ . فَالشُّعُورُ إِذَنْ مِنْ وِجْهَةِ النَّظَرِ الطُّوبُوغْرَافِيَّةِ [1] ظَاهِرَةٌ تَقَعُ في القِشْرَةِ الخَارِجِيَّةِ مِنَ الأَنَا . حَقًّا إِنَّنَا نَتَلَقَّى أَيْضاً مَعْلُومَاتٍ شُعُورِيَّةً مِنْ دَاخِلِ الْبَدَنِ وَهِيَ المَشَاعِرُ الوِجْدَانِيَّةُ الَّتي تُمَارِسُ في حَيَاتِنَا الْعَقْلِيَّةِ سُلْطَةً أَشَدَّ صَرَامَةً مِنْ سُلْطَةِ الإِدْرَاكَاتِ الحِسِّيَّةِ الخَارِجِيَّةِ . وَفَضْلاً عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ أَعْضَاءَ الحِسِّ نَفْسَهَا تَقُومُ في بَعْضِ الظُّرُوفِ بِإِرْسَالِ بَعْضِ المَشَاعِرِ الوِجْدَانِيَّةِ ، وَإِحْسَاسَاتِ الأَلَمِ ، وَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلى الإِدْرَاكَاتِ الحِسِّيَّةِ الخَاصَّةِ بِهَا. وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ الْوِجْدَانِيَّةَ (كَمَا نُسَمِّيهَا في مُقَابِلِ الإِدْرَاكَاتِ الحِسِّيَّةِ الشُّعُورِيَّةِ) تَنْبَعِثُ أَيْضاً مِنَ الأَعْضَاءِ الخَارِجِيَّةِ ، وَبِمَا أَنَّنَا نَعْتَبِرُ جَمِيعَ هَذِهِ الأَعْضَاءِ مُمْتَدَّةً وَمُتَشَعِّبَةً عَنِ الْقِشْرَةِ ، فَإِنَّهُ مَا يَزَالُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ نَحْتَفِظَ بِالرَّأْيِ الَّذي أَبْدَيْنَاهُ في أَوَّلِ هَذِهِ الْفِقْرَةِ [2] . وَعَلَى سَبِيلِ التَّمْيِيزِ ، فَإِنَّهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالأَعْضَاءِ الخَارِجِيَّةِ لِلْمَشَاعِرِ الْوِجْدَانِيَّةِ ، فَإِنَّ الجِسْمَ ذَاتَهُ يَأْخُذُ مَحَلَّ الْعَالَمِ الخَارِجِيِّ [3] .

تَقَعُ الْعَمَلِيَاتُ الشُّعُورِيَّةُ عَلَى سَطْحِ الأَنَا . وَكُلُّ شَيْءٍ آخَرَ في الأَنَا لاَشُعُورِيٌّ ؛ هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الحَالَةِ كَمَا يُمْكِنُ أَنْ نُصَوِّرَهَا في أَبْسَطِ صُورَةٍ . وَيَنْشَأُ التَّعْقِيدُ عَنْ وَظِيفَةِ الْكَلاَمِ

---

[1] ـ من (Topographic) : أي الوصف التفصيلي للأماكن والمواضع . والكلام عن الشعور من وجهة النظر الطوبوغرافية يعني الكلام عنه من حيث تحديد موقعه .

[2] ـ وهو الرأي القائل بأن الشعور بالأشياء يرتبط فوق كل شيء بإحساسات تصل من العالم الخارجي .

[3] ـ يرى فرويد أن الإحساسات الخارجية تنشأ نتيجة تأثير المنبهات الخارجية على أعضاء الحس ، أما المشاعر الوجدانية فتنشأ نتيجة تأثير المنبهات الصادرة عن الجسم نفسه بما فيها المنبهات والدوافع اللاشعورية . و فيما يتعلق بالأعضاء الخارجية للإحساسات الوجدانية فإن الجسم نفسه يأخذ محل العالم الخارجي كمصدر تنبيه للمشاعر الوجدانية ، و العالم الخارجي كمصدر تنبيه للإحساسات الخارجية .



الَّتي تَعْمَلُ عَلى اتِّصالِ المَادَّةِ المَوْجُودَةِ في الأنَا اتِّصالاً وَثيقاً بالآثارِ الَّتي تَتَخَلَّفُ في الذَّاكِرَةِ عَنِ الإدْرَاكَاتِ الحِسِّيَةِ البَصَرِيَّةِ ، وَعَلى وَجْهٍ أَخَصَّ السَّمْعِيَّةِ [1].

وَيَتَّضِحُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ جِهَازَ الإدْرَاكِ الحِسِّيِّ المَوْجُودِ في السَّطْحِ الخَارِجِيِّ لِلأنَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَثَّرَ إلَى حَدٍّ كَبِيرٍ جِدًّا بِالتَّنْبِيهَاتِ الصَّادِرَةِ مِنَ الدَّاخِلِ أَيْضاً ، وَأَنَّ الظَّوَاهِرَ الدَّاخِلِيَّةَ مِثْلَ تَدَاعِي الأَفْكَارِ وَالْعَمَلِيَاتِ الْفِكْرِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ شُعُورِيَّةً» [2].

سيغموند فرويد [3]

أسئلة :

1 – كيف حدّد فرويد دور كل من الجسم والوجدان والعالم الخارجي في تشكيل واجهة الشعور ؟

2 – إذا كان الشعور بمصدريه الوجداني والحسي لا يمثل سوى قشرة خارجية (واجهة) للأنا ، فما هي العناصر التي تكوّن مضمونه ؟

3 – دوِّنْ فقرة تحلّل فيها أطروحة صاحب النص تحليلا وافيا، مبيّناً قيمتها .

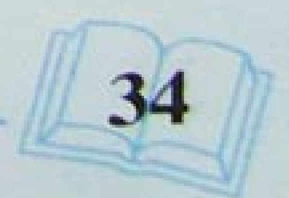
---

[1] ـ يقوم الكلام بهذه العملية عن طريق تداعي المعاني . وتستطيع المادة اللاشعورية أن تنفذ إلى الشعور إذا اتصلت بها بعض الآثار الموجودة في الذاكرة و خاصة الآثار اللفظية (أو السمعية) والآثار البصرية .

[2] ـ سيغموند فرويد ، معالم التحليل النفسي ، ترجمة / د. محمد عثمان نجاتي ، ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 5 ، الجزائر 1986 ، ص ، (69–70) بتصرف.

[3] ـ Sigmund Freud هو عالم نفس وطبيب نمساوي (1856– 1939) يُعدّ مؤسس مدرسة التحليل النفسي . حاول إرجاع ، ليس فقط الاحوال النفسية والسلوكات ، بل كل مظاهر الحياة الإنسانية إلى نشاطات اللاشعور. من مؤلفاته : تفسير الاحلام ، مدخل إلى التحليل النفسي ، و معالم التحليل النفسي .





14 - من الشعور إلى اللاشعور

[هَلْ يُمْكِنُ القَوْلُ بِأَنَّ وُجُودَ اللَّاشُعُورِ– إِلَى جَانِبِ الشُّعُورِ– لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ ؟]

« إِنَّ تَقْسِيمَ الحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ إِلى مَا هُوَ شُعُورِيٌّ وَمَا هُوَ لَاشُعُورِيٌّ ، هُوَ الفَرْضُ الأَسَاسِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ التَّحْلِيلُ النَّفْسِيُّ . وَهَذَا التَّقْسِيمُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ مِنَ المُمْكِنِ لِلتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ أَنْ يَفْهَمَ الْعَمَلِيَاتِ الْمَرَضِيَّةَ فِي الحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ– وَهِيَ أُمُورٌ هَامَّةٌ– وَأَنْ يَجِدَ لَهَا مَكَانًا فِي إِطَارِ العِلْمِ . وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، إِنَّ التَّحْلِيلَ النَّفْسِيَّ لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الرَّأْيَ الَّذِي يَذْهَبُ إِلى أَنَّ الشُّعُورَ هُوَ أَسَاسُ الحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُضْطَرٌّ إِلى اعْتِبَارِ الشُّعُورِ كَخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لِلْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ ، وَقَدْ تُوجَدُ هَذِهِ الخَاصِيَّةُ مَعَ الخَصَائِصِ الأُخْرَى لِلْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ أَوْ قَدْ لاَ تُوجَدُ [...] .

وَيَرَى مُعْظَمُ النَّاسِ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا شَيْئاً مِنَ الفَلْسَفَةِ أَنَّ فِكْرَةَ وُجُودِ أَيِّ شَيْءٍ نَفْسِيٍّ دُونَ أَنْ يَكُونَ شُعُورِيًا أَيْضاً ، إِنَّمَا هِيَ فِكْرَةٌ لاَ يُمْكِنُ تَصَوُّرُهَا عَلَى الإِطْلاَقِ ، بَلْ أَنَّهَا تَبْدُو لَهُمْ أَمْرًا مُحَالاً وَغَيْرَ مَقْبُولٍ أَصْلاً مِنَ النَّاحِيَةِ المَنْطِقِيَّةِ . وَإِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ فَقَطْ إِلى أَنَّهُمْ لم يَدْرُسُوا مُطْلَقاً الظَّوَاهِرَ المُنَاسِبَةَ الخَاصَّةَ بِالتَّنْوِيمِ المَغْنَاطِيسِيِّ [1] وَالأَحْلاَمِ ، وَهِيَ ظَوَاهِرُ تَسْتَوْجِبُ هَذِهِ النَّتِيجَةَ ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ دَلاَلَتِهَا المَرَضِيَّةِ . وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ عِلْمَ النَّفْسِ الَّذِي يَقْتَصِرُ عَلَى دِرَاسَةِ الشُّعُورِ لاَ يَسْتَطِيعُ حَلَّ مُشْكِلَتَيْ الأَحْلاَمِ وَالتَّنْوِيمِ المَغْنَاطِيسِيِّ [...] .

وَلَكِنَّنَا تَوَصَّلْنَا فَقَطْ إِلَى لَفْظِ أَوْ مَفْهُومِ « اللاَّشُعُورِ » عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ ، وَذَلِكَ بِتَوْجِيهِ عِنَايَتِنَا إِلَى بَعْضِ الخِبْرَاتِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا أَثَرُ الدِينَامِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ [2] . لَقَدْ اضْطُرِرْنَا لأَنْ نَفْتَرِضَ

---

[1] - أو (Hypnose) و هو حالة نفسية خاصة تثيرها عدة تقنيات كالحركة الاهتزازية والأضواء المتحركة والنظرات الثاقبة .. إلخ. وتتأسس على عاملي الإيحاء والاسترخاء حيث يكون خلالها تركيز وانتباه الأنا منصباً على المشاعر والذكريات، فتعمل أوامر الإيحاء على حصول الاسترخاء العضلي ومن ثمة حصول التنويم . وكانت هذه الطريقة منتشرة الاستعمال في العلاجات الطبية العصبية لانها تضمن استسلاما تاما للمريض .

[2] - تتضمن الدينامية العقلية الأفكار شديدة التاثير في السلوك التي تؤدي إلى فرط الحيوية إيجابا أو سلبا .



وُجودَ عَمَليَاتٍ عَقْلِيَّةٍ أَوْ أَفْكَارٍ قَوِيَّةٍ جِدًا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحْدِثَ في الْعَقْلِ جَمِيعَ الآثَارِ الَّتي تُحدِثُهَا الأَفْكَارُ الْعَادِيَةُ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنهَا لاَ تُصْبِحُ هِيَ نَفْسُهَا شُعُورِيَّةً . إِنَّ هَذِهِ هِيَ النُّقْطَةُ الَّتِي تَتَدَخَّلُ عِنْدَهَا نَظَرِيَّةُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِي [1] لِتُؤَكِّدَ أَنَّ السَّبَبَ في أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأَفْكَارِ لاَ يُمْكِنُهَا أَنْ تُصْبِحَ شُعُورِيَّةً هُوَ أَنَّ هُنَاكَ قُوًى مُعَيَّنَةً تُقَاوِمُهَا . وَهُنَاكَ حَقِيقَةٌ تجْعَلُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلرَّفْضِ ، هِيَ أَنَّنَا وَجَدْنَا في التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ وَسِيلَةً يُمْكِنُ بها إِزَالَةُ القُوَّةِ المقَاوِمَةِ وَجَعْلُ الأَفْكَارِ المقَاوِمَةِ شُعُورِيَّةً . وَنَحْنُ نُسَمِّي الحالَةَ الَّتي تَكُونُ فِيهَا الأَفْكَارُ قَبْلَ أَنْ تُصْبِحَ شُعُورِيَّةً بـ« الكَبْتِ » [2]. إِنَّنَا نَسْتَمِدُّ إِذَنْ مَفْهُومَنَا عَنِ اللاَّشُعُورِ مِنْ نَظَرِيَّةِ الكَبْتِ ، وَنَعْتَبِرُ المكْبُوتَ كَنَمُوذَجٍ لِلاَّشُعُورِ » [3].

سيغموند فرويد [4]

أسئلة :

1 – أوضِحْ ، بالرجوع إلى النص ، لماذا لا يعدُّ الشعور وحده أساساً كافياً للحياة النفسية ؟

2 – أثبتْ بالبرهان ، مع صاحب النص ، صحة فرضية وجود اللاشعور .

3 – لتقويم النص منهجياً ، عبّرْ عن رأيك في أسلوب الحِجَاج عند فرويد و هو يدحض موقف خصومه ، و يدافع – بالمقابل– عن أطروحته .

[1] - و هي النظرية التي صاغها فرويد لتفسير تأثير النشاطات اللاشعورية و طرق العلاج المناسبة لها .

[2] - لغة هو الحبس و القهر، و في علم النفس هو منع عودة الرغبات المنبوذة من اللاشعور إلى الشعور .

[3] - فرويد، الأنا و الهو، ت/ م .عثمان نجاتي ، دار الشروق ، ط 4 ، بيروت 1982، ص ، (25– 26) .

[4] - سبق التعريف به في موضع آخر (أنظر النص رقم : 13) .

15 - تشكّلُ سلطة الأنا الأعلى

[ما حُدودُ التَوْفيقِ بيْنَ كَوْنِ سُلْطَةِ الأنا الأعْلى باطنيَّةً وخارِجيَّةً في نَفْسِ الوَقْتِ ؟]

« إنَّ الصُّورَةَ الَّتي كوَّنَّاهَا عَنِ « الأنَا » [1] مِنْ حَيْثُ هو يَقُومُ بِالتَّوسُّطِ بيْنَ « الْهُوَ » [2] وَبيْنَ العَالَمِ الْخَارِجيِّ، وَيَتَسلَّمُ المطَالِبَ الغَرِيزيَّةَ مِن « الْهُوَ » لِكَيْ يَتوَلَّى إِشْبَاعَهَا ، وَيَسْتَمدُّ الإِدْرَاكَاتِ الحِسِّيَّةَ مِنَ العَالَمِ الخَارِجيِّ ثُمَّ يَسْتَخْدِمُهَا كَذِكْرَيَاتٍ ، وَيُقَاوِمُ المطَالِبَ المُفْرطَةَ الآتِيَةَ مِنْ كُلِّ هَذَيْنِ المصْدَرَيْنِ حِرْصًا مِنْهُ عَلَى حِفْظِ ذَاتِهِ ، وَتَكُونُ جميعُ قَرَارَاتِه خَاضِعَةً لأَوَامِرِ مَبْدَأِ اللَّذَّةِ في صُورَةٍ مُعَدَّلَةٍ ؛ إِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ في الوَاقِعِ تَنْطَبقُ عَلَى « الأَنَا » حَتَّى نِهَايَةِ المرْحَلَةِ الأُولَى مِنَ الطُّفُولَةِ ، أَوْ حَتَّى سِنِّ الخَامِسَةِ تَقْرِيبًا . وَنحنُ نُشَاهِدُ في حَوالي هَذَا الوَقْتِ حُدُوثَ تَغْيِيرٍ هَامٍّ ؛ فَلَمْ يَعُدِ « الأَنَا » يَنْظُرُ إِلَى قِسْمٍ مُعَيَّنٍ مِنَ العَالَمِ الخَارِجيِّ ، بِصُورَةٍ جُزْئِيَّةٍ عَلَى الأَقَلِّ ، عَلَى أَنَّهُ مَوْضُوعٌ ، بَلْ هُوَ يَقُومُ بَدَلاً مِنْ ذَلِكَ ، بِضَمِّ هَذَا القِسْمِ إِلَى نَفْسِهِ عَنْ طَرِيقِ التَّقَمُّصِ [3] ، أَيْ أَنَّ هَذَا القِسْمَ قَدْ أَصْبَحَ جُزْءًا مُكَمِّلاً لِلْعَالَمِ الدَّاخِليِّ . وَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ المنَظَّمَةُ النَّفْسِيَّةُ الجَدِيدَةُ في القِيَامِ بِالوَظَائِفِ الَّتي كَانَ يَقُومُ بِهَا حَتَّى الآنَ الأَشْخَاصُ المنَاظِرُونَ لَهَا في العَالَمِ الْخَارِجيِّ ؛ فَهِيَ تَقُومُ بِمُلاَحَظَةِ « الأَنَا » وَبِإِعْطَائِهِ الأَوَامِرَ وَبِمُحَاكَمَتِهِ و بِتَهْدِيدِهِ بِالعِقَابِ تمامًا كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الوَالِدَانِ اللَّذَانِ حَلَّتْ هَذِهِ المنَظَّمَةُ مَحَلَّهُمَا ، وَنَحْنُ نُسَمِّي هَذِهِ المنَظَّمَةَ « الأَنَا الأَعْلَى » [4] ، وَنَحْنُ نَشْعُرُ بها وَهِيَ تَقُومُ بِوَظَائِفِهَا القَضَائِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا ضَمِيرَنَا.

---

[1] - يرمز عند فرويد إلى ساحة تشهد جريان الحوادث النفسية ، بما في ذلك الصراع المحتدم بينها .

[2] - يرمز عنده إلى مجموعة الغرائز والدوافع والميول الفطرية التي تنزع دائما إلى محاولة الإشباع .

[3] - بمعنى الامتلاك و التبني الشخصي لما هو وافد من خارج ، و جعله جزءا لا يتجزأ من الذات .

[4] - مصطلح آخر يرمز به إلى جملة التوجيهات الأخلاقية و الأوامر التربوية و القيم والمبادئ الدينية التي تصدر عن الأسرة و المجتمع بالاكتساب و التعلم والخبرة . و تتميز بطابع التسلط و الاستبداد .



وَمِنَ الملاَحَظِ أَنَّ « الأَنَا الأَعْلَى » غَالِبًا مَا يُبْدِي مِنَ القَسْوَةِ مَا لَمْ يُشَاهَدْ مِثْلُهُ عِنْدَ الوَالِدَيْنِ الحقيقِيَّيْنِ، وَفَضْلاً عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ يُؤَنِّبُ « الأَنَا » لاَ عَلَى مَا يَقُومُ بِهِ مِنَ الأَعْمَالِ فَقَطْ ، بَلْ أَيْضًا عَلَى أَفْكَارِهِ وَنوَايَاهُ الَّتِي لَمْ تُنفَّذْ ، وَالَّتِي يَكُونُ « الأَنَا الأَعْلَى » عَلَى عِلْمٍ بِهِ فِيمَا يَبْدُو [...] . وَإِذَا نجحَ « الأَنَا »، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، في مُقَاوَمَةِ الإِغْرَاءِ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ « الأَنَا الأَعْلَى » ، فَإِنَّهُ يَشْعُرُ أَنَّ احْتِرَامَهُ لِنَفْسِهِ قَدْ زَادَ ، وَأَنَّ فَخْرَهُ قَدْ عَظُمَ كَمَا لَوْ أَنَّهُ قَدْ اكْتَسَبَ شَيْئًا ثمِينًا . وَيَسْتَمِرُّ « الأَنَا الأَعْلَى » عَلَى هَذَا النَّحْوِ يَقُومُ بِدَورِ العَالَمِ الخَارِجِيِّ تجَاهَ « الأَنَا » بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ جُزْءًا مِنَ العَالَمِ الدَّاخِلِيِّ » .[2]

سيغموند فرويد [3]

أسئلة :

1 – قارنْ ، مستنداً إلى النص ، بين وظائف الأنا خلال المرحلة الأولى من الطفولة ، و وظائفه في المراحل الأخرى التي تليها .

2 – عدّدَ فرويد مظاهر سلطة الأنا الأعلى التي يتمتّع بها . أُذكرْها وحلّل نتائجها .

3 – تأمّل و أجبْ : « يستمرّ الأنا الأعلى يقوم بدور العالم الخارجي تجاه الأنا بالرغم من أنه قد أصبح جزءاً من العالم الداخلي » . فهل تعتقد أن دوره هذا إيجابي أم سلبي ؟

---

[1] ـ فرويد ، معالم التحليل النفسي ، ترجمة / د. محمد عثمان نجاتي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 5 ، الجزائر 1986، ص ، (136– 137– 138) .

[2] ـ سبق التعريف به في موضع آخر . (أنظر النص رقم : 13) .



16 - القيمة العلمية لفرضية اللاشعور

[ما أهمِيَّةُ تفْسيرِ الحَياةِ النَّفْسيَّةِ وَ مُعالجَةِ اضْطِرَابِ السُّلوكِ في فرْضِيَّةِ اللاَّشعُورِ ؟]

«مَا وُضِعَتْ فَرْضِيَّةُ اللاَّشُعُورِ الفَرْويدِيَّةُ [1] إلاَّ مِنْ أجْلِ أنْ تُفسِّرَ السُّلوكَ الإنْسَانِيَّ ؛ إنَّها تُسَاعِدُنَا عَلَى إلْقَاءِ الضَّوْءِ عَلَى حَالاَتِ المرَضِ النَّفْسِيِّ ، أوْ حَالاَتِ الاضْطِرَابِ في مُسْتَوَيَاتِها المخْتَلِفَةِ : مِنْ أزَمَاتٍ نَفْسِيَّةٍ وَعُقَدٍ ، وَمَظَاهِرِ تَثْبِيتٍ أوْ تَوَقُّفٍ أوْ نُكُوصٍ [2] في الحيَاةِ النَّفْسِيَّةِ؛ وَهِيَ فَرَضِيَّةٌ تُسَاعِدُنَا أيْضًا عَلَى تَفْسِيرِ مَظَاهِرِ السُّلُوكِ العَادِيِّ الَّتي لاَ تَسْتَطِيعُ فَرْضِيَّةُ تَطَابُقِ الحيَاةِ النَّفْسِيَّةِ مَعَ الحيَاةِ الشُّعُورِيَّةِ أنْ تُفَسِّرَهَا .

إنَّ التَّحْليلَ النَّفسيَّ يَنطَلِقُ مِنْ فَرْضِيَّةٍ عَامَّةٍ هِيَ فَرْضِيَّةُ اللاَّشُعُورِ تِلْكَ، وَيَعْنِي ذَلِكَ بالنِّسْبَةِ لِلْمُحَلِّلِ النَّفْسِيِّ أنَّ فَهْمَ الحيَاةِ النَّفْسِيَّةِ يَقْتَضِي ألاَّ نَقِفَ عِنْدَ الجَانِبِ الظَّاهِرِ مِنْهَا ؛ أيْ الشُّعُورِ . فَالأمْرُ يَقْتَضِي اعْتِبَارَ وُجُودِ جَانِبٍ لاَشُعُورِيٍّ مِنَ الحيَاةِ النَّفْسِيَّةِ يَتِمُّ كَبْتُهُ لِعَدَمِ إمْكَانِ تحَقُّقِهِ ، وَلِتَعَارُضِ رَغَبَاتِهِ وَمُيُولِهِ مَعَ مُتَطَلَّبَاتِ الحيَاةِ اليَوْمِيَّةِ وَاعْتِبَارَاتِهَا الأخْلاَقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ . عَلَى أنَّ فَرْضِيَّةَ اللاَّشُعُورِ تَقُومُ عَلَى أسَاسِ أنَّ كَبْتَ الرَّغَبَاتِ الَّتي لاَ يمكِنُ تحقِيقُهَا ، وَالأهْوَاءِ الَّتي لاَ يمكِنُ إظْهَارُهَا ، لاَ يَعْني أبَدًا أنَّ هَذِهِ الرَّغَبَاتِ وَالميُولَ تُقْصَى نهائيًا، وَتَفْقِدُ دِينامِيَّتَهَا [3] وَسَعْيَهَا نَحْوَ الظُّهُورِ، إذْ أنَّ الحيَاةَ النَّفْسِيَّةَ اللاَّشُعُورِيَّةَ، في نَظَرِ فرُويدْ ، لَهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ عَلَى حَيَاتِنَا النَّفْسِيَّةِ الشُّعُورِيَّةِ إلى الحدُودِ الَّتي لاَ يمكِنُنَا فِيهَا فَهْمُ هَذِهِ الأخِيرَةِ بِدُونِ اعْتِبَارِ وُجُودِ الأُولَى . وَإجْرَائِيَّةُ فَرْضِيَّةِ اللاَّشُعُورِ تَبْرُزُ في أنَّ كَثِيرًا مِنْ مَظَاهِرِ الحيَاةِ النَّفْسِيَّةِ لاَ يمكِنُ أنْ تُفَسَّرَ بِالوُقُوفِ عِنْدَ الحيَاةِ الشُّعُورِيَّةِ في مَظَاهِرِهَا المخْتَلِفَةِ .

---

[1] - نسبة إلى سيغموند فرويد . و هي تسمية تطلق احيانا على مدرسة التحليل النفسي التي اسّسها .

[2] - نكَصَ ينْكصُ نُكوصاً : أي تراجع و انهزم و ارتدّ .

[3] - حركيتها و نشاطها وحيويتها .



وَحِينَئِذٍ ، لاَ بُدَّ مِن اللُّجُوءِ إِلَى افْتِرَاضِ جَانِبٍ لاَشُعُورِيٍّ مِنَ الحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ يُكْبَتُ لِتَعَارُضِهِ مَعَ مُتَطَلَّبَاتِ الوَاقِعِ [...] .

وَهَكَذَا فَقَدْ اسْتَطَاعَ فرُويدْ أَنْ يُحَلِّلَ كَثِيرًا مِنْ مَظَاهِرِ الشُّعُورِ لِيَجْعَلَ مِنْهَا وَسِيلَتَهُ إِلَى كَشْفِ مَا هُوَ لاَشُعُورِيٌّ ؛ فَمِنْ خِلاَلِ تَحْلِيلِهِ لِفَلَتَاتِ اللِّسَانِ وَزَلاَّتِ القَلَمِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَفْعَالِ الشُّعُورِ البَسِيطَةِ ، وَمِنْ خِلاَلِ تحلِيلِهِ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ لِلْحُلْمِ وَصَلَ إِلَى كَشْفِ الرَّغَبَاتِ اللاَّشُعُورِيَةِ الَّتي تُؤَثِّرُ تَأْثِيرًا عَمِيقًا في سُلُوكِ الشَّخْصِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ » .[1]

محمد وقيدي [2]

أسئلة :

1 – يتكرّر لفظ (فرضية) و (افتراض) في النص ثماني مرّات؛ على ماذا يدلّ ذلك في رأيك ؟

2 – تحدّثْ عن مزايا فرضية اللاشعور كما بيّنها و عدّدها صاحب النص .

3 – استنبطْ في أسطر قليلة، من هذا النص والنصين السابقين، مجمل القيمة العلمية لفرضية اللاشعور الفرويدية .

---

1 - محمد وقيدي ، ما هي الإبيستيمولوجيا؟ دار الحداثة ، ط1 ، بيروت 83، ص ، (189–190) .

2 - باحث أكاديمي عربي معاصر له إسهامات كثيرة في الفلسفة العربية المعاصرة . اهتمّ خاصة بدراسة الفكر السياسي ونظرية المعرفة . من أبرز مؤلفاته : النمو العقلي والتطور المعرفي ، و بناء النظرية الفلسفية ، وماهي الإبستمولوجيا ؟ ، و البعد الديمقراطي ، و لماذا أخفقت النهضة العربية ؟ و هو يدرس حاليا بجامعة فاس .



17 - الذاكرة وظيفة عضوية

[لِماذا يُعتبَرُ التّذكُّرُ وَظِيفَةً عُضويَّةً من حَيْثُ الجَوْهَرُ، نفْسيَّةً من حَيْثُ العَرَضُ؟]

« إنَّ الذَّاكِرَةَ وَظِيفَةٌ عامَّةٌ يَقُومُ بِهَا الجِهَازُ العَصَبِيُّ أَسَاسُهَا خَاصِّيَّةُ العَنَاصِرِ في الاحْتِفَاظِ بالتَّغيُّرِ الوَارِدِ عَلَيْهَا وَفي تَكْوِينِ التَّرَابُطَاتِ[1]. وَقَدْ سَمَّيْنَا هَذِهِ التَّرَابُطَاتِ، الَّتي هِيَ نَتِيجَةُ التَّجْرِبَةِ، تَرَابُطَاتٍ حَرَكِيَّةً تَمْيِيزًا لَهَا عَنْ التَّرَابُطَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالتَّشْرِيحِيَّةِ. وَخَاصِّيَّةُ الاحْتِفَاظِ تَتَعَهَّدُ بِهِ التَّغْذِيَةُ[2] الَّتي تُثَبِّتُ بِلاَ انْقِطَاعٍ لأنَهَا تَتَجَدَّدُ أَيْضًا بِلاَ انْقِطَاعٍ؛ فَيَبْدُو لَنَا أَنَّ هَذِهِ القُوَّةَ المعيدَةَ تَابِعَةٌ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ لِلدَّوْرَةِ الدَّمَوِيَّةِ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ قِوَامَ الذَّاكِرَةِ كُلِّهُ، الَّذي هُوَ الاحْتِفَاظُ وَالإِعَادَةُ، مُرْتَبِطٌ بِالشُّرُوطِ الأَسَاسِيَّةِ لِلْحَيَاةِ، وَلَيْسَ البَاقِي- مِن شُعُورٍ وَمِن تَحْدِيدٍ دَقِيقٍ لِلذِّكْرَيَاتِ في المَاضِي- سِوَى بُلُوغٍ لِدَرَجَةِ الكَمَالِ، وَلَيْسَتِ الذَّاكِرَةُ النَّفْسَانِيَّةُ إِلاَّ أَعْلَى صُوَرِ الذَّاكِرَةِ وَأَكْثَرَهَا تَرْكِيبًا، وَمَنْ يَقِفُ عِنْدَهَا-كَمَا يَفْعَلُ أَغْلَبِيَّةُ عُلَمَاءِ النَّفْسِ- حَكَمَ عَلَى نَفْسِهِ مُسْبَقًا بِالاهْتِمَامِ بِالمُجَرَّدَاتِ[3].

وَعِنْدَمَا تَوَطَّدَتْ هَذِهِ التَّمْهِيدَاتُ، صَنَّفْنَا وَوَصَفْنَا أَمْرَاضَ الذَّاكِرَةِ [...]؛ فَفِي حَالَةِ التَّحَلُّلِ العَامِّ لِلذَّاكِرَةِ، يَتْبَعُ فُقْدَانُ الذِّكْرَيَاتِ طَرِيقَةً لاَ تَتَغَيَّرُ: الحَوَادِثُ القَرِيبَةُ العَهْدِ، فَالأَفْكَارُ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، فَالعَوَاطِفُ، فَالأَفْعَالُ. وَفي حَالَةِ التَّحَلُّلِ الجُزْئِيِّ المَعْرُوفَةِ بـ «نِسْيَانِ الرُّمُوزِ»، فَإِنَّ فُقْدَانَ الذِّكْرَيَاتِ يَتْبَعُ طَرِيقَةً لاَ تَتَغَيَّرُ: أَسْمَاءُ الأَعْلاَمِ، فَأَسْمَاءُ الجِنْسِ، فَالنُّعُوتُ وَالأَفْعَالُ، فَإِشَارَاتُ التَّعَجُّبِ.

[1]- الترابطات عبارة عن شحنة من التفاعلات الكيميائية- الكهربائية تتخلل الخلايا العصبية للدماغ.
[2]- أي تغذية الدماغ عن طريق تزويده بالاوكسجين ومختلف المواد الحيوية التي تكفل تنشيط خلاياه.
[3]- و هكذا فالأصل في التذكر- حسب ريبو- كونه نشاطاً دماغياً. أما طبيعته النفسية فهي مجرد عرض.



وَالطَّرِيقَةُ وَاحِدَةٌ في كِلْتَا الحالَتَيْنِ ؛ إِنَّهُ تَرَاجُعٌ مِنَ الأَحْدَثِ إِلَى الأَقْدَمِ ، وَمِنَ المُرَكَّبِ إِلَى البَسِيطِ ، وَمِنَ الإِرَادِيِّ إِلَى الآلِيِّ ، وَمِنَ الأَدْنَى تَنْظِيمًا إِلَى الأَفْضَلِ تَنْظِيمًا . وَقَدْ مَكَّنَنَا قَانُونُ التَّرَاجُعِ هَذَا مِنْ أَنْ نُفَسِّرَ الانْبِعَاثَ العَجِيبَ لِبَعْضِ الذِّكْرَيَاتِ عَلَى أَنَّهُ عَوْدَةٌ إِلَى الوَرَاءِ ؛ يَعُودُ بِهَا الفِكْرُ إِلَى شُرُوطِ وُجُودٍ كَانَ يَبْدُو أَنَّهَا زَالَتْ إِلَى الأَبَدِ . وَقَدْ رَبَطْنَا قَانُونَنَا بِهَذَا المَبْدَإِ الفِيزِيُولُوجِيِّ : «إِنَّ التَّلَفَ يُصِيبُ أَوَّلاً الأَحْدَثَ في التَّكْوِينِ» [...] .

وَأَخِيرًا فَإِنَّ دِرَاسَتَنَا المَرَضِيَّةَ قَدْ قَادَتْنَا إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ العَامَّةِ : إِنَّ الذَّاكِرَةَ تَطَوُّرٌ ذُو دَرَجَاتٍ مُتَغَيِّرَةٍ مَوْجُودَةٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ : الحَالَةِ الجَدِيدَةِ وَالتَّسْجِيلِ العُضْوِيِّ» . [1]

تيودول ريبو [2]

أسئلة :

1 – حلّلْ الأطروحة الواردة في الفقرة الأولى ، و اعْطِ عنواناً مناسباً لهذه الفقرة .

2 – صنّفْ الحجج التي حاول صاحب النص أن يعزز بها أطروحته ، و بيّنْ قيمتها .

3 – تأملْ في النتيجة التي آلَ إليها التحليل ؛ هل تعتقد أنها تنسجم بدقة مع الأطروحة الأولى ؟



[1] –Théodule Ribot ، Les maladies de la mémoire ، Alcan . 1909 . p ، (163–165) .

[2] - Théodule Ribot هو فيلسوف وعالم نفس فرنسي(1839–1916)ساهم بأبحاثه في تطور علم النفس التجريبي وعلم النفس العيادي . درّس في السوربون ومعهد فرنسا ، و أسس المجلة الفلسفية في 1876. من مؤلفاته : علم نفس الإحساسات ، أمراض الذاكرة ، أمراض الإرادة .

18 - النسيان والاتّجاه النفسيّ [1]

[مَا وَجْهُ تَأْثِيرِ العَوَامِلِ الذَّاتِيَّةِ فِي جَعْلِ جُزْءٍ مِن ذِكْرَيَاتِنَا عُرْضَةً لِلنِّسْيَانِ العَادِيِّ ؟]

« إِنَّ مِنَ المُمْكِنِ مُلاَحَظَةَ تَأْثِيرِ الانْطِبَاعَاتِ المَاضِيَةِ عَلَى الإِنْسَانِ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ . وَلَكِنْ بِمُرُورِ هَذَا الوَقْتِ يَزْدَادُ وُضُوحًا أَنَّ الفَرْدَ قَادِرٌ عَلَى إِدْرَاكِ تَفَاصِيلِ الخِبْرَاتِ المَاضِيَةِ ، وَعَلَى صِيَاغَةِ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ وَمُعَالَجَتِهَا بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ .

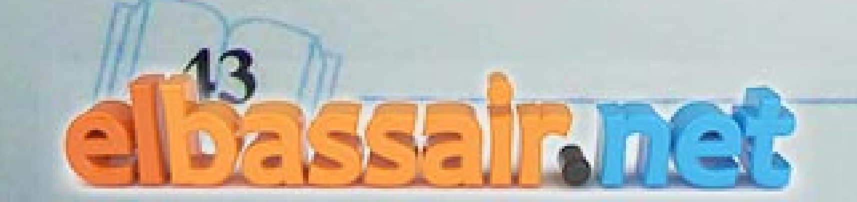
إِنَّ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّمُهُ الفَرْدُ وَمَا يَتَذَكَّرُهُ أَثْنَاءَ نُمُوِّهِ العَقْلِيِّ كَبِيرٌ جِدًّا، وَلَكِنَّهُ يَتَعَرَّضُ لِلنِّسْيَانِ شَأْنُهُ شَأْنُ الخِبْرَاتِ الَّتِي تَسْتَحْوِذُ عَلَى انْتِبَاهِهِ لِبُرْهَةٍ وَجِيزَةٍ ثُمَّ تُنْسَى، بِمَا فِي ذَلِكَ الخِبْرَاتُ الَّتِي كَانَتْ هَامَّةً فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ فَيَطْوِيهَا النِّسْيَانُ . فَإِذَا مَا طَلَبْنَا مِنْ بَعْضِهِمْ أَنْ يُسَجِّلُوا ذِكْرَيَاتِهِمْ المُبَكِّرَةَ ، فَإِنَّ نِسْبَةً كَبِيرَةً مِنْهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا تَذَكُّرَ شَيْءٍ مِمَّا حَدَثَ قَبْلَ سِنِّ الثَّالِثَةِ عَلَى الأَقَلِّ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ مَا يَتَذَكَّرُونَهُ مِنْ هَذِهِ الأَحْدَاثِ هُوَ الَّذِي ارْتَبَطَ بِبَعْضِ الحَوَادِثِ الهَامَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ لاَ يُصَوِّرُ إِلاَّ قَلِيلاً تِلْكَ الأَحْدَاثَ الَّتِي شَكَّلَتْ عَادَاتِ الفَرْدِ وَاتِّجَاهَاتِهِ .

وَتَسْتَمِرُّ ظَاهِرَةُ النِّسْيَانِ هَذِهِ مَعَ الفَرْدِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ بِطَبِيعَةِ الحَالِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ فِي الحَقِيقَةِ [2] .

---

[1]- الاتجاه النفسي تعبير اصطلاحي يكافئ في الدلالة : الدافع والميل من منطلق ذاتي في اتخاذ سلوك ما .

[2]- ينظر البعض إلى النسيان على أنه فقط ظاهرة سلبية ينجم عنها الوقوع في الحرج وعدم التكيف الصحيح مع مختلف المواقف(كما في العجز عن الإجابة عن سؤال أثناء امتحان أو إدلاء بشهادة مثلا) . و لكن النسيان مع ذلك إجراء إيجابي يكتسي ضرورة قصوى لكل تعلم لانه يؤدي إلى انتقائية فعالة للخبرة المكتسبة . و من جهة أخرى يساهم في إرساء توازن نفسي لا بد منه من خلال إقصاء الحوادث المنغصة والمآسي الشخصية من تاريخ الفرد بصورة دائمة أو مؤقتة . و النسيان في كل ذلك مشروط بان ينحصر في حدود طبيعية عادية و الا يكون مرضيا .



وَلَكِنَّ نِسْيَانَ الخِبْرَاتِ المَاضِيَةِ لاَ يَكُونُ مُفْرِطًا بَعْدَ الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ بِسَبَبِ عَوَامِلَ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا التَّغَيُّرَاتُ المُرْتَبِطَةُ بِنُضْجِ الجِهَازِ العَصَبِيِّ ، وَنُمُوُّ القُدْرَةِ المُتَزَايِدَةِ عَلَى صِيَاغَةِ الذِّكْرَيَاتِ القَدِيمَةِ فِي قَالَبٍ لَفْظِيٍّ [1] . وَالخِبْرَاتُ الَّتِي يُحْتَمَلُ تَذَكُّرُهَا فِي أَيِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ النُّمُوِّ هِيَ بِطَبِيعَةِ الحَالِ تِلْكَ الخِبْرَاتُ الَّتِي تَرَكَتْ انْطِبَاعَاتٍ قَوِيَّةً وَقْتَ حُدُوثِهَا ، أَوِ ارْتَبَطَتْ بِأَهْدَافٍ هَامَّةٍ ؛ فَالطِّفْلُ الَّذِي يَأْخُذُ حَمَلاً [2] إِلَى السُّوقِ لِبَيْعِهِ مَعَ وَالِدِهِ ، يَظَلُّ يَذْكُرُ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ أَسْعَارَ السُّوقِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ ، وَرُبَّمَا حَوَتْ ذَاكِرَتُهُ هَذِهِ التَّفَاصِيلَ حَتَّى وَهُوَ فِي سِنِّ الثَّمَانِينَ [3] [...] .

وَتُبَيِّنُ البُحُوثُ الخَاصَّةُ بِدِرَاسَةِ النِّسْيَانِ أَنَّ احْتِمَالَ اسْتِرْجَاعِ الحَوَادِثِ غَيْرِ السَّارَّةِ أَقَلُّ مِنَ احْتِمَالِ اسْتِرْجَاعِ الحَوَادِثِ السَّارَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً أَوْ غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ وَقْتَ حُدُوثِهَا . وَكَثِيرًا مَا تُوصَفُ ظَاهِرَةُ اسْتِرْجَاعِ الحَوَادِثِ السَّارَّةِ بِأَنَّهَا اسْتِعْدَادٌ لِنِسْيَانِ غَيْرِ السَّارِّ مِنَ الأُمُورِ ، أَوْ يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ « تَفَاؤُلِ الذَّاكِرَةِ » [4]. وَلاَ شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الاسْتِعْدَادِ يُسَاعِدُ عَلَى تَلْطِيفِ الحَيَاةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ المُفِيدِ أَحْيَانًا أَنْ يَعِيَ المَرْءُ فِي ذَاكِرَتِهِ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ حَوَادِثَ مُؤْلِمَةٍ [5] .

---

[1] أي بتعلم واكتساب اللغة . و لا ريب في أن أي عجز أو تأخر في هذا الصدد يؤثر سلبا على كل الوظائف العقلية العليا ، و على وجه أخص عملية تثبيت و استرجاع الخبرات الماضية . ففي تجربة معروفة حُبست طفلة صغيرة بُعَيْدَ مولدها مع بعض الحيوانات في كوخ ، فلما كبرت لم تكن لديها لغة و من ثمة لم تستطع أن تتذكر شيئا من ماضيها ، فضلا عن عجز واضح في أداء قدرات العقل الاخرى لديها .

[2] الحمل هو الخروف الصغير .

[3] و في هذا المجال تؤكد بعض الدراسات أن من أكثر أعراض الشيخوخة والتقدم في السن شيوعا ميل الشخص المسن إلى تذكر خبراته الموغلة في القدم (ذكريات الطفولة) ، و نسيان الأحداث القريبة أو التي تحدث لتوّها .

[4] « تفاؤل الذاكرة » هو نوع من البحث عن تعويض نفسي عادي قد يكون دافعه لاشعوريا . ولكن في بعض الحالات المرضية يحصل لدى الشخص ما يناقض ذلك تماما ؛ وهو الإفراط في اجترار الحوادث المؤلمة لأسباب مختلفة (المزاج والاستعداد الوراثي ، العاهة العضوية ، الانعزال الاجتماعي ....إلخ) .

[5] لعل مقصد الكاتب من ذلك أخلاقي بالدرجة الأولى ؛ والمتعارف عليه أن المآسي والآلام والفواجع تفيد دائما في استخلاص الدروس المفيدة في تقويم السلوك والاعتبار من الحوادث من باب الحكمة والتبصر .





إِنَّ الإِخْفَاقَ في تَذَكُّرِ الحَوَادِثِ الَّتي كَانَتْ ذَاتَ أَثَرٍ في تَشْكِيلِ اتجاهَاتِ الفَرْدِ ، قَدْ يَرْجِعُ إِلَى حَدٍّ مَا ، إِلى عَدَمِ شُعُورِهِ بِحدُوثِهَا عِنْدَ وُقُوعِهَا ، أَوْ إِلى عَوَامِلَ أُخْرَى مختَلِفَةٍ » .[1]

آرثر غيتس[2]

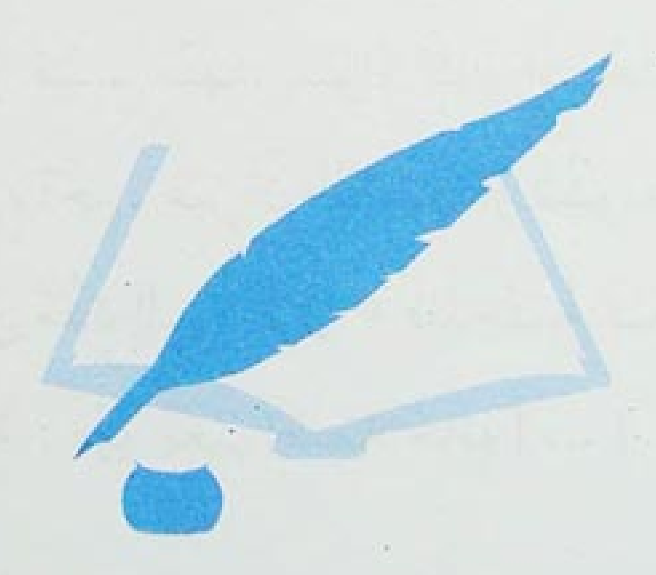
أسئلة :

1 – بيِّنْ، من خلال النص ، طبيعة النسيان العادي كوجه من وجوه عمل الذاكرة .

2 – أُذكرْ العوامل المتحكمة في حدوث النسيان ضمن حدوده الطبيعية كما عرضها صاحب النص .

3 – توسَّعْ في شرح فوائد النسيان العادي من الوجهة النفسية .

4 – أشار صاحب النص، في آخر نصه، إلى وجود عوامل أخرى تتحكم في النسيان . ما هي في رأيك ؟



---

[1] ـ آرثر غيتس ، علم النفس التربوي ، ترجمة / إبراهيم حافظ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط1 ، القاهرة 1966، ص ، (183– 184) .

[2] ـ Arthur.I.Gates هو عالم نفس ومربّي أمريكي معاصر (1890– 1972). يُعدّ أحد أشهر المتخصصين في سيكولوجيا الطفل. شغل كرسي هذا التخصص بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة لسنوات طويلة . من آثاره المعروفة: علم النفس التربوي، وعلم النفس لدارسي التربية .

19 - الذاكرة والمجتمع

[لماذا نعدُّ الذِّكرى اجْتماعيَّةً : مَصْدراً، أداةً، وغايةً ؟]

« عِنْدَمَا نَرَى الأَشْيَاءَ فَإِنَّنَا في نَفْسِ الوَقْتِ نَتَصَوَّرُ الكَيْفِيَّةَ الَّتي يمكِنُ أَنْ يَرَاهَا بها الغَيْرُ؛ فَإِذا مَا خَرَجْنا عَنْ ذَوَاتِنَا فَلَيْسَ ذَلِكَ لِلانْدِمَاجِ مَعَ الأَشْيَاءِ بَلْ لِلنَّظَرِ إِلَيْهَا مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ الآخَرِينَ . وَلاَ يُمْكِنُ هَذَا إِلاَّ لأَنَّنا نَذْكُرُ العَلاقَاتِ الَّتي كَوَّنَّاهَا مَعَهُمْ . فَلَيْسَ هُنَاكَ إِذَنْ ذِكْرَى يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ عَنْهَا إِنَّهَا خَارِجِيَّةٌ محضَةٌ (أَيْ لاَ يمكِنُ الاحْتِفَاظُ بهاَ إِلاَّ في ذَاكِرَةٍ فَرْدِيَّةٍ).
وَفِعْلاً فَمَا دَامَتِ الذِّكْرَى تُعِيدُ إِدْرَاكًا جَمَاعِيًّا، فَإِنَّهَا في حَدِّ ذَاتِها لاَ يمكِنُ أَنْ تَكُونَ إِلاَّ جماعِيَّةً، وَيَكُونُ مِنْ غَيْرِ المُمْكِنِ لِلْفَرْدِ المُقْتَصِرِ عَلَى قِوَاهُ فَقَطْ أَنْ يَتَصَوَّرَ مِنْ جَدِيدٍ مَالَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَصَوُّرِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ إِلاَّ بِالاعْتِمَادِ عَلَى فِكْرِ زُمْرَتِهِ [1] [...].

فَنَحْنُ لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَذَكَّرَ إِلاَّ شَرِيطَةَ أَنْ نَعْثُرَ في أُطُرِ الذَّاكِرَةِ الجَمَاعِيَّةِ [2] عَلَى مَكَانِ الحَوَادِثِ الماضِيَةِ الَّتي تَهُمُّنَا. وَالذِّكْرَى تَكُونُ غَنِيَّةً بِمِقْدَارِ مَا تَنْبَعِثُ في نُقْطَةِ التِقَاءِ أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُطُرِ الَّتي بِالفِعْلِ تَتَصَالَبُ [3] وَيُغَطِّي بَعْضُهَا البَعْضَ الآخَرَ جُزْئِيًّا. وَيُفَسَّرُ النِّسْيَانُ بِاخْتِفَاءِ هَذِهِ الأُطُرِ، أَوْ قِسْمٍ مِنْهَا، سَوَاءً كَانَ انْتِبَاهُنَا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الانْجِذَابِ نحوَهَا، أَوْ كَانَ مُنْجَذِبًا نحوَ شَيْءٍ آخَرَ . غَيْرَ أَنَّ النِّسْيَانَ أَوْ تَشْوِيهَ البَعْضِ مِن ذِكْرَيَاتِنَا يُفَسَّرُ أَيْضًا بِكَوْنِ هَذِهِ الأُطُرِ تَتَغَيَّرُ مِنْ مُدَّةٍ إِلَى أُخْرَى ؛ فَالمُجتَمَعُ تَبَعًا لِلظُّرُوفِ و تَبَعًا لِلأَزْمِنَةِ يَتَصَوَّرُ الماضِي بِكَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ : فَهُوَ يُغَيِّرُ اصْطِلاَحَاتِهِ [...] .

---

[1] - أي الجماعة التي ينتمي إليها .
[2] - أُطُر جمع إطار ؛ وهي في الذاكرة الجماعية كل موروث اجتماعي في الشكل : كالعرف ، واللغة .
[3] - تتقاطع وتتداخل فيما بينها مشكلة لحمة واحدة متضامنة .



إِذَنْ، فَإِنَّهُ يَجِبُ العُدُولُ عَنِ الفِكْرَةِ القَائِلَةِ بِأَنَّ المَاضِي يُحْفَظُ كَمَا هُوَ فِي الذَّاكِرَاتِ الفَرْدِيَّةِ كَمَا لَوْ كَانَ لَهُ عَدَدٌ مِنَ النُّسَخِ المتَمَايِزَةِ مماثِلٌ لِعَدَدِ الأَفْرَادِ. إِنَّ النَّاسَ الَّذِينَ يَحْيَوْنَ حَيَاةً اجْتِمَاعِيَّةً يَسْتَعْمِلُونَ كَلِمَاتٍ يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا: وَهَذَا هُوَ شَرْطُ الفِكْرِ الجَمَاعِيِّ. غَيْرَ أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ مَفْهُومَةٍ تَصْحَبُهَا ذِكْرَيَاتٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ ذِكْرَيَاتٌ لاَ يُمْكِنُ أَنْ نُطَابِقَهَا بِكَلِمَاتٍ. إِنَّنَا نَنْطِقُ بِذِكْرَيَاتِنَا قَبْلَ اسْتِحْضَارِهَا. إِنَّ اللُّغَةَ وَجُمْلَةَ نَسَقِ الاصْطِلاَحَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تُدَعِّمُهَا هِيَ الَّتِي تُمَكِّنُنَا، فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، مِنْ إِعَادَةِ بِنَاءِ مَاضِينَا». [1]

موريس هالفاكس [2]

أسئلة:

1 – أوضِحْ بالدليل، انطلاقاً من النص، الطبيعة الاجتماعية لعملية التذكر.

2 – كيف تنعقد العلاقة الوظيفية بين اللغة والذاكرة حسب صاحب النص؟

3 – تأمَّلْ و أجبْ: «إنَّه يجب العدول عن الفكرة القائلة بأنَّ الماضي يحفظ كما هو في الذَّاكرات الفرديَّة». ما هي أبعاد هذا الطرح؟ وما هي قيمته؟



[1] – Maurice Halbwachs ، Les cadres sociaux de la mémoire ، P.U.F ، Paris 1952 . p ، (274–275(278 – 279) .

[2] - Maurice Halbwachs هو عالم اجتماع فرنسي (1839 – 1916) درّس في جامعتي ستراسبورغ والسوربون. من مؤلفاته: الأطر الاجتماعية للذاكرة، المورفولوجيا الاجتماعية، والذاكرة الجماعية.

20 - التخيّل كانبثاق حيويّ[1] واجتماعيّ

[إلى أيّ حدّ يُمكنُ القَوْلُ بأنَّ التَّخيُّلَ صادرٌ عنِ الدَّافعِ الحيويِّ والحاجةِ إلى الآخرِ ؟]

«إنَّ المتخَيَّلَ [2] لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ، عَلى المُسْتَوى المَنْطقِيِّ والإبْسْتيمُولُوجيِّ [3]، سِوَى نِتاجٍ لِلتَّخَيُّلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ قُدْرَةٌ عَلَى تَكْوِينِ الصُّوَرِ. وَيُمْكِنُ لِلْفيزيُولُوجيِّينَ أَنْ يُقَدِّمُوا تَفْسِيرَاتٍ شَتَّى بِخُصُوصِ مَصْدَرِ هَذِهِ القُدْرَةِ، وَهِيَ تَفْسِيرَاتٌ مُسْتَخْلَصَةٌ مِنْ دِرَاسَاتٍ عَصَبِيَّةٍ – فِيزْيُولُوجِيَّةٍ لا يُمْكِنُنَا وَصْفُهَا بِالخَاطِئَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ، لَيْسَ هُنَاكَ بِدَايَاتٌ مُطْلَقَةٌ سَوَاءً فِي الفِيزْيُولُوجيَا (كَمَا أَثْبَتَت التَّجَارِبُ القَدِيمَةُ الَّتِي أَجْرَاهَا منكوفسكي [4] على الجنينِ)، أَوْ فِي عِلْمِ النَّفْسِ. فَيَنْبَغِي أَنْ نَسْتَحْضِرَ غُمُوضَ البِدَايَاتِ وَالأُصُولِ وَقَابِلِيَّتَهَا لِلجَدَلِ وَالنِّقَاشِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ النَّشَاطَ الذِّهْنِيَّ لِلرَّضِيعِ يُمَثِّلُ المَصْدَرَ الأَوَّلَ لِلْمُتَخَيَّلِ. لَقَدِ اعْتَمَدْنَا عَلَى تَكَوُّنِ صُورَةِ الأُمِّ كَسَنَدٍ دَائِمٍ لِعَلاَقَاتِ الرَّضِيعِ اللِّيبِيدِيَّةِ [5]. غَيْرَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ نُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا تُشَكِّلُ الحَاجَةُ أَسَاسَ الرَّغْبَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَخِيرَةَ تُضْفِي قِيمَةً أَكْبَرَ عَلَى مَا يَنْقُصُهَا وَيَظْهَرُ عَلَيْهَا مِنْ عَلاَمَاتِ القَلَقِ كُلَّمَا تَأَخَّرَ أَوْ تَعَرْقَلَ إِشْبَاعُهَا.

فَالجُوعُ الشَّدِيدُ مَثَلاً يَسْتَحْوِذُ عَلَى جَمِيعِ مَصَادِرِ النَّشَاطِ، وَيَصْدُقُ الأَمْرُ نَفْسُهُ عَلَى الخَيَالِ بَعْدَ أَنْ يَتِمَّ التَّمْيِيزُ بَيْنَ المَدْلُولاَتِ عَلَى مُسْتَوَى التَّمَثُّلِ [6].

---

1. الانبثاق الحيوي هو مصطلح بيولوجي يتضمن كل ما يصدر بالولادة وتكون غايته التكيف مع الحياة.
2. أي الصورة التي تتمّ عن طريق التخيل.
3. الإبستمولوجي هنا = المعرفي.
4. Eugène Minkowski هو عالم نفس وفيزيولوجي فرنسي من أصل بولندي (1895– 1972) كان يرى أن فقدان التواصل الحيوي المبكر للإنسان يؤدّي بالضرورة إلى إصابته لاحقا بمرض انفصام الشخصية.
5. نسبة إلى الليبيدو Libido أو الغريزة الجنسية التي اعتبرها فرويد أنشط الغرائز وأكثرها تأثيرا في حياة الفرد. ويمتدّ هذا التأثير إلى مرحلة الطفولة الأولى.
6. التمثل = التصور أو الإدراك المجرد.



وَانْطلاَقًا مِنْ إِدْرَاك قِيمَة النَّقْص وَالحَاجَة، وَانْطلاَقًا مِنْ حَالَة القَلَق الَّتي تُحْدثُهَا الحَاجَةُ، يَنْمُو الرَّضيعُ نَحْوَ إِشْبَاع تلْكَ الرَّغْبَة، وَذَلكَ حينَمَا يَتمُّ الإِفْصَاحُ مُبَاشَرَةً عَنْهَا في السُّلُوك الحسِّيِّ الحَرَكيِّ. فَالتَّأَخُّرُ في الإِشْبَاع أوالإِحْبَاط [1] المتَكَرِّر يُؤَدِّي إِلَى الوُقُوف عنْدَ حُدُود الطَّلَب غَيْر الملَبَّى. وَعلاَوَةً عَلَى ذَلكَ، فَالتَّثْبيتَاتُ الَّتي تَعْرفُهَا مختَلفُ المرَاحل لاَ تَظْهَرُ عَلَى أَنَّهَا تجْميدٌ أَوْ إِيقَافٌ للنُّمُوِّ الوجْدَانيِّ فَحَسْبُ، بَلْ أَيْضًا كَتَعْبيرٍ عَلَى نَقْصٍ يُشَكِّلُ طَلَبًا نَفْسيًّا أَسَاسيًّا ومُلحًّا لاَ يَنْضَبُ مَعينُهُ [2]. وَهَذَا مَا يُؤَدِّي إِلَى ميلاَد الأَوْهَام اللاَّحقَة: إِعْطَاءُ قيمَةٍ كُبْرَى للْغذَاء، وَالإِحْسَاسُ المفْرطُ بالجُوع، لاَ كَوَاقعٍ فَقَطْ، بَلْ كَمُمْكنٍ [3] أَيْضًا.

وَانْطلاَقًا مِنْ نَهْل [4] المتَخَيَّل لمادَّته منْ تمَظْهُرَات الحَاجَة وَالرَّغْبَة، فَإِنَّهُ سَيَحْتَلُّ مَكَانَةً دَاخلَ العَلاَقَة مَعَ الآخَر؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ نتَاجًا للتَّخَيُّل باعْتبَاره وَظيفَةً تحْليليَّةً، فَإِنَّ دَوْرَهُ -كَمَا يَبْدُو- أَسَاسيٌّ في إِقَامَة الفَرْد لعَلاَقَةٍ مَعَ الأَشْخَاص الآخَرينَ؛ فَهُوَ يمثِّلُ المجَالَ الَّذي يَسْمَحُ للرَّغْبَة النَّاتجَة عَن الحَاجَة بالإِفْصَاح عَنْ نَفْسهَا، كَمَا يَقُومُ بتَنْظيم العَلاَقَة بَيْنَ الذَّات وَالآخَرينَ تَنْظيمًا نهَائيًّا لاَ يمْكنُ تَغْييرُهُ.

وَهَكَذَا يَظَلُّ التَّخَيُّلُ سَابقًا عَلَى كُلِّ إِدْرَاكٍ أَوْ تَعَرُّفٍ عَلَى شَخْصٍ مَا باعْتبَار هَذَا الأَخير يمَكِّنُ المتَخَيَّلَ مِنَ الإِفْصَاح عَنْ ذَاته بوَاسطَة الصُّوَر والأَوْهَام». [5]

جان ماري دول [6]

---

[1]- كل إحباط إنما يعني حالة نفسية مؤلمة تنطوي على خيبة أمل جراء الصدّ أو المنع المتواصل.

[2]- لا ينضب معينه = لا ينفد ولا ينتهي.

[3]- أي كحالة متوقعة أومحتملة الوقوع ؛ ومن نافلة القول أنها لا تتم على تلك الصورة إلا بتخيلها.

[4]- نهل ينهل نهلا : أي أخذ مباشرة من المصدر.

[5] - جان ماري دول، من فرويد إلى بياجي ، ترجمة/ع.الحاج و ع.أفرفار، دار الطليعة ، ط1، بيروت 1998.ص، (75-76- 77).

[6]- سبق التعريف به في موضع آخر. (أنظر النص رقم : 7).



21 - التخيّل المبدع

[ما الَّذي يُثبِتُ أنَّ التَّخيُّلَ يُساهِمُ في كُلِّ مَراحِلِ الإبْداعِ من التَّصْميمِ إلى النَّتيجَةِ؟]

« لابُدَّ مِنْ أَنْ نَقْبَلَ أَنَّنا نَتَخَيَّلُ المجمُوعَ عَلَى شَكْلِ مُخطط، وَأَنَّ الاختراع إنَّما هُوَ قَلْبُ المُخطط إلَى صُورَةٍ[1] .

إنَّ المخترع الَّذي يُرِيدُ أَنْ يُوجِدَ آلَةً مَا، يَتَخَيَّلُ النَّتيجَةَ الَّتي يَجِبُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَيْهَا . وَالصُّورَةُ المجرَّدَةُ لِهَذِهِ النَّتيجَة تَبْعَثُ في ذهْنه تباعًا، بالتَّلَمُّسِ وَالتَّجْريب، الصُّورَةَ العَيانيَّةَ[2] لمخْتَلف الحرَكَات المتآلفة التي تُحَقِّقُ الحرَكَةَ الكُلِّيَّةَ ، تبعث الصّور العَيانيَّة للْقطع وَتركيباتها التي يمكن أَنْ تَقُومَ بِهَذِهِ الحرَكَاتِ الجزئيَّة . وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ يَكُونُ الاخْتِرَاعُ قَدْ تَمَّ، فانْقَلَبَ التَّصَوُّرُ التَّخْطيطيُّ إلَى تَصَوُّرٍ ذي صُوَرٍ[3] .

وَالكَاتِبُ الَّذي يَكْتُبُ رِوَايَةً، وَالمؤَلِّفُ الدَّرامِيُّ[4] الَّذي يَخْلُقُ شَخْصيَّات وَظُرُوفًا، وَالموسيقيُّ الَّذي يُؤَلِّفُ لحْنًا سنفونية، وَالشَّاعرُ الَّذي يَنْظُمُ قَصيدَةً؛ كُلُّ أُولَئِكَ يَقُومُ في ذهنهم، أَوَّلَ مَا يَقُومُ، شَيْءٌ بَسِيطٌ مُجَرَّدٌ، لَيسَ بِذي جسْم، هُوَ بالنِّسْبَة إلى الموسيقيِّ وَالشَّاعرِ عَاطفَةٌ جَديدَةٌ يَجِبُ أَنْ تَتَنَشَّرَ أَصْوَاتًا أَوْ صُوَرًا، وَهُوَ بالنِّسْبَة إلَى الرِّوائيِّ وَالدَّراميِّ فكْرَةٌ يَجِبُ أَنْ تَتَنَشَّرَ في حَوَادثَ، وَعَاطِفَةٌ فَرْدِيَّةٌ أَوِ اجْتماعيَّةٌ يَجِبُ أَنْ تَتَجَسَّدَ في شَخْصيَّات حَيَّة .

فَتَراهُمْ يَعْمَلُونَ في مُخَطَّطٍ لِلْمَجْمُوعِ ، وَمَتى وَصَلُوا إلَى صُورَةٍ وَاحدَةٍ للْعَنَاصِرِ ، حَصُلَت النَّتيجَةُ »[5] .

نري برغسون[6]

---

[1]- المخطط هو المصمم الأوّلي للشئ المراد إبداعه ، والصورة تحوي طرق تنفيذه و كلاهما مجاله التخيل المبدع .

[2]- الصورة العيانية هي الصورة الحسية الواقعية .

[3]- أو تخيل مجموع كلّي له أجزاء تفصيلية متخيلة هي أيضا .

[4]- وهو المؤلف المتخصص في كتابة الدراما التي من أشهر أشكالها الكتابة المسرحية .

[5]- هنري برغسون ، الطاقة الروحية ، ترجمة/ سامي الدروبي ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، القاهرة 1971 ، ص ، (159– 160) .

[6]- Henri Bergson هو فيلسوف فرنسي شهير (1859– 1941) مؤسس المذهب الحدسي الحيوي . كان عضوا في الأكاديمية الفرنسية و مدرسا في معهد فرنسا . وقد نال جائزة نوبل في الآداب في عام 1927. من أشهر مؤلفاته : المعطيات المباشرة للوعي ، و المادة والذاكرة ، و التطور الخالق ، و منبعا الأخلاق والدين .



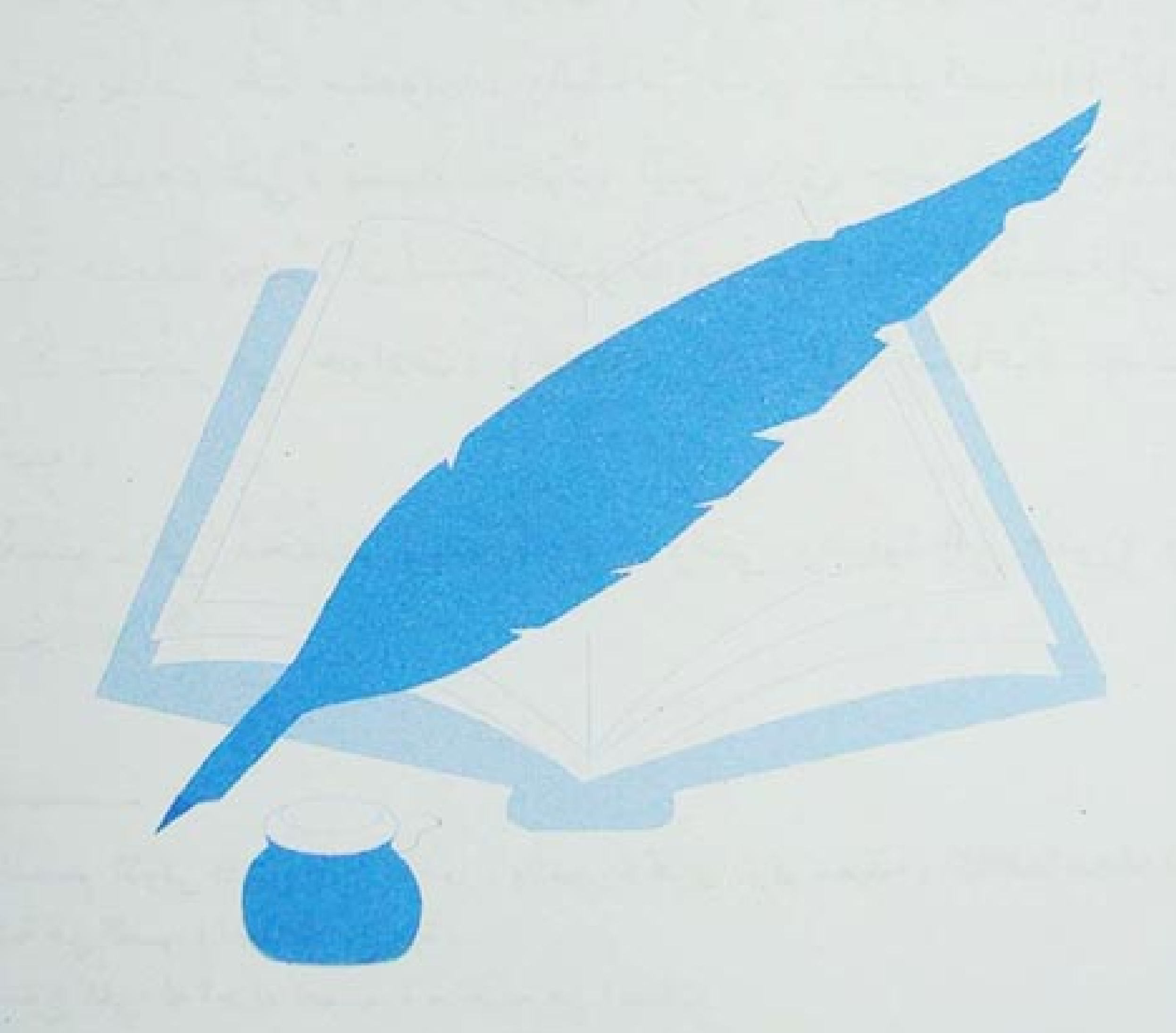
أسئلة :

1 – أكتبْ مقدمة تمهّد فيها لبيان طبيعة و قيمة التخيل المبدع عامة .

2 – لماذا، في رأيك، ينبغي التمييز بين المخطط العام لتصور المبدع وصور التفاصيل التي تقود إليه ؟

3 – عدّدْ أبرز الأمثلة التي ساقها في معرض بيان مراحل التخيل المبدع من التصور إلى النتيجة.

4 – اِخْترْ علَماً من أعلام تراثنا العلمي أو الأدبي، و حاولْ أن تطبّق عليه – في بضعة أسطر– تصوّر برغسون في التخيل المبدع ؟



22 - وجها الشعور : الذاكرة والخيال

[كَيْفَ السَّبِيلُ إِلى إِثْبَاتِ أَنَّ التَّذَكُّرَ وَالتَّخَيُّلَ يُؤَلِّفانِ وَظِيفَةً وَاحِدَةً هِيَ الشُّعُورُ ؟]

«إِنَّ الشُّعُورَ يَعْنِي الذَّاكِرَةَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ . فَلَقَدْ يُعوزُ [1] الذَّاكِرَةَ اتِّسَاعٌ، وَقَدْ لاَ تَشْمَلُ مِنَ المَاضِي إِلاَّ جُزْءًا يَسِيرًا، وَقَدْ لاَ تَذْكُرُ إِلاَّ الأُمُورَ الَّتِي وَقَعَتْ مُنْذُ لَحْظَةٍ، إِلاَّ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ذَاكِرَةٌ وَإِمَّا أَلاَّ يَكُونَ ثَمَّةَ شُعُورٌ [2] . فَالشُّعُورُ الَّذِي لاَ يَذْكُرُ مِنْ مَاضِيهِ شَيْئًا، وَيَنْسَى نَفْسَهُ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ، يَفْنَى وَيَحْيَا في كُلِّ لحظَةٍ [...] . فَكُلُّ شُعُورٍ إِذَنْ ذَاكِرَةٌ ؛ هُوَ بَقَاءُ المَاضِي في الحَاضِرِ وَتَجَمُّعُهُ فِيهِ .

وَلَكِنَّ كُلَّ شُعُورٍ هُوَ اسْتِبَاقٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ . انْظُرُوا إِلَى اتِّجَاهِ فِكْرِكُمْ في أَيِّ لحظَةٍ ! إِنَّهُ يَهْتَمُّ بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَلَكِنَّهُ يَهْتَمُّ بِهِ في سَبِيلِ مَا سَيُوجَدُ في الدَّرَجَةِ الأُولَى ؛ إِنَّ الانْتِبَاهَ انْتِظَارٌ. وَلا يَكُونُ شُعُورٌ بِدُونِ شَيْءٍ مِنَ الانْتِبَاهِ إِلَى الحَيَاةِ . فَالمسْتَقْبَلُ هُنَاكَ، يَدْعُونَا إِلَيْهِ ، بَلْ يجرُّنَا جَرًّا . وَهَذَا الجَذْبُ المسْتَمِرُّ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَتَقَدَّمُ في طَرِيقِ الزَّمَانِ هُوَ السَّبَبُ أَيْضًا في أَنَّنَا نَعْمَلُ باستمرار [3]. [...] فَذِكْرُ مَا لَمْ يَعُدْ مَوْجُودًا ، وَاسْتِبَاقُ مَالَمْ يُوجَدْ بَعْدُ ، تِلْكُمْ هِيَ الوَظِيفَةُ الأُولَى لِلشُّعُورِ . وَلَوْ كَانَ الحاضرُ لحظَةً رِيَاضِيَّةً، لَمَا كَانَ ثُمَّتَ حَاضِرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشُّعُورِ . فَلَيْسَت هذهِ اللَّحظَةُ إِلاَّ حَدًّا مِثَالِيًا، نَظَرِيًا صِرْفًا، يَفْصِلُ الماضِي عَنِ المُسْتَقْبَلِ. وَلَئِنْ أَمْكَنَ أَنْ نَتَصَوَّرَ هَذَا الحدَّ النَّظَرِيَّ، فَإِنَّنَا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَهُ بِحَالٍ .

فَحِينَ يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّنَا بَلَغْنَاهُ، يَكُونُ قَدِ ابْتَعَدَ عَنَّا، وَإِنَّمَا الَّذِي نُدْرِكُ بِالفِعْلِ هُوَ فَتْرَةٌ مِنَ الدَّيْمُومَةِ [4] مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ قِسْمَيْنِ : مَاضِينَا المبَاشِرِ، وَمُسْتَقْبَلِنَا الوَشِيكِ .

[1]- يعوز= ينقص .

[2]- أي بعبارة أخرى : إما أن توجد ذاكرة فيكون هناك شعور، وإما لا يكون هناك شعور فلا توجد ذاكرة .

[3]- هذا معنى التخيل المبدع الذي أولاه برغسون عناية لامحدودة . (كما رأينا في النص رقم :21).

[4]- أو Durée : مصطلح برغسوني يعني تواصل تيار الشعور وفق زمن نفسي لا فواصل فيه .



فَعَلَى هَذَا المَاضِي نَحْنُ مُتَّكِئُونَ، وَعَلَى هَذَا المسْتَقْبَلِ نَحْنُ مُنْعَطِفُونَ . فَالاتِّكَاءُ وَالانْعِطَافُ هُمَا خَاصَّةُ الكَائِنِ الشَّاعِرِ [1] [...] .

لأنه إِذَا كَانَ الشُّعُورُ ، كَمَا قُلْنَا ، يَحْفَظُ المَاضِي وَيَسْتَبِقُ الحَاضِرَ ، فَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لأَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِاخْتِيَارٍ [2] . فَلِكَيْ نَخْتَارَ يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْعَلَ، وَيَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ النَّتَائِجَ المفِيدَةَ أَوِ المُضِرَّةَ لِمَا فَعَلْنَا مِنْ قَبْلُ» . [3]

هنري برغسون [4]

أسئلة :

1 – وضّحْ حجة صاحب النص في إثبات أن الذاكرة هي الوجه الأول للشعور .

2 – بيّنْ، بنفس الكيفية، اعتبار التخيل بمثابة الوجه الثاني للشعور .

3 – ما الذي يثبت في النص كون ديمومة الشعور خاصية تكفلها وظيفتا التذكر والتخيل معاً ؟

4 – لتقويم النص، أجبْ على ما يلي : هل ترى أن فكرة ديمومة الشعور فكرة مؤسسة ؟

---

[1]- أي الذي يشعر .

[2]- فحاجتنا إلى جعل الشعور تارة يتذكر وتارة يتخيل منبعها الإرادة وحرية الاختيار بين ممكنات .

[3] – هنري برغسون ، الطاقة الروحية، ترجمة سامي الدروبي، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر، القاهرة 1971، ص، (5 – 6) – 10 .

[4]- تمّ التعريف به في موضع آخر. (أنظر النص رقم : 21) .

23 - العادة والتكرار

[ماالذي يبرر القول بأن العادة، في تكونها وجريانها، لا تخضع للتكرار وحده ؟]

« إنَّ هُناكَ تناقُضًا بَيْنَ فِكْرَةِ التَّكْرَارِ بِأدقِّ مَعْنَى تكْرَارِ الفِعْلِ بِعَيْنِه، وَفِكْرَةِ اكْتِسَابِ كَيْفِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي العَمَلِ. فَلَوْ كُنَّا نُكَرِّرُ دَائمًا نَفْسَ الفِعْلِ، لَمْ يَحْصُلْ تَغَيُّرٌ وَلَمْ نَتَعَلَّمْ شَيْئًا أبَدًا. فَلأنَّنَا لَا نَتَقَيَّدُ بِمُجَرَّدِ التِّكْرَارِ، نَحْنُ نَتَعَلَّمُ و نَتَقَدَّمُ وَنَتَكَيَّفُ. إنَّ الحَرَكَاتِ النَّاجِعَةَ فِي نِهَايَةِ التَّعَلُّمِ بِمَا فِيهَا مِنْ اقْتِصَادٍ لِلْجُهْدِ و لِلْحَرَكَاتِ غَيْرِ النَّافِعَةِ، لَا تُكَرِّرُ تَلَمُّسَاتِ البِدَايَةِ غَيْرِ المُوَفَّقَةِ؛ فَالقِرَاءَةُ العَادِيَّةُ لَيْسَتْ تِكْرَارًا لِلتَّهْجِئَةِ. وَكُرَّاسُ الخَطِّ عِنْدَ التِّلْمِيذِ هُوَ رَسْمٌ بَيَانِيٌّ لِلتَّغَيُّرَاتِ الطَّارِئَةِ فِي فِعْلِه.

وَيَظْهَرُ أنَّهُ لَا يَنْفَعُ الإلْحَاحُ عَلَى هَذِهِ الحَقِيقَةِ البَدِيهِيَّةِ؛ إِذْ لَا يَتَجَاهَلُ أحَدٌ عَلَى الإطْلَاقِ مَا يَطْرَأُ عَلَى الفِعْلِ مِنْ تَغَيُّرَاتٍ. وَلَكِنَّ الحِسَّ المُشْتَرَكَ [1] لَا يَهْتَمُّ بِالحَوَادِثِ النَّفْسِيَّةِ وَالفِيزْيُولُوجِيَّةِ. إنَّ الفِعْلَ يَتَحَدَّدُ، بِالنِّسْبَةِ إلَيْه، بِالمَقْصُودِ الذي يُلْهِمُهُ وَلَيْسَ بِشَكْلِه أَوْ بِشُرُوطِه. فَالطِّفْلُ الذِي يَتَمَرَّنُ عَلَى رَسْمِ الحَرْفِ " ألِف " يَصِلُ إِلَى تَحْقِيقَاتٍ سَلِيمَةٍ أَكْثَرَ فأكْثَرَ لِهَذَا المَقْصُودِ. هَذَا، وَقَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَصِيرَ المَقْصُودُ، فِي ظَرْفٍ مَا، سَهْلَ المَنَالِ لَيْسَ فَقَطْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الطِّفْلِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا إِلَى القُرَّاءِ أَيْضًا : إِنَّ لِلْخُطُوطِ نَفْسَ المَدْلُولِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافَاتِهَا [2] [...]. وَبِاخْتِصَارٍ، إِنَّ العِبَارَةَ الشَّعْبِيَّةَ القَائِلَةَ " إِنَّنَا نَتَعَلَّمُ بِالتِّكْرَارِ " [3] لَا تَقْتَضِي، فِي مَرْحَلَةِ تَكَوُّنِ العَادَةِ، أَيَّ تَطَابُقٍ حَقِيقِيٍّ لِلأَفْعَالِ بِعَيْنِهَا؛ إِنَّهَا تُعْرِبُ فَقَطْ عَنْ وِحْدَةِ المَقْصُودِ وَالمَدْلُولِ.

---

[1] ـ الحس المشترك = يرادف مفهوم الرأي العام الأكثر ذيوعا وتداولا.

[2] ـ فإذا أخذنا أنواع الخط التي يكتب بها الحرف « أ » في العربية من ريحاني وكوفي .. إلخ، نراها لا تغير من المقصود منه في شيء؛ وهذا يعزز فكرة أن التكرار لديهم ترديد آلي يتعلق دائما بهذا المقصود.

[3] ـ هذه العبارة تلخص مبدأ كان معمولا به في مناهج التربية التقليدية على نطاق واسع منذ عصور خلت. و حتى في التراث التربوي الإسلامي لا نجد سوى بعض الاستثناءات النادرة التي تلحّ على ضرورة تجاوز التكرار الساذج إلى استبصار و تفقه الكلمات (كما كان الحال عند الغزالي وابن خلدون مثلا).

أَمَّا فِي مَرْحَلَةِ الرُّسُوخِ، فَإِنَّ الفعْلَ يَكُونُ قَدْ اسْتَقَرَّ وَالتِّكْرَارَ يَبْدُو أَنَّهُ آخذٌ فِي التَّحَوُّلِ إِلَى وَاقِعٍ. وَالالْتِبَاسُ يَنْشَأُ بِسُهُولَةٍ بَيْنَ التِّكْرَارَاتِ الوَاقِعِيَّةِ لِلْفعْلِ المُكْتَسَبِ، وَالتِّكْرَارَاتِ الوَهْمِيَّةِ التي صَلُحَتْ فِي البِدَايَةِ لاكْتِسَابِه [1]؛ وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ تَمْيِيزَهُمَا يَفْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْنَا حَتَّى فِي حَالَةِ اخْتِبَارٍ سَطْحِيٍّ.

إِنَّ اخْتِبَارًا أَكْثَرَ تَعَمُّقًا يَكْشِفُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، أَنَّ الحُدُودَ الفَاصِلَةَ بَيْنَ مَرْحَلَتَيْ تَكْوِينِ العَادَةِ وَرُسُوخِهَا، إِنَّمَا هِيَ حُدُودٌ مُصْطَنَعَةٌ. وَمِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ، مِنَ النَّاحِيَةِ العَمَلِيَّةِ، أَنْ نُقَسِّمَ التَّعْلِيمَ بِمَنْحِ المُتَعَلِّمِ، أَوِ الطَّالِبِ شَهَادَةً تَسْمَحُ لَهُ بِمُمَارَسَةِ فَنِّه وَنَقُولَ : إِنَّ دِرَاسَةَ الطَّالِبِ قَدْ انْتَهَتْ، وَأَنَّ المُتَعَلِّمَ صَارَ صَانِعًا، وَأَنَّ السَّائِقَ فَازَ بِرُخْصَةِ لِقِيَادَةِ السَّيَّارَاتِ؛ فَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ تَعَلُّمَهُم قَدْ انْتَهَى [2]. إِنَّهُمْ يَسْتَمِرُّونَ كُلُّهُمْ فِي التَّعَلُّمِ خِلَالَ مُمَارَسَتِهِم. فَهُنَاكَ اسْتِمْرَارِيَّةٌ مِنْ وِجْهَةِ النَّظَرِ النَّفْسِيَّةِ بَيْنَ المَرْحَلَتَيْنِ. وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ تُحَدِّدَ دِرَاسَةٌ فِيزْيُولُوجِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ دَقِيقَةٌ مَتَى تَبْدَأُ مَرْحَلَةُ الرُّسُوخِ، لَا بَلْ إِنْ كَانَتْ سَتُوجَدُ. إِنَّ بِدَايَةَ التِّكْرَارَاتِ الحَقِيقِيَّةِ، إِذَا كَانَتْ بِدَايَةً وَاقِعِيَّةً، هِيَ بِدُونِ شَكٍّ أَكْثَرُ تَأَخُّرًا مِمَّا يَظُنُّ الحِسُّ المُشْتَرَكُ ». [3]

بول غيوم [4]

أسئلة :

1 – أوضحْ، بناء على النص، كيف أن التكرار وحده لا يفيد في التعلّم والتكيّف.

2 – لخّصْ أطروحة أصحاب الحسّ المشترك (أو الرأي العام) كما عرضها بول غيوم.

3 – على أيّ أساس، في نظرك، نميّز بين التكرار الواقعي والتكرار الوهمي ؟

4 – أثبتْ بالبرهان أن العادة، بعد ترسّخها، حتى و إنْ طبَعها التكرار الواقعي، لا تنقطع صلتها بالتعلم والاكتساب.

[1] - إن التكرار الواقعي يتعلق بالعادة بعد رسوخها؛ أي من حيث هي إجراء يُعاد لاإراديا كلما اقتضى الواقع ذلك. أما التكرار الوهمي فيخص العادة أثناء تكونها؛ وهو وهمي لأنه ليس تكرارا فقط بل استبصار للمقصود والمعنى. ومن هنا أتت هذه التفرقة بين نوعي التكرار.

[2] - و معنى ذلك أن العادة، التي نعتقد بأن جريانها بعد اكتسابها يتمّ بإعادتها وتكرارها، لا تنفصم علاقتها أبدا بالتعلم؛ والأمثلة التي ساقها بول غيوم تثبت قابليتها للتغير من الوجهة النفسية على الأقل.

[3] – Paul Guillaume, La formation des habitudes, PUF, Collection SUP, Paris 1968, p. (25 – 26).

[4] - Paul Guillaume هو عالم نفس فرنسي معاصر (1878– 1962). من روّاد علم النفس الشكل المتأثر بالمدرسة الغشتالتية. درّس في السوربون. له : المحاكاة عند الطفل، تكوين العادات، و علم النفس الشكل.



24 - الإرادة اختيار حرّ

[ماالشَّواهِدُ الدَّالَّةُ، ضِمْنَ التَّجْربَةِ النَّفْسيَّةِ، علَى أنَّ جوْهَرَ الإِنْسانِ إرادَةٌ حُرَّةٌ ؟]

«أمَّا الإِرَادَةُ أَوْ حُرِّيَّةُ الاخْتِيَارِ فَقَدْ خَبِرْتُهَا فِي نَفْسِي، فَوَجَدْتُهَا وَحْدَهَا كَبِيرَةً لِلْغَايَةِ بِحَيْثُ لَا أَتَصَوَّرُ غَيْرَهَا أَوْسَعَ وَأَرْحَبَ مِنْهَا. وَلَمَّا كَانَتْ إِرَادَتِي بِمِثْلِ هَذِهِ القُوَّةِ، فَهِيَ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ، الأَمْرُ الذِي يَجْعَلُنِي أَحْكُمُ أَنِّي عَلَى صُورَةِ اللهِ وَمِثَالِهِ. وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ الإِرَادَةَ أَعْظَمُ فِي اللهِ مِمَّا هِيَ فِيَّ أَنَا دُونَ أَيِّ وَجْهٍ لِلْمُقَارَنَةِ – وَذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ انْضِمَامَ المَعْرِفَةِ وَالقُدْرَةِ إِلَيْهَا يَجْعَلُهَا أَمْتَنَ وَأَشَدَّ تَأْثِيرًا، وَإِمَّا لِأَنَّ المَوْضُوعَاتِ التِّي تَتَعَلَّقُ بِهَا إِرَادَةُ اللهِ كَثِيرَةٌ لَا يَحْصُرُهَا العَدُّ– فَإِنَّهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا، لَا تَبْدُو لِي فِي اللهِ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ فِيَّ، إِذَا أَنَا اعْتَبَرْتُهَا مِنْ حَيْثُ صُورَتُهَا و ذَاتُهَا.[1]

ذَلِكَ أَنَّ الإِرَادَةَ إِنَّمَا تَقُومُ عَلَى اسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نَفْعَلَ الشَّيْءَ أَوْ لَا نَفْعَلَهُ، وَأَنْ نُثْبِتَهُ .أَوْ أَنْ نَنْفِيَهُ، وَأَنْ نُقْدِمَ عَلَيْهِ أَوْ أَنْ نُحْجِمَ عَنْهُ. وَبِعِبَارَةٍ أَدَقَّ، لِكَيْ نُثْبِتَ أَوْ نَنْفِيَ الأَشْيَاءَ الَّتِي يَعْرِضُهَا الذِّهْنُ عَلَيْنَا، وَلِكَيْ نُقْدِمَ عَلَيْهَا أَوْ نُحْجِمَ عَنْهَا، إِنَّمَا نَتَصَرَّفُ بِمَحْضِ اخْتِيَارِنَا دُونَ أَنْ نُحِسَّ ضَغْطًا مِنَ الخَارِجِ يُمْلِي عَلَيْنَا ذَلِكَ التَّصَرُّفَ؛ فَإِنَّ ثُبُوتَ حُرِّيَّتِي لَا يَقْتَضِي أَنْ أَكُونَ غَيْرَ مُبَالٍ بِالأَشْيَاءِ، أَيْ أَنْ يَسْتَوِيَ الضِّدَّانِ عِنْدِي بِلَا رُجْحَانٍ، بَلْ الأَوْلَى أَنْ يُقَالَ إِنَّ حُرِّيَّتِي فِي اخْتِيَارِ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ وَإِيثَارِهِ عَلَى الآخَرِ، تَزِيدُ بِمِقْدَارِ مَا يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ المَيْلِ إِلَيْهِ، إِمَّا لِأَنِّي أَعْرِفُ بِالبَدَاهَةِ مَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَحَقٍّ [2]، وَإِمَّا لِأَنَّ اللهَ قَدْ دَبَّرَ دَخِيلَةَ فِكْرِي [3] بِحَيْثُ أَمِيلُ إِلَيْهِ. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الفَضْلَ الإِلَهِيَّ وَالمَعْرِفَةَ الطَّبِيعِيَّةَ لَا يَنْتَقِصَانِ مِنْ حُرِّيَّتِي شَيْئًا، بَلْ إِنَّهُمَا يَزِيدَانِهَا وَيُقَوِّيَانِهَا.

---

[1]. أي من حيث طبيعتها وشكلها لا من حيث الموضوعات التي تشملها.

[2]. يلخص هذه الفكرة المبدأ الاول الوارد في كتاب ديكارت الأساسي «مقالة المنهج» : [ألا أعتبر الأمر على أنه حق، إلا إذا تبيّن لي بالبداهة (أي الوضوح العقلي المطلق) أنه كذلك].

[3]. دخيلة فكري = سريرته وباطنه.



وَلِهَذَا أَرَى أَنَّ " عَدَمَ الْمُبَالَاةِ " أَوْ " اِسْتِوَاءَ الطَّرَفَيْنِ " – الَّذِي أَشْعُرُ بِهِ حِينَ لَا يَدْفَعُنِي سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَى تَرْجِيحِ جَانِبٍ عَلَى آخَرَ– هُوَ أَحَطُّ مَرَاتِبِ الْحُرِّيَّةِ، وَفِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى عَيْبٍ فِي الْمَعْرِفَةِ أَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ مِنْ دِلَالَةٍ عَلَى كَمَالٍ فِي الْإِرَادَةِ». [1]

روني ديكارت [2]

أسئلة :

1 – كيف تتحدّد لك صورة العلاقة بين الإرادة الإنسانية و الإرادة الإلهية من خلال المقارنة التي عقدها ديكارت بينهما ؟

2 – اِشرحْ شرحاً وافياً، استناداً إلى النص، مفهومي الإرادة والاختيار وعلاقتهما بالميول الذاتية و العناية الإلهية.

3 – ما تعليل ديكارت لتعذّر الاختيار، أحياناً، بين طرفين أو ضدّين؟ وما رأيك فيه؟

---

[1] – ديكارت، التأملات في الفلسفة الاولى، ترجمة /عثمان أمين، مكتبة الانجلو المصرية، ط. 4، 1969، التأمل الرابع، الفقرتان (13– 14)، ص، (187– 188).

[2] .سبق التعريف به في موضع آخر. (انظر النص رقم : 2).



25 - العادة و الإرادة

[كَيْفَ يُمْكِنُ الاعْتِقادُ بِأَنَّهُ لا تناقُضَ في القَوْلِ بِأَنَّ العادَةَ قَدْ تَتَّصِفُ بِكَوْنِها إِرادِيَّةً، وَ بِأَنَّ الإِرادَةَ في حاجَةٍ إِلى دَعْمِ العادَةِ الدَّائِمِ؟]

«إِنَّ هُناكَ عاداتٍ سَلْبِيَّةً اعْتادَهَا المَرْءُ دُونَ إِرادَةٍ فيهِ بَلْ ضَعْفًا؛ وَهِيَ لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَنِ الْإِرادَةِ فَقَطْ، بَلْ مُناقِضَةً لَها أَوْ تُعِيقُ عَمَلَها [1]. وَلكِنَّ هُناكَ عاداتٍ أُخْرى اكْتَسَبَها الْمَرْءُ بِالْإِرادَةِ، وَقامَ في سَبيلِ اكْتِسابِها بِتَمْرِيناتٍ مُنَظَّمَةٍ؛ مِثْلَ الْمَهاراتِ الَّتي اكْتَسَبَها الْعامِلُ أَوِ الْكاتِبُ، مِثْلَ آدابِ السُّلُوكِ و ضُرُوبِ الْأَخْلاقِ. إِنَّ هذِهِ الْعاداتِ لَا نَكادُ نَكْتَسِبُها حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نَتَصَرَّفَ بِها تَصَرُّفًا إِرادِيًا بِالنَّظَرِ إِلى أَنَّ أَصْلَها إِرادِيٌّ. إِنَّنا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَصَرَّفَ بِها تَصَرُّفَنا بِكَنْزٍ ثَمِينٍ نَمْتَلِكُهُ؛ فَنَحْنُ لَا نَخْضَعُ لَها كَما هُوَ الْأَمْرُ في الْعاداتِ السَّلْبِيَّةِ، بَلْ هِيَ الَّتي تَخْضَعُ لَنا، وَتَضَعُ نَفْسَها في خِدْمَتِنا. إِنَّها أَشْبَهُ ما تَكُونُ بِرَصِيدٍ لَنا وَضَعْناهُ في مَصْرِفٍ مِنَ الْمَصارِفِ، وَبِإِمْكانِنا أَنْ نَسْحَبَ مِنْهُ الْمَبالِغَ الَّتي نُرِيدُ، وَفي الْوَقْتِ الَّذي نُرِيدُ. وَلَيْسَ هَذا فَقَطْ، بَلْ بِإِمْكانِنا أَنْ نَسْتَثْمِرَها وَنُنَمِّيَها في أَيِّ وَجْهٍ نَشاءُ. وَهَذا يَعْنِي أَنَّها لَا تُناقِضُ الْإِرادَةَ وَلَا تُعارِضُها، وَإِنْ كانَتْ لَيْسَتْ أَفْعالًا إِرادِيَّةً في حَدِّ ذاتِها [2].

وَفَضْلًا عَنْ ذلِكَ، فَإِنَّ الْعاداتِ الْمُكْتَسَبَةَ بِالأَفْعالِ الْإِرادِيَّةِ هِيَ أَداةٌ ذاتُ قِيمَةٍ كَبِيرَةٍ وَضَرُورِيَّةٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ. إِنَّهُ لا يُمْكِنُنا مِنْ دُونِها أَنْ نَبْلُغَ في تَصْمِيمِنا الْإِرادِيِّ وَتَنْفِيذِنا لِما صَمَّمْنا عَلَيْهِ، ضَمانَ السُّرْعَةِ وَالْيَقِينِ اللَّذَيْنِ يَخْلَعانِ عَلى الْفِعْلِ الْإِرادِيِّ صُورَةَ الْكَمالِ؛ فَالْفِعْلُ الْبَسِيطُ مِنْ دُونِها لا بُدَّ لَهُ مِنْ صِراعٍ طَوِيلٍ غالِبًا ما يَنْتَهِي بِالْإِخْفاقِ.

---

[1] - ومن نماذجها العادات السلوكية المنافية للأخلاق أوالتقاليد أو الآداب العامة في الملبس أو المآكل وعادة التدخين أو عادة تعاطي المخدرات السيئة.. إلخ

[2] - هذا التحفظ يدلّ على أن الصفة الإرادية في العادة لا يتعلق في الحقيقة إلا بمراحل اكتسابها باعتبار أنها تقتضي تدخل عناصر الإرادة : كالانتباه والاختيار والتصميم. أما بعد ذلك، فإن جريانها يطبعه الطابع اللاإرادي كما هو متعيّن في تعريفها العام.



أَمَّا الْفِعْلُ الْمُعَقَّدُ فَيُصْبِحُ مُسْتَحِيلًا. وَمِنْ هُنَا، فَالْإِرَادَةُ لَيْسَتْ قَوِيَّةً إِلَّا بِفَضْلِ الْعَادَاتِ الَّتِي تُمَكِّنُنَا مِنْ تَنْفِيذِ مَا نُرِيدُ تَنْفِيذَهُ آلِيًّا. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ فَعَالِيَتَنَا الْإِرَادِيَّةَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ أَفْعَالٍ اعْتِيَادِيَّةٍ، بَلْ آلِيَّةٍ يَكْتَفِي الْفِكْرُ بِإِثَارَتِهَا أَوْ مُرَاقَبَةِ حُدُوثِهَا؛ وَالتَّصْمِيمُ الْإِرَادِيُّ لَا يَتَعَلَّقُ إِلَّا بِالْفِعْلِ كَكُلٍّ، أَوْ بِالْغَايَةِ الَّتِي يُرَادُ بُلُوغُهَا، فِي حِينِ أَنَّ الْعَادَةَ هِيَ الَّتِي تُدَبِّرُ أَمْرَ التَّفَاصِيلِ أَوْ وَسَائِلَ التَّنْفِيذِ.[1]

وَفِي الْحَقِيقَةِ، فَإِنَّهُ يَكْفِينِي أَنْ أُفَكِّرَ بِالْاتِّصَالِ بِأَحَدِ الْأَصْدِقَاءِ هَاتِفِيًّا حَتَّى أَرَانِي قَدْ اتَّجَهْتُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ جِهَازُ الْهَاتِفِ، وَتَنَاوَلْتُ سَمَّاعَتَهُ بِيَدٍ، وَشَرَعْتُ أُدِيرُ الْأَرْقَامَ الْمَطْلُوبَةَ بِيَدٍ، دُونَ أَيِّ تَفْكِيرٍ. أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ، أَنَّنِي إِذَا شِئْتُ أَنْ أَصِلَ إِلَى قَرَارٍ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، فَإِنَّنِي، عَنْ طَرِيقِ الْعَادَةِ، أَبْدَأُ بِالْمُوَازَنَةِ [2] بَيْنَ الْأَفْكَارِ الْمُؤَيِّدَةِ وَالْأَفْكَارِ الْمُعَارِضَةِ لِلْقِيَامِ بِهِ حَتَّى أَصِلَ، بَعْدَ طُولِ تَفْكِيرٍ، إِلَى اتِّخَاذِ قَرَارٍ بِصَدَدِهِ.

وَهَذَا يَنْتَهِي إِلَى أَنَّ تَرْبِيَةَ الْإِرَادَةِ لَيْسَتْ شَيْئًا آخَرَ سِوَى اكْتِسَابِ عَادَاتِ الْإِرَادَةِ؛ وَبِذَلِكَ نَصِلُ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ الْغَرِيبَةِ : إِنَّ الْإِرَادَةَ قَضِيَّةُ عَادَةٍ ! ».[3]

تيسير شيخ الأرض[4]

---

[1] - قد لا يتحقق ذلك في مطلق الأحوال؛ لأن ثمة أفعالا إرادية ليست في حاجة إلى دعم هذه العادات بقدر ما هي في حاجة إلى دعم النواحي الابتكارية من تخيل خلاق وذكاء ثاقب و تصميم عملي؛ وهي كلها بنت حاضرها. بل يمكن الاعتقاد أحيانا أن الفعل الإرادي لا يتأتى له التبلور و التجسيد إلا بتجاوز بعض العادات و تركها ولا سيما ما يطبعه التحجر والرتابة منها. ويحفل تاريخ الفرد – بحسب الحالات– بتظافر النمطين معا من تلك العلاقة المزدوجة.

[2] - الموازنة في ذاتها لا تحصل بالعادة إلا من حيث المضمون، أمّا هي في ذاتها فتُعدّ آلية عقلية صرفة و أصيلة ليست مما يتمّ اكتسابه بالمران والعادة.

[3] - تيسير شيخ الأرض، مبادىء الفلسفة، مطابع ألف باء– الأديب، بدون طبعة، دمشق 1969، ص، (83– 84).

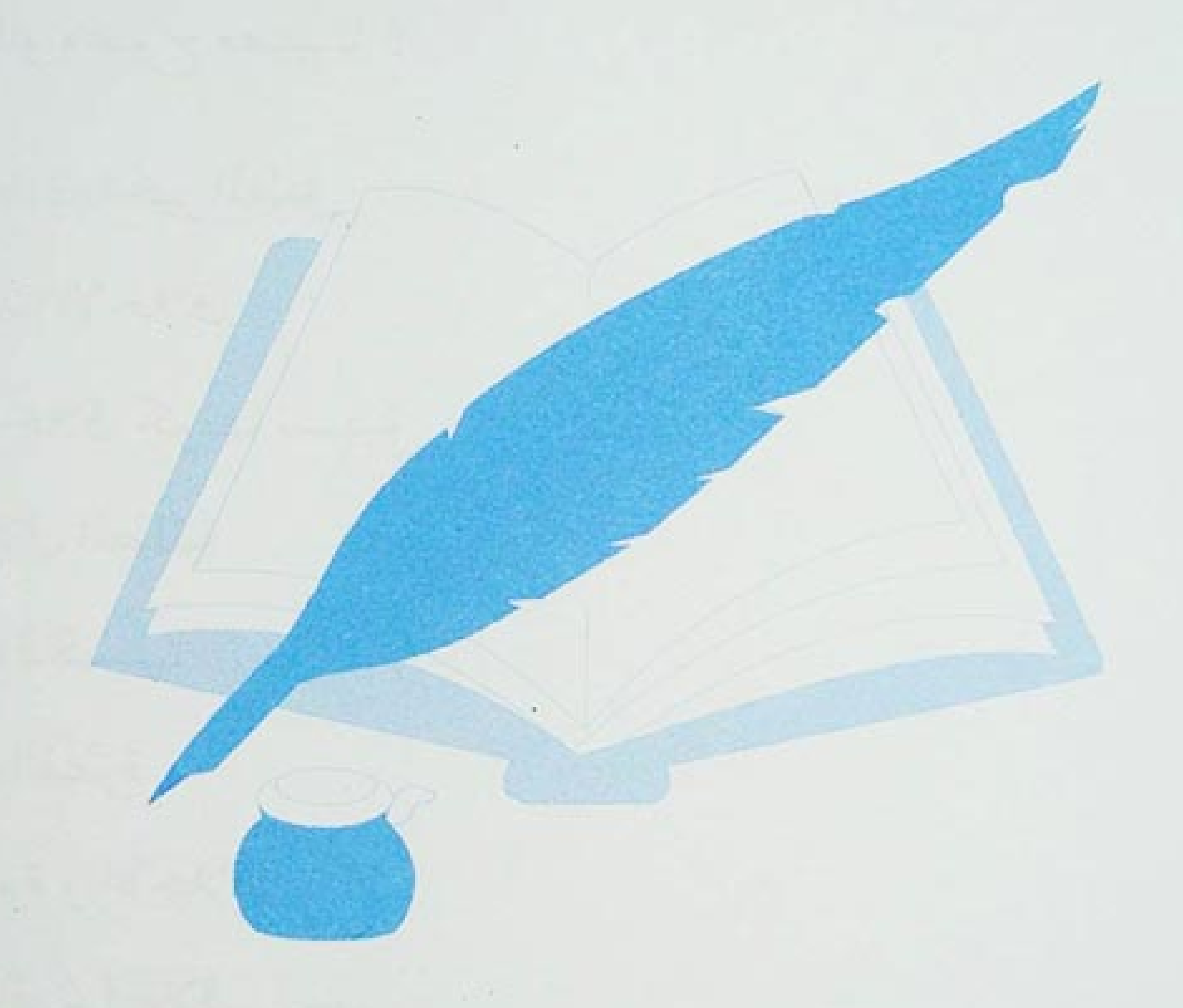
[4] - مفكر وباحث عربي ولد في دمشق (سوريا) عام 1923. يحمل إجازة في الفلسفة. حاضر في التربية والفلسفة العربية بجامعتي دمشق وبنغازي(ليبيا)، وترجم أمهات الكتب الفلسفية الغربية إلى العربية. له : دراسات فلسفية، الفلسفة ومعنى الحكمة، و مبادئ الفلسفة.

أسئلة :

1 – حلّلْ، بالرجوع إلى الفقرة الأولى، طبيعة العلاقة الوظيفية التي تربط العادة بالإرادة. و هل تندرج كل أنواع العادات المكتسبة ضمن هذه العلاقة ؟

2 – أوضحْ بدقة كيف حدّد صاحب النص مدى استفادة الإرادة من رصيد العادات ؟

3 – تأمّلْ و أجبْ : " إنّ الإرادة قضيّة عادة !" ؛ هل ترى أن هذه النتيجة المستخلصة لها ما يبرّرها واقعياً ؟ وهل هي صالحة في مطلق الأحوال ؟



الإشكالية الثانية : في الأخلاق الموضوعية والأخلاق النسبية

هل الأخلاق مبادئ أو معاملات؟ فإذا كانت مبادئ، فهي إذن، قواعد ثابتة؛ وأما إذا كانت مجرد معاملات، فإنها لا تعدو أن تكون سلوكات تختلف باختلاف الحضارات والشعوب و بتغير الأسر والأشخاص . و مهما كان المستوى الذي نتحدث فيه ، فإننا نتساءل عما هو الأساس المناسب الذي نقيم عليه الأخلاق : فهل هو أساس مطلق يتحدى الزمان والمكان و تقلبات الأيام ، أو هو أساس يسير مع تحولات الحياة الاجتماعية و العالمية؟ فكيف نحصن ثوابتنا الأخلاقية أمام عالم لا يتوقف عن التغيرات؟ ففي أي موقع نضع مثلا، حقوقنا وواجباتنا و ما يترتب عنها من فضيلة العدل ؟ و هل مسايرتنا للعالم في الاقتصاد الحر و حرية الكلمة كفيلة بضمان كرامتنا و صيانة شخصيتنا و وضوح مصيرنا ؟



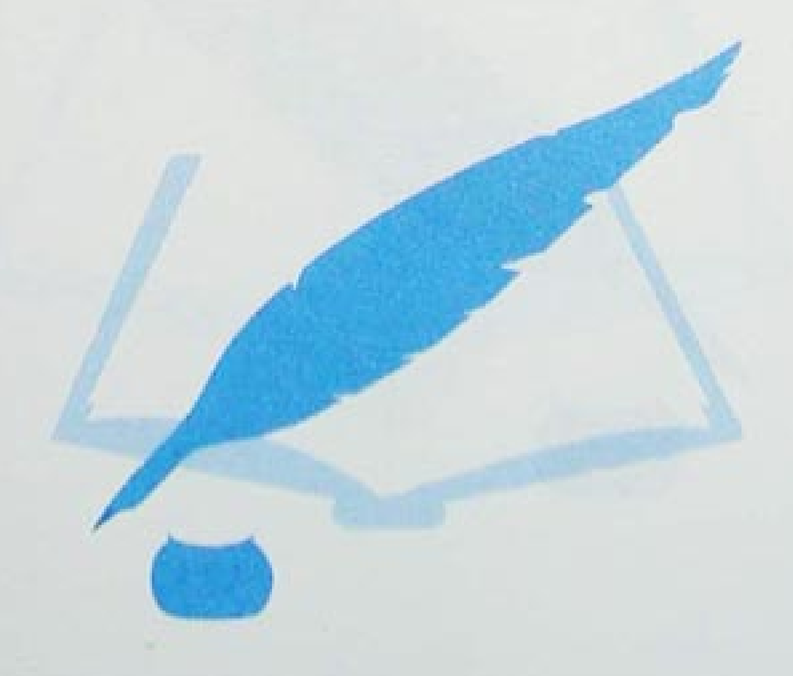
مدخل

• **في الأخلاق بين النسبي والمطلق** : هل يكفي القول بأن الأخلاق تترنح بين الثوابت و المتغيرات حتى نحيط بطبيعتها ؟ و بتعبير آخر، هل القول بأن الأخلاق في جوهرها واحدة ، وفي واقعها المادي متعددة، كفيل بتحديد طبيعتها؟ و بالتالي، على أي أساس نقيم القيم الخلقية؟

• **في الحقوق والواجبات والعدل** : و في مجال العلاقة بين القيم الخلقية، فأيهما يسبق الآخر، الحقوق أو الواجبات؟ و هل باختلال التوازن بينهما يتلاشى العدل؟

• **في العلاقات الأسرية والنظم الاقتصادية والسياسية** : إن التغير الذي يتغلغل حياتنا اليومية، أصبح أمرا واقعا؛ أليس من الحكمة إعادة قراءة مكتسباتنا القيمية و التراثية في مجال العلاقات الأسرية و نظمنا الاقتصادية و السياسية ؟

• **في الشخصية الجماعية والشخصية الفردية وكرامة الإنسان ومصيره** : كيف يمكننا في عالم لا يتوقف عن التحولات والتقلبات، إثبات شخصيتنا، و تحصين كرامتنا، و تحديد مصيرنا ؟



26 - صلة السّعادة بالخير المطلق

[إذا كانت السّعادةُ غايةَ الأخلاقِ ، فهل معنى ذلك أنّها تتضمّنُ الخيرَ المُطلقَ ؟]

« إنَّ الخيْرَ ، عَلى مَا حَدَّهُ وَاسْتَحْسَنَهُ مِنْ آراءِ المُتَقدّمينَ [1]، هُوَ المَقْصُودُ مِنَ الكُلِّ، وَهُوَ الغَايَةُ الأَخيرَةُ . وَقَدْ يُسَمّى الشَّيْءُ النَّافعُ في هَذهِ الغَايَةِ خَيْراً . فَأَمَّا السَّعادَةُ فَهِيَ الخَيْرُ بالإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا، وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ . فَالسَّعَادَةُ إِذَنْ خَيْرٌ مَا، وَ قَدْ تَكُونُ سَعادَةُ الإِنْسَانِ غَيْرَ سَعادَةِ الفَرَسِ، وَسَعادَةُ كُلِّ شَيْءٍ في تَمامِهِ وَكَمالِهِ الّذي يَخُصُّهُ . فَأمّا الخَيْرُ الَّذي يَقْصِدُهُ الكُلُّ بِالشَّوْقِ، فَهُوَ طَبيعَةٌ تُقْصَدُ، وَلَهَا ذَاتٌ، وَهُوَ الخَيْرُ العَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ؛ فَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فيهَا . فَأمّا السَّعادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، فَهِيَ إِذَنْ بِالإِضَافَةِ وَلَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ، وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِالإِضَافَةِ إِلَى قَاصِدِيهَا، فَبِذَلِكَ يَكُونُ الخَيْرُ المُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلَفٍ فيهِ [2].

وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ السَّعادَةَ تَكُونُ لِغَيْرِ النَّاطِقِينَ ؛ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا هِيَ اسْتِعْدَادَاتٌ فيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا إِرَادَةٍ . فَتِلْكَ الاسْتِعْدَادَاتُ هِيَ الشَّوْقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى الشَّوْقِ مِنَ النَّاطِقِينَ بِالإِرَادَةِ . فَأمّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا و رَاحَاتِهَا، وَلَا يُؤَهَّلُ لاسْمِ السَّعادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي الإِنْسَانِ. [...]

وَإِنَّمَا اسْتُحْسِنَ ذَلِكَ الحَدُّ [3] الَّذي ذَكَرْنَاهُ لِلْخَيْرِ المُطْلَقِ، لأَنَّ العَقْلَ لَا يُطْلِقُ السَّعْيَ وَالحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ؛ وَهَذَا أَوَّلٌ [4] فِي العَقْلِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الصِّنَاعَاتِ وَالهِمَمَ [5] وَالتَّدَابِيرَ الاخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا، وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ، وَالعَقْلُ يَحْظُرُهُ وَيَمْنَعُ مِنْهُ .

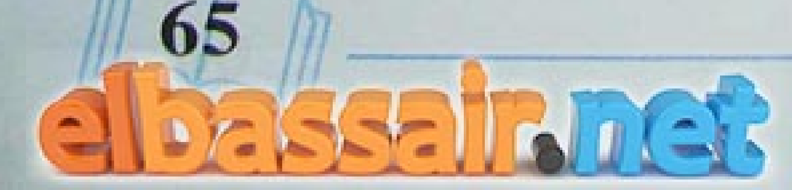
1- يقصد بالمتقدمين هنا : حكماء وفلاسفة اليونان على وجه الخصوص . وقوله حدّه يعني حدّده وبيّنه .

2- إن الخير بهذا المفهوم قيمة مطلقة غير متعينة ، و أما السعادة فهي صفة تقتضي نسبها إلى موصوف ما ؛ و بذلك فإن الخير عام و كلي و مجمع عليه ، بينما السعادة مضافة وفردية ومختلف فيها . والسعادة في ذاتها تنطوي على خير ما ، لكنه خير يتصف بصفاتها هي ، أي : الإضافة والخصوصية الفردية .

3- يعني ما يحصل لغير الإنسان في المآكل والمشرب والراحة . فيمكن عدّه من الخير العام لا المتعين ؛ لأن الحيوان لا يعيه ولا يدرك مراميه ، وبالتالي لا يتحكم فيه كما يتحكم الإنسان .

4- أوّل في العقل = فطري وقبلي .

5- الهمم جمع هِمّة : ما يهمُّ أن يقوم به الإنسان و يبادر؛ فهو العزم و الإرادة والإقدام على الفعل .





فَبِالْوَاجِبِ صَارَ الْخَيْرُ الْمُطْلَقُ هُوَ الْمَقْصُودُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ النَّاسِ [1]، وَلَكِنْ بَقِيَ أَنْ نَعْلَمَ مَا هُوَ، وَمَا الْغَايَةُ الأَخِيرَةُ مِنْهُ، الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْخَيْرَاتِ [2]. [...] وَلَا تَنْتَشِرُ أَفْكَارُنَا فِي الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً، وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً. وَلَا نَغْلَطُ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ، فَنَظُنُّهُ خَيْرًا وَنُفْنِي أَعْمَارَنَا فِي طَلَبِهِ وَالتَّعَبِ بِهِ.

[...] الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ، وَمِنْهَا مَا هِيَ مَمْدُوحَةٌ، وَمِنْهَا مَا هِيَ بِالْقُوَّةِ كَذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا؛ فَالشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ الَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا، وَتَجْعَلُ مَنِ اقْتَنَاهَا أَيْضًا شَرِيفًا، وَهِيَ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ. وَالْمَمْدُوحَةُ مِثْلُ الْفَضَائِلِ وَالأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ الإِرَادِيَّةِ. وَالَّتِي هِيَ بِالْقُوَّةِ هِيَ مِثْلُ التَّهَيُّؤِ وَالاسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ الأَشْيَاءِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ.

وَالنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ الَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا، بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ [3] ». [4]

أحمد بن مسكويه [5]

أسئلة:

1 – حدّد صاحب النص طبيعة العلاقة بين السعادة والخير المطلق. وضّحْ، باتباع منهج المقارنة، مواضع الاختلاف والتداخل بينهما على وجه الخصوص.

2 – للخير مفهومان رئيسيان؛ حاولْ – استناداً إلى النص – أن تُميِّز بينهما. ثم عدِّدْ، بالكيفية نفسها، أنواعاً فرعية أربعة لأحد هذين المفهومين الرئيسيين.

3 – يبدو أن ابن مسكويه قد تنازعته نزعتان: عقلية و واقعية (في بيان طبيعة علاقة السعادة بالخير المطلق). فهل تعتقد أنه نجح في التوفيق بين النزعتين المذكورتين ؟

---

[1] - يتردّد صدى هذه الفكرة بأكثر قوة، فيما بعد، في فلسفة كانط الأخلاقية؛ فمبدأ الواجب المستند إلى العقل عنده هو الأساس الذي يقوم عليه صرح الأخلاق برمته.

[2] - ينتج عن ذلك إذن، أن الخير كقيمة مطلقة وكلية هو ما تهفو إليه نفوس الكائنات عامة، ولكنه عند الإنسان، زيادة على ذلك، محدد الغاية بسلطان العقل؛ ومن هنا تقرر تضمنه في حدّ السعادة كما تقدّم في أول النص. و يبدو تأثر فيلسوفنا واضحا بالتصور السقراطي لمفهوم السعادة والخير وقيامهما على أساس من الإدراك و التأمل العقلي.

[3] - تجد هذه الفكرة أيضا، سبيلها إلى الذيوع والانتشار لاحقا في أخلاق المنفعة (خاصة عند ج.س.ميل).

[4] - أحمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق، نقلا عن/ د. ماجد فخري، الفكر الأخلاقي ج 2، الأهلية للنشر و التوزيع، ط1، بيروت 1979، ص، (119– 120).

[5] - هو إمام الفلاسفة الأخلاقيين في الإسلام، وُلد في الري ببلاد فارس حوالي عام 932 م و توفي ببغداد عام 1030 م. ألف في التاريخ والفلسفة والكيمياء. و أشهر هذه التآليف: تجارب الأمم، الفوز الأصغر، ترتيب السعادات، تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق، و« جاويدان جرد» (أو الحكمة الخالدة) بالفارسية.

27 - الثّبات مبدأ الأخلاق

[لِماذا يَجِبُ تَجاوُزُ تَعدُّديَّة المَذاهِبِ الأَخلاقيَّةِ، إِلى القَوْلِ بِمَبْدَإٍ ثابِتٍ لَها كَبَديلٍ؟]

«إِنَّ الضَّعْفَ الَّذي انْتابَ كُلَّ أَنْواعِ الْمَذاهِبِ الأَخْلاقيَّةِ [1]، مَرْجِعُهُ إِلى أَنَّها لَمْ تُرِ الأَفْرادَ كَيْفَ يُعالِجونَ الْواقِعَ عَلى نَحْوٍ طَبيعيٍّ مُباشِرٍ، إِنَّما هِيَ، إِلى حَدٍّ كَبيرٍ، تَكْتَفي بِالْكَلامِ حَوْلَهُ؛ إِنَّها لا تَمَسُّ تَجْرِبَةَ الإِنْسانِ الْيَوْمِيَّةَ، وَلِهَذا لا تُمارِسُ ضَغْطًا عَلَيْهِ؛ فَنَتَجَ عن ذَلِكَ، الافْتِقارُ إِلى فِكْرٍ أَخْلاقيٍّ، وَإِطْلاقُ جُمَلٍ مُعادَةٍ مُبْتَذَلَةٍ عَنِ الأَخْلاقِ [2].

إِنَّ الْمَبْدَأَ الأَساسيَّ الْحَقيقيَّ في الأَخْلاقِ يَنْبَغي لَيْسَ فَقَطْ أَنْ يَكونَ صادِقًا صِدْقًا كُلِّيًّا، بَلْ يَجِبُ أَيْضًا أَنْ يَكونَ أَصيلًا أَصالَةً مُطْلَقَةً، وَأَنْ يَكونَ باطِنًا [3]. هُنالِكَ يَظَلُّ ثابِتًا لا يَتْرُكُ مَنْ تَجَلّى لَهُ، وَيُصْبِحُ بِمَثابَةِ خَيْطٍ يَجْري في كُلِّ تَفْكيرِهِ وَلا يَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَطْرَحَهُ جانِبًا، وَيَتَحَدّاهُ دائِمًا أَنْ يَتَفاهَمَ مَعَ الْواقِعِ.

لَقَدْ ظَلَّ الْمَلّاحونَ طِوالَ قُرونٍ يَهْتَدونَ بِالنُّجومِ في سَيْرِهِمْ فِي الْبِحارِ، ثُمَّ تَجاوَزوا هَذِهِ الْمَرْحَلَةَ النّاقِصَةَ لَمّا اكْتُشِفَتْ الإِبْرَةُ الْمُمَغْنَطَةُ [4] الْمُتَّجِهَةُ دائِمًا ناحِيَةَ الشَّمالِ بِدافِعٍ مِنْ مَبْدَأِ نَشاطِها الطَّبيعيِّ، فَأَصْبَحوا بَعْدَ ذَلِكَ قادِرينَ عَلى مَعْرِفَةِ أَيْنَ هُمْ في أَشَدِّ اللَّيالي حَلَكًا [5] وَفي وَسَطِ الْمُحيطاتِ. وَهَذا النَّوْعُ مِنَ التَّقَدُّمِ هُوَ الَّذي يَنْبَغي أَنْ نَنْشُدَهُ فِي الأَخْلاقِ.

وَطالَما ظَلَلْنا نَسْتَهْدي بِنِظامٍ مِنَ الأَقْوالِ الأَخْلاقيَّةِ فَسَيَكونُ شَأْنُنا شَأْنَ مَنْ يَهْتَدونَ بِالنُّجومِ الَّتي، مَهْما يَكُنْ مِنْ لَأْلَائِها، فَإِنَّها لا تُعْطينا غَيْرَ إِرْشادٍ ضَئيلٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ

---

1. هذا التعميم يشمل جميع المذاهب الأخلاقية المعروفة في تاريخ الفلسفة عدا أخلاق العقائد و الديانات.
2. إنها مذاهب توقفت عند حدود التأمل والوصف والتحليل و لم تمارس التوجيه والتهذيب كما يجب.
3. أي روحيا متعلقا بالضمير والوجدان ؛ وهذا المبدأ الأخلاقي يستقي قوته، على ما يبدو، من الإيمان.
4. و هي الإبرة التي يستخدمها جهاز البوصلة وفق مبدأ الاتجاه مغناطيسيا نحو القطب (الشمال).
5. الليالي الحالكة هي الليالي شديدة الظلمة.



يُخْفِيَهَا السَّحَابُ أَوْ الضَّبَابُ، وَفِي اللَّيَالِي الْعَاصِفَةِ، كَمَا عَلَّمَتْنَا التَّجَارِبُ الْأَخِيرَةُ، تَتْرُكُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي مَأْزِقٍ لَا مَخْرَجَ مِنْهُ .

أَمَّا إِذَا حَصَلْنَا عَلَى مَذْهَبٍ أَخْلَاقِيٍّ يَكُونُ ضَرُورَةً فِكْرِيَّةً وَمَبْدَأً يَتَّضِحُ فِي دَاخِلِ نُفُوسِنَا ، هُنَالِكَ يَبْدَأُ تَعْمِيقٌ أَخْلَاقِيٌّ بَعِيدُ الْمَدَى لِوَعْيِ الْأَفْرَادِ وَتَقَدُّمٌ أَخْلَاقِيٌّ مُسْتَمِرٌّ لِلْإِنْسَانِيَّةِ » . [1]

آلبرت شفيتزر [2]

أسئلة :

1 – عدِّدْ جملة المآخذ التي يأخذها صاحب النص على المذاهب الأخلاقية الكلاسيكية.

2 – استعرضْ و قيِّمْ البديل الذي أورده كمبدإٍ أساسي للأخلاق؛ و هل ترى أنه يكفي للاستعاضة عن كافة المذاهب المعروفة في تاريخ الفلسفة الأخلاقية ؟

3 – لخِّصْ، في بضعة أسطر، أهمّ الأبعاد التي تترتب على توظيف مثال "الفارق في الاهتداء بكل من النجوم و البوصلة " في تدعيم أطروحة صاحب النص .

---

[1] - آلبرت شفيتزر، فلسفة الحضارة، ترجمة/ د. عبد الرحمن بدوي، ط 2، دار الأندلس، بيروت 1980، ص ، (134–135) بتصرف.

[2] –Albert Schweitzer هو عالم لاهوت وطبيب وفيلسوف فرنسي معاصر (1875 – 1965)، نال جائزة نوبل للسلام عام 1952 لجهوده في مكافحة الاوبئة بإفريقيا والعالم . له : مملكة الرب، فلسفة الحضارة، و سيرة ذاتية .



28 ـ حقيقة الأخلاق كونها نسبيّة

[كَيفَ يَتمُّ إِثْباتُ نِسْبيَةِ الأَخْلاقِ انطِلاقاً مِن قابِليَّةِ التَّطوُّرِ لَدى الفَرْدِ والمُجْتَمعِ ؟]

«إِنَّ التَّجانُسَ الْخُلُقيَّ الْعَامَّ الْمُطْلَق أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ تَمامَ الاسْتِحالَةِ، وَذلِكَ لأَنَّ الأَفْرادَ يَخْتَلِفُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ باعْتِبارِ الْبِيئَةِ الطَّبيعيَّةِ الَّتي يُوجَدُ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَباعْتِبارِ الْعَوامِلِ الْوِراثيَّةِ وَالْمُؤَثِّرَاتِ الاجْتِماعيَّةِ الَّتي يَخْضَعُ لَهَا كُلُّ مِنْهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ فإِنَّ شُعُورَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ يَخْتَلِفُ عَنْ شُعُورِ الآخَرِينَ. وَمِنَ الْمُسْتَحيلِ أَنْ يَتَشابَهَ النَّاسُ جَميعًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْخُلُقِيَّةِ لِهَذَا السَّبَبِ الْوَحيدِ وَهُوَ : أَنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ جِسْمًا عُضْوِيًا خَاصًّا، وَأَنَّ هَذهِ الأَجْسَامَ الْعُضْوِيَّةَ يَشْغَلُ كُلٌّ مِنْهَا حَيزًا مِنَ الْمَكَانِ خَاصًّا بِهِ [...] .

وَفي الْوَاقِعِ لَا يُمْكِنُنَا الْيَوْمَ أَنْ نُنْكِرَ هَذهِ الْحَقيقَةَ وَهِيَ : أَنَّ الْقَانُونَ وَالأَخْلاقَ لا يَخْتَلِفَانِ مِنْ مُجْتَمَعٍ إِلَى آخَرَ فَحَسْب، وَلَكِنْ يَخْتَلِفانِ أَيْضًا في نَمُوذَجٍ اجْتِماعيٍّ مُعَيَّنٍ إِذَا اتَّفَقَ أَنْ تَغَيَّرَتْ فيهِ شُرُوطُ الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعيَّةِ [1]. وَلَكِنْ لَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَحْدُثَ هَذهِ التَّغَيُّرَاتُ إِلَّا بِشَرْطِ أَلَّا تَكُونَ الْعَوَاطِفُ الاجْتِمَاعيَّةُ الَّتي تَقُومُ الأَخْلاقُ عَلَى أَسَاسِهَا عَصِيَّةً عَلَى التَّطوُّرِ ، وَإِلَّا بِشَرْطِ أَلَّا تَكُونَ هَذهِ الْعَوَاطِفُ ، بِالتَّالي، مُرْهَفَةً إِلَى أَقْصَى حَدٍّ، وَذَلِكَ لأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مُرْهَفَةً أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغي لَمَا أَمْكَنَ أَنْ تَكُونَ مَرِنَةً وَقَابِلَةً لِلتَّطوُّرِ. وَفي الْوَاقِعِ يَقُومُ كُلُّ تَرْكِيبٍ قَديمٍ كَعَقَبَةٍ في سَبيلِ نَشْأَةِ التَّرْكِيبِ الْجَديدِ ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ ذَلِكَ التَّرْكيبُ الْقَديمُ مَتينَ الأَسَاسِ [...] .

وَلَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ لا شَائِبَةَ فيهِ الْبَتَّةَ . فَمِنَ الْوَاجِبِ أَلَّا تَبْلُغَ الْقُوَّةُ الَّتي يَتَمَتَّعُ بِهَا الضَّميرُ الاجْتِماعيُّ حَدًّا مُبالَغًا فيهِ ، وَإِلَّا فَلَنْ يَجْرُؤَ امْرُؤٌ قَطُّ عَلَى مُعَارَضَتِهِ فَيُصْبِحُ هَذَا الضَّميرُ الاجْتِماعيُّ ، دُونَ عَنَاءٍ مِنَّا ، جَامِدًا لا يَقْبَلُ التَّطوُّرَ.

---

[1]. بمعنى أن القانون والأخلاق يتغيران حتى لدى المجتمع الواحد لما يحصل فيه من تطور طبيعي.



وَلَكِنْ لَنْ يَسْتَطِيعَ هَذَا الضَّمِيرُ الْاِجْتِمَاعِيُّ أَنْ يَتَطَوَّرَ إِلَّا إِذَا تَرَكَ مَجَالًا مِنَ الحُرِّيَّةِ أَمَامَ عَبْقَرِيَّةِ الْفَرْدِ حَتَّى تَسْتَطِيعَ التَّطَوُّرَ وَالنُّمُوَّ هِيَ الْأُخْرَى» .[1]

إيميل دوركايم[2]

أسئلة :

1 – أوضِحْ العوامل التي استند إليها صاحب النص في تعليل عدم تجانس (أو تشابه) الناس من الناحية الأخلاقية .

2 – ما هي خصائص الشروط التي تتحكم في تغيّر القانون والأخلاق ضمن المجتمع الواحد ؟

3 – في حديثه عن الضمير اعتبر دوركايم أن تطوره مشروط بتحقق معادلة طرفاها الفرد والمجتمع . اِشرحْ شرحاً وافياً طبيعة هذه المعادلة، و ابْدِ رأيك فيها .

– [1] إيميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة عبدالرحمن بوزيدة ، موفم للنشر، بدون طبعة ، الجزائر 1990 ، ص ، (151– 152) .

[2]. Emile Durkheim هو عالم اجتماع فرنسي (1858– 1917) يعتبر احد مؤسسي علم الاجتماع الحديث . تأثر بالمذهب الوضعي، و ساهم في تطوير منهج الدراسات الاجتماعية . من مؤلفاته : تقسيم العمل الاجتماعي ، قواعد المنهج في علم الاجتماع، الانتحار، و الاشكال الاولية للحياة الدينية .

29 - نقد الأخلاق المطلقة

[كَيفَ السَّبيلُ إلى إقْرارِ نِسْبيَّةِ الأَخْلاقِ ومَوْضوعِيَّتِها بإبْطالِ القَوْلِ بِمُطْلَقِيَّتِها؟]

«إِنَّنَا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْقِيَمِ مِنْ حَيْثُ الْحَالَاتُ الْعَيْنِيَّةُ لِتَطْبِيقِهَا فَإِنَّهَا تَكُونُ نِسْبِيَّةً، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ نَوْعِ النِّسْبِيَّةِ الَّتِي يَقُولُ بِهَا أَنْصَارُهَا [1] ، وَإِنَّمَا هِيَ النِّسْبِيَّةُ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى عَمَلِيَّةِ إِغْنَاءٍ مُسْتَمِرٍّ لِلْمَفْهُومِ يُفْضِي إِلَى الْارْتِقَاءِ بِهِ عَبْرَ التَّارِيخِ. أَمَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ مُسْتَوَى تَوَافُقِهَا الْعَامِّ مَعَ الْحَالَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ فِي كُلِّ عَصْرٍ، فَإِنَّ تِلْكَ الْقِيَمَ تَكُونُ مَوْضُوعِيَّةً ؛ أَيْ أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى سِمَةٍ عَامَّةٍ بَيْنَ النَّاسِ تَفْرِضُهَا طَبِيعَةُ الْعَلَاقَةِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى ضَرُورَةِ حَيَاتِهِمُ الْمُشْتَرَكَةِ كَبَشَرٍ. أَمَّا بِشَأْنِ الدَّعْوَى الَّتِي تَزْعُمُ بِأَنَّ الْقِيَمَ مُطْلَقَةٌ لَا زَمَانِيَّةٌ تَظَلُّ عَلَى الدَّوَامِ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ، فَيَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَيْهَا أَنْ نَكْشِفَ عَنْ تَنَاقُضِ فِكْرَةِ الْمُطْلَقِيَّةِ [2] مَعَ كَوْنِ الْقِيَمِ إِبْدَاعًا إِنْسَانِيًّا أَصِيلًا أَوَّلًا، وَمَعَ كَوْنِ الْبَشَرِ يَتَكَوَّنُونَ فِي التَّارِيخِ ثَانِيًا.

فَمِنَ النَّاحِيَةِ الْأُولَى نَجِدُ أَنَّ الْقَوْلَ بِالْمُطْلَقِيَّةِ يَجْعَلُ تِلْكَ الْقِيَمَ سَابِقَةً مِنْ حَيْثُ التَّكْوِينُ عَلَى وُجُودِ الْبَشَرِ؛ وَإِذَنْ فَهِيَ لَيْسَتْ صِنَاعَةً إِنْسَانِيَّةً. فَتَكَوُّنُ الْبَشَرِ هُوَ تَكَوُّنٌ زَمَانِيٌّ يَتِمُّ فِي التَّارِيخِ، وَلِذَا فَإِنَّ الزَّعْمَ بِأَنَّ الْقِيَمَ لَا زَمَانِيَّةٌ إِنَّمَا يَجْعَلُهَا غَيْرَ بَشَرِيَّةٍ. عَلَيْهِمْ بِاسْتِمْرَارٍ اسْتِقَاءُ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ تَبَنِّيهِ أَوْ اعْتِنَاقُهُ مِنْهُ، أَوْ لِنَقُلْ بِمَعْنًى آخَرَ ، إِنَّ ثَمَّةَ عَصْرًا ذَهَبِيًّا مُوغِلًا فِي الْقِدَمِ يَنْبَغِي عَلَى الْبَشَرِ التَّشَبُّهُ بِهِ ، أَوْ مُحَاكَاتُهُ وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ وَاتِّخَاذُهُ مَثَلًا أَعْلَى ثَابِتًا [3] .

---

[1] - يقصد الوضعيين والاجتماعيين ممن رأوا أن الأخلاقمتغيرة باستمرار (أنظرالنص رقم : 28) . و لفظ (القيم) في النص تم توظيفه لينوب مناب لفظ (الأخلاق) بالرغم من أنه أشمل في الدلالة و المعنى . أما الحالات العينية فهي الوقائع التي تحفل بها الحياة الطبيعية والبشرية .

[2] - فكرة المطلقية : فكرة فلسفية تحمل في بعدها الاصطلاحي معنى الثبات الزماني والشمولية المكانية ، من جهة ، ومعنى الكلية التي لا تتجزأ من جهة ثانية .

[3] - وهو تيار في العقائد القديمة يتخذ من عبادة الماضي وتقديس شخوصه مبدأ أساسياً له. ولعل فكرة الأصولية الفكرية والدوغماتيكية الفلسفية تنطويان على بعض من عناصر المعنى المذكور .

أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الثَّانِيَةِ ، فَإِنَّ اعْتِبَارَ الْقِيَمِ مُطْلَقَةً، إِنَّمَا يَفْرِضُ عَلَى الْبَشَرِ أَنْ يَكُونُوا بِاسْتِمْرَارٍ مَشْدُودِينَ إِلَى الْوَرَاءِ، أَيْ إِلَى مَاضٍ سَحِيقٍ فِي الْقِدَمِ لَكِنَّهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ يَتَعَيَّنُ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ ذَلِكَ التَّصَوُّرَ يَجْعَلُ مِنَ الْبَشَرِ كَائِنَاتٍ تَحْكُمُهَا الْعَطَالَةُ وَالْقُصُورُ الذَّاتِيُّ [1] ، شَأْنُهُمْ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْحِجَارَةِ وَغَيْرِهَا تَظَلُّ هِيَ نَفْسُهَا عَلَى الدَّوَامِ، وَيَكُونُ كُلُّ جِيلٍ فِيهَا نُسْخَةً حَرْفِيَّةً عَنِ الْأَجْيَالِ الَّتِي سَبَقَتْهُ، وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي تَكْفِي أَيَّةُ قِرَاءَةٍ لِلتَّارِيخِ، مَهْمَا كَانَتْ مُتَسَرِّعَةً، لِلتَّدْلِيلِ عَلَى عُقْمِهِ وَفَسَادِهِ، وَعَلَى دَعْوَتِهِ الصَّرِيحَةِ لِتَثْبِيتِ الْأَوْضَاعِ الْبَشَرِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَالْحَجْرِ [2] عَلَى عُقُولِ الْبَشَرِ، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى تَنَاقُضِهِ مَعَ أَهَمِّ السِّمَاتِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الْبَشَرُ؛ وَهِيَ سِمَاتُ الْإِبْدَاعِ وَالْحَرَكِيَّةِ وَالنُّزُوعِ نَحْوَ الِارْتِقَاءِ وَالتَّقَدُّمِ .

كَذَلِكَ يَكْفِي لِلتَّدْلِيلِ عَلَى فَسَادِ الدَّعْوَى الْمَذْكُورَةِ أَنَّ أَلْفَاظًا مِثْلَ (حَقٌّ مُطْلَقٌ)، وَ(خَيْرٌ مُطْلَقٌ) [3]، هِيَ أَلْفَاظٌ فَارِغَةٌ لَا مَعْنَى لَهَا بِذَاتِهَا، وَإِنَّمَا الَّذِي يَجْعَلُهَا ذَاتَ دَلَالَةٍ هُوَ الْمَضْمُونُ الَّذِي يُضْفِيهِ عَلَيْهَا الْبَشَرُ وِفْقًا لِطَبِيعَةِ الْعَلَاقَاتِ الَّتِي تَقُومُ بَيْنَهُمْ كَأَفْرَادٍ يَنْتَمُونَ إِلَى طَبَقَاتٍ وَعُصُورٍ مُعَيَّنَةٍ » . [4]

حامد خليل [5]

أسئلة :

1 – حلّلْ مفهوم صاحب النص لصفتي النسبية و الموضوعية في القيم الأخلاقية .

2 – استنبطْ ما في النص من شواهدَ تدلّ على أن القول بمطلقية القيم الأخلاقية هو محض ادّعاء ليس له ما يبرره .

3 – حرّرْ فقرة توضح فيها موقفك من « فكرة إنكار وجود أخلاق غير بشرية »، مبرراً ذلك بما تراه مناسباً من القرائن والاستشهادات .

---

1. العطالة والقصور الذاتي من المصطلحات الفيزيائية التي تتعلق بطبيعة الحركة في المادة الجامدة .

2. في القانون : الحجر إجراء يتضمن احتجاز شخص ومنعه من التصرف في ممتلكاته لعجز عقلي أو عضوي يعانيه. و في النص يقصد به الوصاية والاحتكار لعقول البشر وحبسها عن أن تتطور ذاتياً .

3. مثل هذه الألفاظ كانت شائعة الاستعمال خاصة في أوروبا خلال القرون الوسطى للدلالة على الهالة القدسية التي حملها الناس عن ملوكهم أو رعاة كنائسهم ، حتى جاءت الإصلاحات الدينية والثورات السياسية فعمدت إلى الحدّ من غلواء هذه الأوصاف والألقاب والألفاظ المفرطة في ذاتيتها .

4. د. حامد خليل ، مشكلات فلسفية ، المطبعة الجديدة ، ط 1 ، دمشق 84 ، ص ، (353 – 354) .

5. هو باحث أكاديمي عربي معاصر، عمل مديراً لمركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية بجامعة دمشق . من مؤلفاته : المنطق البراغماتي عند تشارلز بيرس ، مشكلات فلسفية ، و الحوار والصّدام في الثقافة العربية المعاصرة .

30 - الفضائل والكسب

[كيفَ نُثبتُ أنَّ الأخْلاقَ – من حيْثُ هيَ أفْعالٌ- حاصلَةٌ بالعادَةِ لاَ بالفطْرَةِ ؟]

« الْفَضائلُ صِنْفَانِ: خُلقيَّةٌ وَنُطقيَّةٌ. فَالنُّطقيَّةُ هِيَ فَضائلُ الْجُزْءِ النَّاطقِ، مثْلُ الْحكْمَة وَالْعَقْلِ وَالذَّكاءِ وَجوْدَة الْفَهْمِ. وَالْخُلُقيَّةُ هِيَ فَضائلُ الْجُزْءِ النُّزوعيِّ، مثْلُ الْعفَّة وَالشَّجاعَة وَالسَّخاءِ وَالْعَدالَة؛ وَكَذلكَ الرَّذائلُ تَنْقسمُ هَذه الْقسْمَةَ، وَفي حَيِّز كُلِّ قِسْمٍ مِنْها أضْدادُ هَذه الَّتي عُدَّتْ، وَأغْراضُها.

وَالْفَضائلُ وَالرَّذائلُ الْخُلُقيَّةُ، إنَّما تَحْصُلُ وَتتَمكَّنُ في النَّفْسِ بتَكْرير الأَفْعال الْكائنَة عَنْ ذَلكَ الْخُلُق مِرارًا كَثيرَةً في زَمانٍ ما، وَاعْتيادنا لَها، فَإنْ كانَتْ تلْكَ الأَفْعالُ خَيْرات، كانَ الَّذي يَحْصُلُ لَنا هُوَ الْفَضيلَةُ، وَإنْ كانَتْ شُرورًا، كانَ الَّذي يَحْصُلُ لَنا هُوَ الرَّذيلَةُ [1]، على مثالِ ما عَليه الصِّناعاتُ، مثْلُ الْكتابَة، فَإنّا بتَكْريرنا أفْعالَ الْكتابَة مرارًا كثيرَةً واعْتيادنا لَها تَحْصُلُ لَنا صناعَةُ الْكتابَة وَتتَمكَّنُ فينا، فَإنْ كانَ ما نُكَرِّرُهُ وَنَتعوَّدُهُ منْ أفْعال الْكتابَة أفْعالاً رَديئَةً ، تَمكَّنتْ فينا كتابَةُ سُوءٍ، وَإنْ كانَتْ أفْعالاً جَيِّدَةً، تَمكَّنتْ فينا كتابَةٌ جَيِّدَةٌ.

وَلا يُمْكنُ أنْ يُفْطَرَ الإنْسانُ منْ أوَّل أمْره بالطَّبْع ذا فَضيلَةٍ وَلا رَذيلَة، كَما لا يُمْكنُ أنْ يُفْطَرَ الإنْسانُ بالطَّبْع حائكًا وَلا كاتبًا. وَلكنْ يُمْكنُ أنْ يُفْطَرَ بالطَّبْع مُعدًّا نَحْوَ أفْعالِ فَضيلَة أوْ رَذيلَة ، بأنْ تَكُونَ أفْعالُ تلْكَ أسْهَلَ عَلَيْه منْ أفْعال غَيْرها، كَما يُمْكنُ أنْ يَكُونَ بالطَّبْع مُعدًّا نَحْوَ أفْعال الْكتابَة أوْ صناعَة أُخْرَى، بأنْ تَكُونَ أفْعالُها أسْهَلَ عَلَيْه منْ أفْعال غَيْرها، فَيتَحرَّكُ منْ أوَّل أمْره إلَى فعْل ما هُوَ بالطَّبْع أسْهَلُ عَلَيْه، مَتى لَمْ يُحَفِّزْهُ منْ خارجٍ إلَى ضدِّه حافزٌ.

[1]. واضح أن ذلك لا يتمّ إلا عن طريق الاكتساب والتربية وتهذيب السلوك فضلا عن الخبرة والاحتكاك .



وَذَلِكَ الْاسْتِعْدَادُ الطَّبِيعِيُّ لَا يُقَالُ لَهُ فَضِيلَةٌ، كَمَا أَنَّ الْاسْتِعْدَادَ الطَّبِيعِيَّ نَحْوَ أَفْعَالِ الصِّنَاعَةِ لَا يُقَالُ لَهُ صِنَاعَةٌ. وَلَكِنْ مَتَى كَانَ اسْتِعْدَادٌ طَبِيعِيٌّ نَحْوَ أَفْعَالِ فَضِيلَةٍ وَكُرِّرَتْ تِلْكَ الْأَفْعَالُ ، وَاعْتِيدَتْ وَتَمَكَّنَتْ بِالْعَادَةِ هَيْئَةٌ فِي النَّفْسِ، وَصَدَرَ عَنْهَا تِلْكَ الْأَفْعَالُ بِأَعْيَانِهَا، كَانَتْ الْهَيْئَةُ الْمُتَمَكِّنَةُ عَنِ الْعَادَةِ هِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا فَضِيلَةٌ» .[1]

أبو نصر الفارابي[2]

أسئلة :

1 – أعِدْ عرض نماذج الفضائل بقسميها، وأكملْ عرض ما يقابلها من أضدادٍ لم يتمّ ذكرها .

2 – بيّنْ، من خلال النص، كيف تتأتّى الأخلاق بالاكتساب والخبرة، لا بالولادة والفطرة.

3 – ميّز الفارابي بين الاستعداد الفطري إلى القيام بالفعل الأخلاقي، والقيام به فعلا بواسطة العادة والاكتساب؛ فهل ترى أنه وُفِّق في تعليل ذلك التمييز بصورة كافية ؟

---

[1] أبو نصر الفارابي ، فصول منتزعة من أقاويل القدماء، نقلا عن / د. ماجد فخري ، نصوص مختارة من الفكر الأخلاقي العربي ، ط1، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت 1979، ج 2 ، ص ، (69).

[2] هو من أعظم فلاسفة العرب ، لُقّب بالمعلم الثاني . وُلد في فاراب (التي استمدّ منها اسمه) في تركستان عام 870م تقريبا، و توفي بدمشق عام 950 م. كان ضليعاً في علوم شتى ، من أشهر آثاره : الجمع بين رأيي الحكيمين، آراء أهل المدينة الفاضلة، السياسة المدنية، رسالة فصوص الحكم ، فصول منتزعة من أقاويل القدماء ، و كتاب الموسيقى الكبير .

31 - الأخلاق والفطرة

[لماذا نعدُّ أخلاقيَّةَ الفعْلِ غيْرَ مُتضمَّنةٍ فيه، بَلْ في الدَّوافِعِ الفِطْريَّةِ الَّتي أدَّتْ إليْه؟]

« عِنْدَمَا نَحْكُمُ عَلَى فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ (سَعِيدٍ) " بِأَنَّهُ عَمَلٌ صَالِحٌ " نَعْنِي بِذَلِكَ – عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ – أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى نَتَائِجَ حَسَنَةٍ، وَلَكِنْ إِذَا تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ صَدَرَ عَنْ (سَعِيدٍ) مِنْ دَوَافِعَ شِرِّيرَةٍ وَمُيُولٍ سَيِّئَةٍ، نَضْطَرُّ إِلَى تَعْدِيلِ حُكْمِنَا فَنَقُولُ: " إِنَّهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّتَائِجِ الْحَسَنَةِ الَّتِي أَدَّى إِلَيْهَا، وَعَمَلٌ سَيِّءٌ بِالنِّسْبَةِ لِلدَّوَافِعِ وَالْمُيُولِ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا "[1]. بِعِبَارَةٍ أُخْرَى، إِنَّنَا نُمَيِّزُ بَيْنَ صَلَاحِ الْأَفْعَالِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْخَارِجِيَّةِ، وَبَيْنَ صَلَاحِهَا الدَّاخِلِيِّ؛ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْفَضِيلَةَ تَمُتُّ أَوَّلًا وَأَخِيراً إِلَى الصَّلَاحِ الدَّاخِلِيِّ لِأَفْعَالِ الْإِنْسَانِ، لِذَلِكَ عِنْدَمَا نَقُولُ: "(سَعِيدٌ) إِنْسَانٌ فَاضِلٌ" فَإِنَّنَا نَقْصِدُ أَنَّهُ يَتَحَلَّى بِطِبَاعٍ وَخُلُقٍ وَمُيُولٍ[2] تَجْعَلُهُ مَصْدَرًا لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ أَكْثَرَ مِنْهُ مَصْدَراً لِلْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ. فَإِذَا صَدَرَ فِعْلٌ مُعَيَّنٌ عَنْ (سَعِيدٍ) نَعْتَقِدُ بِصَلَاحِهِ الدَّاخِلِيِّ، فَإِنَّنَا نَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ لَهُ نَتَائِجُ حَسَنَةٌ اسْتِنَاداً إِلَى مَا يَتَّصِفُ بِهِ (سَعِيدٌ) مِنْ طِبَاعٍ وَمُيُولٍ فَاضِلَةٍ [...].

فَإِذَا سَلَّمْنَا بِأَنَّ (سَعِيدًا) إِنْسَانٌ فَاضِلٌ نَسْتَنْتِجُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِخُلُقٍ لَا يَتَقَبَّلُ الْاخْتِيَارَ بِدَوَافِعَ صَالِحَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، كَمَا لَوْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ فَارِقٌ بَيْنَهُمَا يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ مَيْلًا إِلَى السُّلُوكِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى الثَّانِي[3]، لِذَلِكَ لَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّهُ عِنْدَمَا اخْتَارَ (سَعِيدٌ) بِدَوَافِعَ طَيِّبَةٍ كَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَخْتَارَ بِدَوَافِعَ سَيِّئَةٍ فِي ذَاتِ الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ

---

[1]- وهذا معنى من معاني الرياء وتصنّع الخيرية والفضيلة. ومن نافلة القول أن ذلك مُدانٌ شرعاً وأخلاقاً.

[2]- تأتلف كل هذه العناصر لتشكل الفطرة في مفهومها البيولوجي والنفسي العام.

[3]- إن ثمة دائما أرجحية للفطرة الخيرة أو للفطرة الشريرة، فلا تتساويا في طبع الفعل بنسب متساوية أبداً.



الَّتي تَمَّ فيهَا اخْتِيَارُهُ ، لأَنَّ خَلْقَهُ أَكْثَرُ مَيْلاً إِلَى الاحْتِمَالِ الأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى الثَّانِي ، وَمَا لَمْ يَطْرَأْ أَيُّ تَبَدُّلٍ جِذْرِيٍّ عَلَى خَلْقِهِ وَطِبَاعِهِ لَنْ يَتَحَقَّقَ الاحْتِمَالُ الثَّانِي. مِنَ الْجَلِيِّ إِذَنْ، أَنَّ رَفْضَنَا لِنَظَرِيَّةِ اللاَّحَتْمِيَّةِ [1] لاَ يُؤَثِّرُ عَلَى فِكْرَةِ الْفَضِيلَةِ » . [2]

د. صادق جلال العظم [3]

أسئلة :

1 – أثبتْ بالبرهان ، استناداً إلى النص، أن العبرة في الأخلاق هي بالاستعدادات والنوايا، لا بالسلوكات والأفعال .

2 – توسّعْ في أطروحة صاحب النص القائلة بأن التجربة الأخلاقية لا تقوم على أساس من حرية الاختيار، بل على حتمية ونظام ثابت من الدوافع و الميول الفطرية .

3 – أيُّهما يتحكّم في الآخر و يؤثّر فيه : الخَلْقُ أم الخُلُقُ؟ علّلْ إجابتك .

---

[1] .رفض نظرية اللاحتمية معناه رفض فكرة الاحتمالات و بالمقابل إسناد الأخلاق إلى نظام حتمي ثابت .

[2] .د. صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة [فصل : مشكلة الحرية والقيم الأخلاقية] ، ط 3، دار العودة ، بيروت 1979 ، ص ، (231 – 232) .

[3] .هو باحث جامعي و مفكر علماني عربي (وُلد عام 1934)، شغل كرسي الأستاذية في كل من جامعة بيروت، عمّان، ودمشق . من مؤلفاته : نقد الفكر الدينيS، ذهنية التحريم، ما العولمة ؟ ، و دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة .

32 - الحقّ والقوّة والأخلاق

[إِذَا كَانَ الحَقُّ صَادِراً مِن رَحِمِ القُوَّةِ ، فَهَلْ هُوَ في حَاجَةٍ إِلَيْهَا أَمْ إِلى الأَخْلاقِ ؟]

« مُنْذُ الأَزْمِنَةِ الْبَعِيدَةِ لا بُدَّ أَنَّ ظُرُوفًا مُتَشَابِهَةً قَدِ اقْتَضَتْ أَفْعَالًا مُتَمَاثِلَةً، وَأَنَّ هَذِهِ الأَفْعَالَ بِدَوْرِهَا قَدِ اسْتَلْزَمَتْ رُدُودَ فِعْلٍ مِنْ جَانِبِ الآخَرِينَ (وَهَذِهِ تَتَمَاثَلُ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا)، وَأَنَّ عَادَاتٍ وَطَبَائِعَ وَتَقَالِيدَ قَدْ بَدَأَتْ تَسْتَقِرُّ مُنْذُ تِلْكَ الْعُهُودِ مُتَنَاسِبَةً مَعَ نَتَائِجِ تَصَرُّفَاتِ كُلِّ وَاحِدٍ . وَعَنْ طَرِيقِ هَذَا وَحْدَهُ سَادَ الصِّلاتِ الْبَشَرِيَّةَ شَيْءٌ مِنَ الأَمْنِ. وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ اعْتَادَ كُلُّ فَرْدٍ عَلَى أَنْ يُقَدِّرَ رَدَّ الْفِعْلِ لَدَى الآخَرِينَ ، وَيَنْشَغِلَ بِمَا يَتَوَقَّعُهُ الشُّهُودُ ، وَنَجَمَ عَنْ ذَلِكَ أَنْ بَدَأَ يُوقِفُ تَيَّارَ اتِّبَاعِ رَغَبَاتِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَبِلا تَرَدُّدٍ، وَلَمْ يَعُدْ يَسِيرُ إِلَى أَقْصَى نِهَايَةِ قُوَّتِهِ، لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ المَجْمُوعَةَ سَتَنْدَهِشُ أَوْ سَتَسْخَطُ أَوْ سَتَعْجَبُ ، وَأَنَّ الْغَيْرَ سَيَعْمَلُ مُعْتَمِدًا عَلَى ذَلِكَ التَّصَرُّفِ [1].

فَحَقُّنَا النَّاشِئُ إِذَنْ، هُوَ ذَلِكَ الْقَدْرُ الَّذِي نَسْتَعْمِلُهُ مِنْ قُوَّتِنَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ مُوَافَقٌ عَلَيْهِ وَمُعْتَرَفٌ بِهِ مِنَ الجَمِيعِ. وَمِنْ ثَمَّ كَانَ تَعَدِّي المَرْءِ حُدُودَ هَذَا الحَقِّ ضِدَّ مَا يَأْذَنُ بِهِ الْعُرْفُ أَوِ التَّقَالِيدُ أَوِ المُجْتَمَعُ، وَفِيمَا بَعْدُ يَكُونُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَظْفَرَ هَذَا الحَقُّ الْعُرْفِيُّ بِالصِّيَاغَةِ وَالتَّقْنِينِ، ثُمَّ يَأْتِي الْفِكْرُ المُتَأَمِّلُ وَإِرَادَةُ المُشَرِّعِ لِيُغَيِّرَاهُ أَوْ لِيَحُلَّا مَحَلَّهُ [2] .

فَمِنَ الخَيْرِ فِي جَوْهَرِ الحَقِّ النَّاشِئِ أَنْ يُفْرَضَ لَهُ جَزَاءٌ و لَكِنْ بِوَاسِطَةِ سُلْطَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَحْضَةٍ تَمْتَازُ لِلْوَهْلَةِ الأُولَى عَنِ الْقُوَّةِ بِمَعْنَاهَا الطَّبِيعِيِّ وَتَتَعَارَضُ مَعَهَا، لأَنَّ الْفَرْدَ لا يَنْتَظِرُ ضَمَانَ مَطَالِبِهِ المَشْرُوعَةِ مِنْ قُوَّتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلا مِنْ قُوَّةِ فَرْدٍ آخَرَ يَعْمَلُ مَدْفُوعًا بِالصَّدَاقَةِ أَوْ بِالْعَاطِفَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَظِرُهُ مِنَ الضَّغْطِ الجَمَاعِيِّ الْبَعِيدِ عَنْ مَنَافِعَ وَأَهْوَاءِ أُولَئِكَ المُتَّصِلِينَ بِهِ. وَيَنْجُمُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ نَزِيهَةً، وَهِيَ إِذْ تَسْمُو فِي أَفْعَالِهَا تُلْزِمُ، بِوَاسِطَةِ هَيْبَتِهَا وَالاحْتِرَامِ الَّذِي تَسْتَلْهِمُهُ، بِمِقْدَارِ مَا تُلْزِمُ عَنْ طَرِيقِ قُوَّتِهَا المَادِّيَّةِ [...] .

---

[1]. بالرغم من أنه لم تتمّ الإشارة بوضوح إلى السياق التاريخي والانثروبولوجي لهذه المرحلة الانتقالية الهامة ، لكن يمكن التكهّن بان أنسب فترة لها هي فترة بناء الحواضر على ضفاف الأنهار الكبرى تزامناً مع التقسيم الاجتماعي للعمل، وظهور السلطة السياسية، والتحول من المشاعية إلى الاقتصاد الزراعي .

[2]. و هو بالضبط ما اضطلع القيام به في العصر القديم المشرّع القانوني الأعظم حمورابي الذي حكم مملكة بابل ما بين(1792 و1750 ق.م) عبر لوحته الشهيرة التي دشّن بها بداية ظهور القانون المدوّن .



وَإِذَا سَبَرْنَا غَوْرَ [1] الْمَسْأَلَةِ أَلْفَيْنَا أَنَّ العَدَالَةَ تَنْعَطِفُ دَائِمًا نَحْوَ إِضْعَافِ شَوْكَةِ الْقُوَّةِ الفَظَّةِ، وَتَوَدُّ أَنْ تَفْرِضَ نَفْسَهَا بِوَاسِطَةِ سُلْطَانِهَا وَحْدَهُ، وَهِيَ تَنْعَطِفُ إِلَى اتِّخَاذِ خُطَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ كُلَّ التَّبَايُنِ، وَمِنْ ثَمَّ تُؤَلِّفُ جِهَازَ جَلَالِهَا وَرَمْزَهُ (كَمَظْهَرِ الْقَاضِي الَّذِي لَا يَحْمِلُ السَّيْفَ). فَلَا جِدَالَ أَنَّهُ مِنَ الْإِخْفَاقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْقُوَّةَ فِي وُضُوحٍ لِقَهْرِ مُتَمَرِّدٍ؛ إِذْ أَنَّ انْتِصَارَهَا هُوَ فِي أَنْ تُزِيلَ مِمَّنْ تُطَبَّقُ عَلَيْهِمُ الْعَدَالَةُ، نَفْسَ فِكْرَةِ مُقَاوَمَتِهَا، أَوْ أَنْ تَمْنَعَ نَشْأَتَهَا لَدَيْهِمْ [2].

فَمَعْنَى الْحَقِّ دَائِمًا هُوَ تَنْظِيمُ عَلَاقَاتِ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ الْمُتَطَاحِنَةِ، بِفَرْضِهِ عَلَيْهِمْ قُوَّةً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ؛ هِيَ مِنْ جَوْهَرٍ أَخْلَاقِيٍّ» [3].

دومينيك بارودي [4]

أسئلة :

1 – اشرحْ لماذا يعتبر الحق ناتجاً منطقياً عن لجْمْ القوة الفردية وتطويعها للإرادة الجماعية .

2 – بيّنْ بالحجة، كيف يرتبط مفهوم الحق بمفهوم العدالة القانونية ارتباطاً سببياً و وظيفياً.

3 – هل توافق صاحب النص في تشديده على أن ضمان حقوق الفرد بواسطة العدالة لا يحتاج إلى أية قوة سوى القوة الأخلاقية ؟

---

[1] - سبر يسبر سبراً : أي جسّ وتفحص وخبر، والغور : هو العمق بوصفه أبعد نقطة يصل إليها السبر .

[2] - في ذلك إشارة إلى فكرة الاقتداء التي ينبغي أن تحلّ محلّ القوة ؛ فكلما كانت العدالة مثالا للنزاهة والصدق والإنصاف، وكلما بعدت عن التحيز والتطرف والتعسف ، صارت إنسانية الطابع ، راعية لأهدافها النبيلة والسامية ، بصرف النظر عن الاختلاف الطبيعي أو العرقي أو الديني أو الثقافي ، وبالتالي ، لم تكن في حاجة إلى استعمال القوة سواء في الإكراه (كوسيلة للوقاية) أو الردع (كوسيلة لتنفيذ الأحكام والجزاءات) . وبالرغم مما يبدو في هذا التصور من مثالية ، إلا أنه يمثل حقيقة العدالة و جوهرها . وأما اللجوء إلى القوة ، وإن استعمل بكثافة ولا يزال، فإنه لا يقدّم ، في الواقع ، سوى الاستثناء الذي لا مفر منه أحياناً .

[3] – د. بارودي ، المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، ترجمة محمد غلاب، الأنجلوالمصرية، ط 2 ، القاهرة 1958، ص، (249 – 250) بتصرف.

[4] - Dominique Parodi هو مؤرخ فلسفة و مفكر فرنسي (1870– 1955) ، له مساهمات في فلسفة الدين و الأخلاق. من مؤلفاته : الفلسفة المعاصرة في فرنسا، المشكلة الأخلاقية، و فكرة التقدم .



وَإِذَا سَبَرْنَا غَوْرَ [1] الْمَسْأَلَةِ أَلْفَيْنَا أَنَّ الْعَدَالَةَ تَنْعَطِفُ دَائِمًا نَحْوَ إِضْعَافِ شَوْكَةِ الْقُوَّةِ الْفَظَّةِ، وَتَوَدُّ أَنْ تَفْرِضَ نَفْسَهَا بِوَاسِطَةِ سُلْطَانِهَا وَحْدَهُ، وَهِيَ تَنْعَطِفُ إِلَى اتِّخَاذِ خُطَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ كُلَّ التَّبَايُنِ، وَمِنْ ثَمَّ تُؤَلِّفُ جِهَازَ جَلَالِهَا وَرَمْزَهُ (كَمَظْهَرِ الْقَاضِي الَّذِي لَا يَحْمِلُ السَّيْفَ). فَلَا جِدَالَ أَنَّهُ مِنَ الْإِخْفَاقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْقُوَّةَ فِي وُضُوحٍ لِقَهْرِ مُتَمَرِّدٍ؛ إِذْ أَنَّ انْتِصَارَهَا هُوَ فِي أَنْ تُزِيلَ مِمَّنْ تُطَبِّقُ عَلَيْهِمُ الْعَدَالَةُ، نَفْسَ فِكْرَةِ مُقَاوَمَتِهَا، أَوْ أَنْ تَمْنَعَ نَشْأَتَهَا لَدَيْهِمْ [2].

فَمَعْنَى الْحَقِّ دَائِمًا هُوَ تَنْظِيمُ عَلَاقَاتِ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ الْمُتَطَاحِنَةِ، بِفَرْضِهِ عَلَيْهِمْ قُوَّةً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ ؛ هِيَ مِنْ جَوْهَرٍ أَخْلَاقِيٍّ » . [3]

دومينيك بارودي [4]

أسئلة :

1 – اشرحْ لماذا يعتبر الحق ناتجاً منطقياً عن لجْمْ القوة الفردية وتطويعها للإرادة الجماعية .

2 – بيِّنْ بالحجة، كيف يرتبط مفهوم الحق بمفهوم العدالة القانونية ارتباطاً سببياً و وظيفياً.

3 – هل توافق صاحب النص في تشديده على أن ضمان حقوق الفرد بواسطة العدالة لا يحتاج إلى أية قوة سوى القوة الأخلاقية ؟

---

[1] سبر يسبر سبراً : أي جسّ وتفحص وخبر، والغور : هو العمق بوصفه أبعد نقطة يصل إليها السبر .

[2] في ذلك إشارة إلى فكرة الاقتداء التي ينبغي أن تحلّ محلّ القوة ؛ فكلما كانت العدالة مثالا للنزاهة والصدق والإنصاف، وكلما بعدت عن التحيز والتطرف والتعسف ، صارت إنسانية الطابع ، راعية لأهدافها النبيلة والسامية ، بصرف النظر عن الاختلاف الطبيعي أو العرقي أو الديني أو الثقافي ، وبالتالي ، لم تكن في حاجة إلى استعمال القوة سواء في الإكراه (كوسيلة للوقاية) أو الردع (كوسيلة لتنفيذ الأحكام والجزاءات) . وبالرغم مما يبدو في هذا التصور من مثالية ، إلا أنه يمثل حقيقة العدالة و جوهرها . وأما اللجوء إلى القوة ، وإن استعمل بكثافة ولا يزال، فإنه لا يقدّم ، في الواقع ، سوى الاستثناء الذي لا مفر منه أحياناً .

[3] – د. بارودي ، المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، ترجمة محمد غلاب، الأنجلوالمصرية، ط 2 ، القاهرة 1958، ص، (249 – 250) بتصرف.

[4] Dominique Parodi هو مؤرخ فلسفة و مفكر فرنسي (1870– 1955) ، له مساهمات في فلسفة الدين و الأخلاق. من مؤلفاته : الفلسفة المعاصرة في فرنسا، المشكلة الأخلاقية، و فكرة التقدم .



33 - الواجب قانون أخلاقيّ أسمى

[كَيفَ يُمْكِنُ اعْتِبارُ الواجِبِ الأَخْلاقِيِّ قائِماً عَلى ضَرورَةٍ عَقْلِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ فَحَسْب؟]

« يَجِبُ أَنْ يُوافِقَ النَّاسُ قاطِبَةً عَلى أَنَّهُ لِكَيْ يَكُونَ لَدَيْنا قِيمَةٌ أَخْلاقِيَّةٌ، أَعْنِي لِكَيْ نُرْسِيَ دَعائِمَ الإِلْزامِ، يَنْبَغِي أَنْ يَتَضَمَّنَ القانُونُ في ذاتِهِ ضَرُورَةً مُطْلَقَةً، وَيَجِبُ أَلَّا تَقْتَصِرَ مَشْرُوعِيَّةُ الأَمْرِ التَّالِي: " لا يَجِبُ أَنْ نَكْذِبَ " عَلى بَعْضِ النَّاسِ بِحَيْثُ لا تَعْبَأُ سائِرُ الكائِناتِ العاقِلَةِ بِهِ، وَكَذلِكَ شَأْنُ جَمِيعِ القَوانِينِ الأَخْلاقِيَّةِ الأُخْرَى الحَقِيقِيَّةِ. وَيَتَرَتَّبُ عَلى ذلِكَ أَنَّنا لا يَنْبَغِي أَنْ نَبْحَثَ عَنْ مَبْدَأِ الإِلْزامِ في طَبِيعَةِ الإِنْسانِ، وَلا في المُلابَساتِ الَّتِي تَكْتَنِفُهُ في هَذِهِ الدُّنْيا، بَلْ أَنْ نَبْحَثَ عَنْهُ بَحْثًا أَوَّلِيًا في تَصَوُّراتِ العَقْلِ الخالِصِ ذاتِها، وَكُلُّ أَمْرٍ آخَرَ يُؤَسَّسُ عَلى مَبادِئَ مِنْ مَحْضِ التَّجْرِبَةِ، وَإِنْ كانَ مِنْ بَعْضِ زَوايا النَّظَرِ أَمْرًا كُلِّيًا إِذا جازَ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ قاعِدَةً عَمَلِيَّةً في عَيْنِ اللَّحْظَةِ الَّتِي يَعْتَمِدُ فِيها عَلى أَسْبابٍ تَجْرِيبِيَّةٍ، لا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يُقالَ عَنْهُ إِنَّهُ قانُونٌ أَخْلاقِيٌّ.

وَمِنْ ثَمَّ فَلَيْسَتِ القَوانِينُ الأَخْلاقِيَّةُ فَحَسْبُ بِما تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مَبادِئَ، تَتَمَيَّزُ تَمَيُّزًا جَوْهَرِيًا في كُلِّ مَعْرِفَةٍ عَمَلِيَّةٍ عَنْ كُلِّ ما يَشْمَلُ شَيْئًا ما تَجْرِيبِيًا، وَلَكِنْ أَيْضًا عَنْ كُلِّ فَلْسَفَةٍ أَخْلاقِيَّةٍ تَعْتَمِدُ اعْتِمادًا تامًّا عَلى جُزْئِها الخالِصِ[1]. وَحِينَ تُطَبَّقُ عَلى الإِنْسانِ لا تَسْتَعِيرُ أَدْنَى اسْتِعارَةٍ مِنْ مَعْرِفَةِ ما هُوَ كائِنٌ تارِيخِيًا، وَإِنَّما عَلى العَكْسِ مِنْ هَذا، تُزَوِّدُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ كائِنٌ عاقِلٌ بِقَوانِينَ أَوَّلِيَّةٍ.

وَالحَقُّ أَنَّ هَذِهِ القَوانِينَ تَتَطَلَّبُ كَذلِكَ مَلَكَةَ حُكْمٍ شَحَذَتْها التَّجْرِبَةُ حَتَّى تُمَيِّزَ مِنْ جِهَةٍ أَيَّةَ حالاتٍ يُمْكِنُ أَنْ تَنْطَبِقَ عَلَيْها، وَلِكَيْ تَسْرِيَ بِها مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِلى الإِرادَةِ الإِنْسانِيَّةِ،

---

[1] هذا التمييز يخص المذاهب الأخلاقية المستمدة من التجربة الجزئية مثل أخلاق المنفعة واللذة والعاطفة.



وَتَمُدَّهَا بِنُفُوذٍ عَلَى النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ خَاضِعٌ لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمُيُولِ، قَادِرٌ تَمَامًا وَمِنْ غَيْرِ شَكٍّ عَلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ فِكْرَةَ عَقْلٍ عَمَلِيٍّ خَالِصٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَدَيْهِ فِي يُسْرٍ، الْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَقْلَ فَعَّالًا فَعَالِيَةً تَتَحَقَّقُ تَحَقُّقًا مَلْمُوسًا فِي سُلُوكِهِ ».[1]

إيمانويل كانط [2]

أسئلة :

1 – علّلْ، اعتماداً على النص، كيف يصدر الواجب في ذاته عن الضرورة العقلية الخالصة .

2 – وعن طريق البرهان بالخلف، بيّن لماذا ينبغي تمييز الواجب، كقانون أخلاقي أسمى، عن التجربة الإنسانية بأبعادها المختلفة ؟

3 – ومع ذلك، فقد حدّد كانط دوراً ما للتجربة في الفعل الأخلاقي؛ فما هي طبيعة هذا الدور ؟ و ما هي حدوده ؟



---

[1]. كانط ، أسس ميتافيزيقا الأخلاق ، ترجمة/ محمد فتحي الشنيطي ، موفم للنشر، بدون طبعة ، الجزائر 1991 ، ص ، (213– 214) .

[2]. Emmanuel Kant هو أعظم فلاسفة ألمانيا المحدثين (1724– 1804) ، و مؤسس الفلسفة النقدية التي اعتبرت بمثابة « ثورة كوبيرنيكية » في تاريخ الفلسفة الحديثة . اشتهر على وجه الخصوص بثلاثيته : نقد العقل المجرد ، نقد العقل العملي ، و نقد ملكة الحكم .



34 - علاقة الحقوق بالواجبات

[متى يَصْدُقُ القَوْلُ : إنَّ للْحق واجباً مُناظِراً لَه ، وَ إنَّ للْواجِب حقًّا يَترَتَّبُ عليْه؟]

«إنَّ الحُقُوقَ تَكُونُ مُوجبَةً وَسَالِبَةً : لِي الحَقُّ في أَنْ أُنَاقِشَ، أَوْ لِي الحَقُّ في أَنْ أُمَارِسَ شَعَائِرَ ؛ هَذَا يَعْنِي أَنَّنِي حُرٌّ في هَذِه الأُمُورِ وَلاَ يَحِقُّ لأَحَد أَنْ يَتَدَخَّلَ فيهَا ؛ أَوْ قُلْ ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ : لِي الحَقُّ في أَنْ أَتَقَاضَى أَجْرًا لاَ يَقِلُّ عَنِ الحَدِّ الأَدْنَى، أَوْ لِي الحَقُّ في العِلاَجِ الطِّبِّيِّ...إلخ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يَجِبُ ضَمَانُ مِثْلِ هَذِه الأَشْيَاءِ لِي .

وَالآنَ يَبْدُو مِنَ الوَاضِحِ ، المَعْنَى الَّذِي بِمُوجِبِه تَتَطَلَّبُ الحُقُوقُ الْتِزَامَاتٍ مِنْ قِبَلِ الآخَرِينَ ؛ إنَّهُ حِينَمَا يَكُونُ لِي الحَقُّ فَإنَّ شَخْصًا آخَرَ ، أَوْ أُنَاسًا آخَرِينَ ، أَوْ حَتَّى السُّلُطَاتِ عَلَيْهَا وَاجِبُ أَنْ تَدَعَنِي وَشَأْنِي، أَوْ أَنْ تُقَدِّمَ لِي الخَدَمَاتِ الَّتِي أَطْلُبُهَا. فَالحُقُوقُ إذَنْ تَتَضَمَّنُ وَاجِبَاتٍ؛ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ إذَا كَانَ مِنْ وَاجِبِ الشَّخْصِ (س) أَنْ يَتْرُكَ الشَّخْصَ (ص) بِمُفْرَدِه، أَوْ يُقَدِّمَ لَهُ خِدْمَةً، إذَنْ الشَّخْصُ (ص) لَهُ الحَقُّ في أَنْ يَتْرُكَهُ الأَوَّلُ بِمُفْرَدِه، أَوْ يُقَدِّمَ لَهُ خِدْمَةً. إنَّنَا نُلاحِظُ هُنَا أَنَّ العَلاَقَةَ بَيْنَ الحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ هِيَ عَلاَقَةٌ تَسِيرُ في الاتِّجَاهَيْنِ. وَلَكِنَّنِي أَرَى أَنَّ هَذِه المَسْأَلَةَ مَوْضِعُ شَكٍّ [1] . خُذْ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، مَا يَلِي : إذَا سَأَلَنِي زَمِيلٌ لِي أَنْ أُقَدِّمَ لَهُ كِتَابًا بِحَوْزَتِي وَهُوَ يَحْتَاجُ إلَيْه وَلاَ أَسْتَعْمِلُهُ أَنَا، أَظُنُّ أَنَّ مِنْ وَاجِبِي أَنْ أُعِيرَهُ إيَّاهُ، وَلَكِنَّنِي لاَ أَظُنُّ أَنَّ لَهُ الحَقَّ في أَخْذِ الكِتَابِ.

وَمِثَالٌ آخَرُ : إذَا كُنْتُ أَسِيرُ بِسَيَّارَتِي وَلَدَيَّ مَقْعَدٌ خَالٍ بِالسَّيَّارَةِ وَشَاهَدْتُ رَجُلاً يَبْحَثُ عَنْ وَسِيلَةِ مُوَاصَلاَتٍ وَهُوَ يَمْشِي، أَظُنُّ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ آخُذَهُ مَعِي في السَّيَّارَةِ، وَلَكِنَّنِي لاَ أَظُنُّ أَنَّ لَهُ الحَقَّ في رُكُوبِ السَّيَّارَةِ مَعِي.

بِطَبِيعَةِ الحَالِ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ نَتَغَلَّبَ عَلَى هَذِه الصُّعُوبَةِ عَنْ طَرِيقِ تَحْدِيدِ اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ "وَاجِب" بِحَيْثُ تُطَبَّقُ فَقَطْ عَلَى تِلْكَ الالْتِزَامَاتِ الَّتِي يَكُونُ لِلآخَرِينَ حُقُوقٌ فِيهَا.

[1] الشك هنا لا يتعلق بالمبدأ بل بالتطبيق ؛ فالتضمن التبادلي والتداخل الوظيفي القائم بين الحقوق والواجبات ، كما تحدث عنها قبل ذلك ، هي من الحقائق التي لا يمكن إنكارها . و لكن التحفظ يطال مجالات صدقها وحدود تطبيقها من حيث إنها تبقى أمراً نسبياً كما يتبين من الامثلة الموظفة لاحقاً .



فَوَاجِبَاتُ الْمَرْءِ إِذَنْ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَجْمُوعَةً ذَاتَ حَدٍّ أَدْنَى مِنَ الْاِلْتِزَامَاتِ، بِحَيْثُ إِنَّ إِنْقَاصَهَا يَجْعَلُ الْمَرْءَ مُلْزَمًا بِأَنْ يَسْلُكَ مُسْتَوًى أَعْلَى مِنَ الْأَفْعَالِ الْأَخْلَاقِيَّةِ [1] [...].

وَلَكِنْ يَبْدُو مِنَ الْمُسْتَحِيلِ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْحُقُوقَ الْأَخْلَاقِيَّةَ تَعْتَمِدُ عَلَى الْإِقْرَارِ الاجْتِمَاعِيِّ؛ فَلَقَدْ كَانَ لِلْعَبِيدِ وَلِلنِّسَاءِ حُقُوقٌ قَبْلَ أَنْ يُقَرَّ بِهَا اجْتِمَاعِيًا. فَالحَقُّ الأَخْلَاقِيُّ لَا يَحْتَاجُ حَتَّى إِلَى أَنْ يُدْرِكَهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي لَهُ الحَقُّ. وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ فَإِنَّ الْحُقُوقَ الاجْتِمَاعِيَّةَ تَتَطَلَّبُ إِدْرَاكًا وَإِقْرَارًا [2]. إِنَّهُ إِذَا كَانَ مِنَ الصَّادِقِ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ عِنْدَمَا يَكُونُ لِلْمَرْءِ حُقُوقٌ فَإِنَّ عَلَى أُنَاسٍ آخَرِينَ وَاجِبَاتٍ، فَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْحُقُوقَ

تَنْطَوِي عَلَى عَلَاقَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ. وَإِذَا قَرَّرَ أَيُّ امْرِئٍ أَنَّ لِإِنْسَانٍ حَقًّا إِذَنْ فَالْمُتَحَدِّثُ عَلَى الْأَقَلِّ يُسَلِّمُ بِهَذَا الْحَقِّ، أَوْ هُوَ يَعْتَرِفُ بِهِ ». [3]

ماهر عبد القادر محمد علي [4]

أسئلة :

1 – وضّحْ، بالرجوع إلى بدايات النص، ما المقصود بكون الحقوق سالبة و موجبة ؟

2 – اشرحْ شرحاً وافياً، لماذا لا نعدّ القيام بالواجب متضمناً بالضرورة إسداء حق للآخرين .

3 – و بالمقابل، برّرْ، في بضعة أسطر، الفكرة القائلة بأن المطالبة بالحقوق لا تتيسّر إلا إذا تمّ إقرارُها اجتماعياً .

---

[1] - يتعين التمييز هنا بين الواجب الأخلاقي الذي لا يتطلب حقوقا مقابلة؛ إنما هو واجب وكفى ، وبين الواجب الاجتماعي والواجب القانوني اللذين يكونان مشروطين شرط وجود بإسداء تلك الحقوق المقابلة.

[2] – ماهر عبد القادر محمد علي ، مقدمة في الأخلاق، دار النهضة العربية، بدون طبعة، بيروت 1985 ص ، (210– 211) .

[3] - هذا يعني أن الحق الأخلاقي أشمل وأسبق من الحق الاجتماعي لأنه يتعلق بالضمير والوجدان من جهة، و بالإنسان كإنسان من جهة أخرى . ولكن من المؤسف أنه أقل إلزامية من الناحية العملية ؛ فإذا عدنا إلى مثال النساء والعبيد نرى أنهم لم يكونوا– قبل إقرار حقوق الإنسان كتشريعة قانونية في العصر الحديث– قادرين حتى على المطالبة بحقوقهم وإن كان معترفاً بها أخلاقياً و دينياً . و تشير وقائع التاريخ القديم والوسيط كيف أن غياب الإقرار الاجتماعي والسياسي بهذه الحقوق قد أدى ليس فقط إلى اعتبار ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس في العهد الروماني، وثورة الزنج بالبصرة في العهد الإسلامي بمثابة تمرّد، بل أدى أكثر من ذلك إلى قمع هذه المطالبة بكل قسوة وشدّة .

[4] - هو باحث أكاديمي عربي معاصر، عمل أستاذاً للفلسفة في العديد من الجامعات العربية . من مؤلفاته : المنطق ومناهج البحث ، التطور المعاصر لنظرية المنطق ، فلسفة العلوم (في 3 أجزاء) ، و مقدمة في الأخلاق ، والتراث والحضارة الإسلامية ، و فلسفة العلوم (قراءة عربية) .

35 - تطور العدالة كقيمة إنسانية

[إلى أيّ حدٍّ يُمْكِنُ الاعْتِقادُ بأنَّ العَدالَةَ قِيمَةٌ مُطْلَقَةٌ أخْلاقِيًا ، ومُتَطَوِّرَةٌ اجْتِماعِيًا ؟]

«إنَّ حَرَكَةَ الاحْتِجَاجِ الْمُسْتَمِرَّةَ الَّتِي شَهِدَتْها الْمُجْتَمَعَاتُ وَلاَ تَزَالُ تَشْهَدُهَا، وَالَّتِي تَرْمِي إِلى تَحْقِيقِ التَّوَازُنِ وَالتَّوَافُقِ بَيْنَ قِوَاهَا الصَّانِعَةِ لِحَيَاتِها وَبَيْنَ الْعَلاَقَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَتَعَيَّنُ أَنْ تَقُومَ بَيْنَهَا، لَهِيَ أَنْصَعُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا إِنْسَانِيًا عامًا يَبْرُزُ دوْمًا كَعُنْصُرٍ أَسَاسِيٍّ في عَمَلِيَّةِ تَكْوِينِ الْبَشَرِ لأَنْفُسِهِمْ في ذَلِكَ التَّارِيخِ الْمُتَسَلْسِلِ الحَلَقَاتِ، وَخَاصَّةً مَا يَتَعَلَّقُ بِنَوْعِ الْقِيَمِ الَّتِي يَصْنَعُونَهَا .

فَالصِّرَاعَاتُ الَّتِي شَهِدَهَا الْمُجْتَمَعُ الْيُونَانِيُّ الْعُبُودِيُّ بَيْنَ الْقِوَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ [1] وَالْقِوَى الأُولِيغَارْكِيَّةِ [2]، كَانَ عَلَى الدَّوَامِ صِرَاعًا يَحْكُمُهُ تَحْقِيقُ مَطْلَبِ الْعَدَالَةِ، سَوَاءٌ مِنْ جَانِبِ هَذَا الطَّرَفِ أَوْ ذَاكَ. صَحِيحٌ أَنَّ كُلاًّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ الْمُتَصَارِعَيْنِ كَانَ يُفَسِّرُ الْعَدَالَةَ عَلَى النَّحْوِ الذي يُحَقِّقُ فِيهِ إِنْسَانِيَّتَهُ وِفْقَ مَا يَرَاهُ مُنَاسِبًا لِذَلِكَ، وَأَنَّ مَضَامِينَ ذَلِكَ التَّفْسِيرِ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِيمَا بَيْنَهَا إِلَى حَدِّ التَّنَاقُضِ، لَكِنَّ ذَلِكَ يَظَلُّ ، بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، يُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى حَقِيقَتَيْنِ أَسَاسِيَّتَيْنِ لَهُمَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ عَلَى تَحْدِيدِنَا لِطَبِيعَةِ الْقِيمَةِ ، وَهُمَا أَنَّ الْعَدَالَةَ تَبْقَى تُشَكِّلُ قِيمَةً إِنْسَانِيَّةً بِاعْتِرَافِ الْجَمِيعِ مَهْمَا تَنَوَّعَتْ

تَفْسِيرَاتُهُمْ لَهَا ، وَأَنَّ ثَمَّةَ اتِّجَاهًا عَامًّا وَاحِدًا في التَّفْسِيرِ هُوَ الأَقْرَبُ إِلَى التَّفْسِيرِ الإِنْسَانِيِّ الْحَقِيقِيِّ، وَهُوَ الاتِّجَاهُ الذي تَتَبَنَّاهُ حَرَكَةُ الأَجْيَالِ التَّالِيَةِ [...] .

مَعَ مُسْتَوَى تَطَوُّرِهَا ؛ فَتَرْجَمَ فِكْرُ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ الأُخُوَّةَ الْمَذْكُورَةَ إِلَى مُسَاوَاةٍ وَاسِعَةٍ جِدًّا في الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ بَيْنَ الْبَشَرِ؛ كَحَقِّ التَّمَلُّكِ وَالْمُشَارَكَةِ الْوَاسِعَةِ في الْحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَحَقِّ التَّعَلُّمِ، وَالتَّعْبِيرِ، وَالرَّأْيِ، وَالْمُعَارَضَةِ، وَالاسْتِقْلاَلِ في الشَّخْصِيَّةِ، وَالْحُرِّيَّةِ...إلخ [3].

1- يختلف مفهوم الديمقراطية اليونانية التي أسسها بيركليس في العصر القديم عن نظيرتها الحالية من حيث اقتصارها على حكم المواطنين الأحرار المباشر وإدارة شؤونهم من خلال مجلس الشيوخ الشهير.

2- أو الأوليغارشية : oligarchie نظام سياسي عرف في العصر الإغريقي القديم خاصة في مدن طيبة وإسبرطة ثم أثينا وذلك في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. وينفرد هذا النظام بكونه يجمّع كافة السلطات بين أيدي أقلية تمتلك الأراضي والثروات. ويرادف في معناه غالباً الاستبداد والحكم المطلق .

3- إن هذا التحوّل الهامّ جاء في الحقيقة مع الثورة الفرنسية التي رفعت شعار : أخوة- مساواة- حرية ، فكان ذلك فتحاً جديداً أرسى دعائم حقوق الإنسان بشكل غير مسبوق .

فَحِينَ دَخَلَتْ الْبَشَرِيَّةُ فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ وَعَلَاقَاتٍ جَدِيدَةٍ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، اسْتَقَتْ ذَلِكَ الْعُنْصُرَ الْقِيَمِيَّ الْعَامَّ فِي الْعَدَالَةِ الْمُتَمَثِّلِ فِي الْأُخُوَّةِ، ثُمَّ طَوَّرَتْهُ وَزَادَتْهُ ثَرَاءً بِمَا يَتَنَاسَبُ كَذَلِكَ وَاجِبَ الِارْتِفَاعِ بِالْمُسْتَوَى الْإِنْسَانِيِّ الْعَامِّ لِلْجَمِيعِ، مَعَ كُلِّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ نَتَائِجَ [1].

لَكِنْ لَمَّا بَدَا لِلْأَجْيَالِ اللَّاحِقَةِ، وَمِنْ خِلَالِ مُمَارَسَتِهَا لِحَيَاتِهَا وَلِلْمَفَاهِيمِ الْجَدِيدَةِ، أَنَّ ذَلِكَ الْفَهْمَ لِلْمُسَاوَاةِ لَا يُحَقِّقُ عَلَى الْمُسْتَوَى الْإِنْسَانِيِّ الْعَمَلِيِّ مَا يَتَّفِقُ مَعَ دَلَالَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ، لِأَنَّهُ أَغْفَلَ وَضْعَ الشُّرُوطِ الْكَفِيلَةِ بِتَحْقِيقِهِ، طَوَّرَتْ ذَلِكَ الْفَهْمَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَحْقِيقِ الشُّرُوطِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ الْمُسَاوَاةِ مُسَاوَاةً إِنْسَانِيَّةً حَقِيقِيَّةً. فَالْحُقُوقُ وَالْوَاجِبَاتُ الْمَذْكُورَةُ لَا تَتَحَقَّقُ فِي الْفَرَاغِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى وُجُودِ شُرُوطٍ مَادِّيَّةٍ مُتَسَاوِيَةٍ بَيْنَ النَّاسِ لِكَيْ تَقُومَ بَيْنَهُمُ الْمُسَاوَاةُ الْمَذْكُورَةُ. وَلِذَلِكَ طُرِحَتْ فِكْرَةُ الْعَدَالَةِ فِي تَوْزِيعِ الثَّرْوَةِ [2] كَشَرْطٍ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الْمُسَاوَاةِ » . [3]

حامد خليل [4]

أسئلة :

1 – لخّص بأمانة مفهوم العدالة الذي كان سائداً في العصور القديمة، كما عرضه صاحب النص في الفقرتين الأولى والثانية .

2 – بيّنْ بدقّة، من النص، أبعاد التطور الذي طرأ على هذا المفهوم في العصر الحديث .

3 – حرّرْ فقرة تعرض فيها تصوّرك لكيفية تحقيق العدالة الاقتصادية، معلّلا ذلك بأدلة و شواهد من التاريخ و من الواقع .

---

[1]- ومن هذه النتائج ما يتعلق بالتنظيم الاجتماعي والارتقاء بالممارسة القانونية والسياسية على وجه الإجمال والتي يتصدرها : واجب احترام القانون، و واجب العمل، و واجب الانتخاب ، و واجب الدفاع عن الوطن وأداء واجب الخدمة له في وقت السلم والحرب ، فضلا عن واجبات مدنية أخرى .

[2]- وهذا معنى العدالة والمساواة من الوجهة الاقتصادية كما عبر عنها و دعا إليها كافة منظري الاشتراكية من سان سيمون إلى إنغلز وماركس .

[3] – د. حامد خليل ، مشكلات فلسفية ، المطبعة الجديدة ، دمشق 1984، ص ، (350 – 351 – 352) .

[4]- سبق التعريف به في موضع آخر (أنظر النص رقم : 29) .



36 ـ شرط السياسة مكارم الأخلاق

[كَيفَ نُثبتُ أنَّ المُمارَسَةَ السِّيَاسيَّةَ تقُومُ بِطَبيعَتها على الأَخْلاقِ و رِعايَةِ المَصالِحِ؟]

«لَمَّا كَانَ المُلْكُ طَبيعيًا للإِنْسَانِ لِمَا فيه مِنْ طَبيعَةِ الاجْتماعِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى الخيْرِ مِنْ خِلاَلِ الشَّرِّ بأَصْلِ فِطْرَتِه وَقُوَّتِه النَّاطِقَةِ العَاقِلَةِ، لأَنَّ الشَّرَّ إِنَّما جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ القُوَى الحيَوَانيَّةِ الَّتي فِيه، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الخيْرِ وَخِلاَلِه أَقْرَبُ [2]. وَالمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ، لأَنهُمَا للإِنْسَانِ خَاصَّةً لاَ لِلْحَيَوَانِ، فَإِذَنْ، خِلاَلُ [1] الخيْرِ فيه هِيَ الَّتي تُناسِبُ السِّيَاسَةَ وَالمُلْكَ، إِذِ الخيْرُ هُوَ المنَاسِبُ لِلسِّيَاسَةِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ المجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْه، وَتَتَحقَّقُ به حَقيقَتُهُ، وَهُوَ العَصَبيَّةُ [3] وَالعَشيرُ وَفَرْعٌ يُتَمِّمُ وُجُودَهُ وَيُكَمِّلُهُ وَهُوَ الخِلاَلُ. وَإِذَا كَانَ المُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبيَّةِ، فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الخِلاَلُ، لأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مُتَمِّمَاتِه كَوُجودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الأَعْضَاءِ [...]. وَإِذَا كَانَ وُجُودُ العَصَبيَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ انْتحَالِ [4] الخِلاَلِ الحميدَةِ نَقْصًا في أَهْلِ البُيُوتِ وَالأَحْسَابِ، فَمَا ظَنُّكَ بأَهْلِ المُلْكِ الَّذي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ، وَنِهَايَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ.

وَأَيْضًا فَالسِّيَاسَةُ وَالمُلْكُ هِيَ كَفَالَةٌ لِلْخَلْقِ بالخيْرِ [...] وَمُرَاعَاةِ المصَالحِ [5]، وَهَذَا البُرْهَانُ أَوْثَقُ منَ الأَوَّلِ ، وَأَصَحُّ مَبْنًى؛ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلاَلَ الخيْرِ شَاهِدَةٌ بوُجُودِ المُلْكِ لِمَنْ وُجِدَتْ لَهُ العَصَبيَّةُ، فَإِذَا نَظَرْنَا في أَهْلِ العَصَبيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الغَلَبِ [6] عَلَى كَثيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالأُمَمِ ، فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ في الخيْرِ وَخِلاَلِه مِنَ الكَرَمِ ، وَالعَفْوِ عَنِ الزَّلاَّتِ، وَالاحْتمَالِ

---

[1]. الخلال جمع خلة هي الخصال والشيم والسجايا والصفات الخلقية .

[2]. هذه الفكرة يطوّرها فيما بعد (جان جاك روسو) حين يصرّح قائلا : « إن الإنسان خيّر بطبعه » .

[3]. إن مفهوم العصبية عند ابن خلدون اكتسى معان كثيرة بحسب توظيفاته في المقدمة ؛ لكن أقربها إلى الواقع– بحسب أكثر المحققين– ما يفيد العقيدة السياسية (أو الإيديولوجيا في المصطلح الحديث) .

[4]. انتحال = اعتماد واتخاذ .

[5]. الخلق = هنا هم المواطنون داخل الدولة، ورعاية مصالحهم = أي تصريف شؤون حياتهم اليومية .

[6]. الغلب = الفوز والنصر في معركة أو غزو أو منافسة أو نحو ذلك .

مِنْ غَيْرِ القَادِرِ، وَالقِرَى لِلضُّيُوفِ [1]، وَحَمْلِ الكُلِّ، وَكَسْبِ المُعْدَمِ وَالصَّبْرِ عَلَى المَكَارِهِ، وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ، وَبَذْلِ الأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الأَعْرَاضِ، وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ، وَإِجْلَالِ العُلَمَاءِ الحَامِلِينَ لَهَا، وَالوُقُوفِ عِنْدَ مَا يُحَدِّدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ، وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ، وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ، وَالحَيَاءِ مِنَ الأَكَابِرِ وَالمَشَايِخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَ إِجْلَالِهِمْ، وَالانْقِيَادِ [2] إِلَى الحَقِّ مَعَ الدَّاعِي إِلَيْهِ، وَإِنْصَافِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَالتَّبَذُّلِ [3] فِي أَحْوَالِهِمْ، وَالتَّوَاضُعِ لِلْمِسْكِينِ، وَاسْتِمَاعِ شَكْوَى المُسْتَغِيثِينَ، وَالتَّدَيُّنِ بِالشَّرَائِعِ وَالعِبَادَاتِ، وَالقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا، وَالتَّجَافِي [4] عَنِ الغَدْرِ وَالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ، وَنَقْضِ العَهْدِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ؛ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ، وَاسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى العُمُومِ». [5]

عبدالرحمن بن خلدون [6]

أسئلة:

1 – اِشرحْ شرحاً موجزاً منطوق المبدأ الفلسفي الذي بنى عليه ابن خلدون تصوره للعلاقة بين الأخلاق والممارسة السياسية.

2 – بيِّنْ، انطلاقا من النص، كيف أن الأخلاق تمثل شرطاً ضروريا لكل عقيدة سياسية أو عصبية ؟

3 – أُرسمْ جدولا من خانتين تضع في الأولي ما ذُكر في النص من صفات أخلاقية واجبة سياسيا، واجتهدْ في أن تُضمّن الثانية ما تراه من صفات تناقضها بوصفها منبوذة سياسياً.

---

1. القرى للضيوف = أي حسن استقبالهم وإكرام مثواهم وضمان طيب استقرارهم.
2. الانقياد = الخضوع والاتباع.
3. التبذّل = من البذل أي المنح والعطاء.
4. التجافي = البعد والتجنب والتحاشي.
5. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ، الكتاب الأول، الباب الأول، الفصل العشرون، ص، (142– 143) بتصرف.
6. هو مؤرخ وفيلسوف تاريخ إسلامي شهير، تعود إليه الريادة في تاسيس علم الاجتماع(علم العمران عنده). وُلد بتونس في عام 1332م؛ عُين واليا ثم وزيرا، ورحل إلى مصر اين تولى القضاء المالكي. ويعدُّ نابغة حصيف الرأي؛ فقد كان باحثا مدققا، بعيد الملاحظة، ذا نزعة علمية متقدمة على عصره. وتعتبر «المقدمة» بحق خزانة لعلوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والادب. وقد توفي العلامة ابن خلدون بالقاهرة عام 1406م.

37 - السلطان والأخلاق

[كَيْفَ نَعْتَبِرُ الطُّمُوحَ إلى السُّلْطَةِ أمْراً مَشْروعاً طالما لم تَكُنْ السُّلطَةُ غايَةً في ذاتِها ؟]

« تَعَشُّقُ السُّلْطَانِ [1] في مَعْنَاهُ الشَّامِلِ، هُوَ الرَّغْبَةُ في التَّمَكُّنِ مِنْ إِحْدَاثِ التَّأْثِيرَاتِ المَقْصُودَةِ عَلَى العَالَمِ الخَارِجِيِّ، سَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا العَالَمُ إِنْسَانِيًا أَوْ غَيْرَ إِنْسَانِيٍّ. وَهَذِهِ الرَّغْبَةُ جُزْءٌ حَيَوِيٌّ مِنَ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ [2]. وَتُوَلِّدُ كُلُّ رَغْبَةٍ، لاَ يَسْتَطِيعُ المَرْءُ تَحْقِيقَهَا فَوْرًا، المَيْلَ إِلَى الطَّاقَةِ عَلَى تَحْقِيقِهَا، وَهَذَا يَعْنِي تَوَلُّدَ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ تَعَشُّقِ السُّلْطَانِ عِنْدَهُ. وَيَصْدُقُ هَذَا القَوْلُ عَلَى أَحْسَنِ الرَّغَبَاتِ وَأَسْوَئِهَا عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَإِذَا كُنْتَ تُحِبُّ جَارَكَ ، فَإِنَّكَ تَمِيلُ إِلَى السُّلْطَانِ لِتَأْتِيَ لَهُ بِالسَّعَادَةِ. وَلِذَا فَإِنَّ اسْتِنْكَارَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ تَعَشُّقِ السُّلْطَانِ يَعْنِي اسْتِنْكَارَ حُبِّ الإِنْسَانِ لِجَارِهِ [3] [...] .

وَإِذَا كَانَ المَطْلُوبُ مِنْ تَعَشُّقِ السُّلْطَانِ أَنْ يَكُونَ عَمَلاً خَيِّرًا، فَمِنَ الوَاجِبِ أَنْ يَرْتَبِطَ بِغَايَةٍ ، وَهِيَ غَيْرُ السُّلْطَانِ نَفْسِهِ . وَأَنَا لاَ أَعْنِي أَبَدًا أَنَّ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ لاَ يَكُونَ هُنَاكَ تَعَشُّقٌ لِلسُّلْطَانِ، وَذَلِكَ لأَنَّ الحافِزَ لاَبُدَّ من أَنْ يَنْشَأَ في سَيْرِ حَيَاةٍ مَلِيئَةٍ بِالنَّشَاطِ، وَلَكِنَّنِي أَعْنِي أَنَّ الرَّغْبَةَ في غَايَةٍ أُخْرَى مُعَيَّنَةٍ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَى نحوٍ مِنَ القُوَّةِ بحيْثُ يُصْبِحُ السُّلْطَانُ غَيْرَ مُرْضٍ إِلاَّ إِذَا آزَرَ في تَحْقِيقِ هَذِهِ الغَايَةِ .

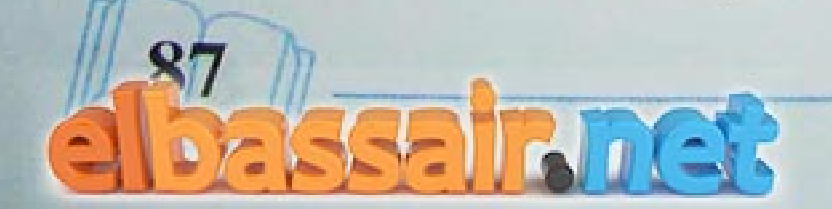
وَلاَ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ هَدَفٌ آخَرُ غَيْرُ السُّلْطَانِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الهَدَفُ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي إِذَا تَحَقَّقَ، سَاعَدَ عَلَى إِرْضَاءِ رَغَبَاتِ الآخَرِينَ . فَإِذَا كُنْتَ تَسْتَهْدِفُ الاكْتِشَافَاتِ، أَوِ الخَلْقَ الفَنِّيَّ، أَوِ اخْتِرَاعَ آلَةٍ تُوَفِّرُ العَمَلَ، أَوْ إِصْلاَحَ ذَاتِ البَيْنِ بَيْنَ جَمَاعَاتٍ كَانَتْ إِلَى

---

[1]- أي الرغبة الجامحة التي تدفع إلى السعي وراء السلطة والتحكم في الآخرين بشكل عام .

[2]- قد تؤخذ « الطبيعة البشرية » هنا بمعنى بيولوجي ؛ أي الميل الفطري إلى السطوة والتفوق والغلبة .

[3]- إن الرغبة في التحكم وممارسة السلطة ليست منبوذة في ذاتها ، ولكن الغاية المرسومة لها سلفاً هي التي تحدّد لها قيمتها من الوجهة الأخلاقية ؛ بدليل أنها إذا ما ارتبطت بالصالح العام كانت محمودة .



ذَلِكَ الحِينِ في حَالَةٍ مِنَ العَدَاءِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ، فَإِنَّ نَجَاحَكَ، إِذَا قُدِّرَ لَكَ أَنْ تَنْجَحَ، قَدْ يَكُونُ سَبَباً في إِرْضَاءِ آخَرِينَ بِالإِضَافَةِ إِلَى إِرْضَائِكَ نَفْسَكَ. وَهَذَا هُوَ الشَّرْطُ الَّذِي يَتَحَتَّمُ عَلَى تَعَشُّقِ السُّلْطَانِ تَحْقِيقُهُ، إِذَا كَانَ المَقْصُودُ أَنْ يَرْتَبِطَ مَعَ هَدَفٍ آخَرَ يَكُونُ مُنْسَجِماً مَعَ رَغَبَاتِ النَّاسِ الآخَرِينَ الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ إِذَا مَا تَحَقَّقَ الهَدَفُ». [1]

برتراند راسل [2]

أسئلة :

1 – أعطى صاحب النص مفهوماً واسعاً للسلطة رابطاً إيّاه بالطبيعة البشرية . أوضح ذلك .

2 – أجبْ ، انطلاقاً من النص، عن هذا السؤال : ما غاية السلطة إذا لم تكن هي ذاتها غاية ؟

3 – بيّنْ، من النص، الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية التي وُجدت من أجلها السلطة .



---

1. برتراند راسل ، السلطان ، ترجمة / خيري حماد ، ط1، دار الطليعة ، بيروت 62 ، ص، (296 ، 297).

2. Bertrand Russell هو فيلسوف ومنطقي بريطاني معاصر (1872– 1970)، ساهم في تطور المنطق الرياضي، ونال جائزة نوبل في الأدب عام 1950 . من مؤلفاته المعروفة : مبادئ الرياضيات ، قصة الفلسفة ، بحث في الرمز والحقيقة ، السلطان ، أفكاري الفلسفية ، بالإضافة إلى سيرة ذاتية .

38 ـ الوجه الإنساني للديمقراطية

[كَيْفَ تُشَكِّلُ قِيَمُ التَّعَاطُفِ والتَّضْحِيَةِ والتَّضامنِ أُسُساً لِبناءِ عَقْدٍ دِيمُقراطِيٍّ؟]

« عِنْدَمَا يَشْعُرُ النَّاسُ بِالتَّعَاطُفِ الطَّبِيعِيِّ إِزَاءَ آلاَمِ بَعْضِهِمُ البَعْضِ، فَإِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ رَوَابِطَ مَتِينَةً وَدَائِمَةً تَصِلُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلاَ تَدَعُ لِلشُّبُهَاتِ أَنْ تُفَرِّقَهُمْ ، وَأَنَّهُ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِمْ مَدُّ يَدِ المُسَاعَدَةِ كُلَّمَا اقْتَضَى الأَمْرُ ذَلِكَ [...] .

وَكُلُّ هَذَا لاَ يَتَعَارَضُ فِي شَيْءٍ مَعَ مَا ذَكَرْتُهُ عِنْدَ الحَدِيثِ عَنِ النَّزْعَةِ الفَرْدِيَّةِ، بَلْ إِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ الأَمْرَيْنِ يَأْتَلِفَانِ وَلاَ يَتَنَاقَضَانِ؛ ذَلِكَ أَنَّ تَكَافُؤَ الشُّرُوطِ الوَاحِدَةِ تَدْفَعُ النَّاسَ، فِي الآنِ نَفْسِهِ، إِلَى الإِحْسَاسِ بِاسْتِقْلاَلِيَّتِهِمْ كَمَا بِنِقَاطِ ضَعْفِهِمْ [1] ؛ إِنَّهُمْ أَحْرَارٌ، وَلَكِنَّهُمْ مُعَرَّضُونَ لآلاَفِ الحَوَادِثِ. وَالتَّجْرِبَةُ تَدُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ، وَإِنِ افْتَقَرُوا عَادَةً إِلَى دَافِعِ إِنْقَاذِ الغَيْرِ ، لاَ يَعْدِمُونَ القِيَامَ بِذَلِكَ فِي كُلِّ الأَوْقَاتِ. وَنحنُ نَرَى النَّاسَ المُزَاوِلِينَ لِلْمِهْنَةِ الوَاحِدَةِ دَائِمًا يَتَعَاوَنُونَ بِشَكْلٍ إِرَادِيٍّ؛ لأَنَّهُمْ جَمِيعًا مُعَرَّضُونَ لِلْمَخَاطِرِ نَفْسِهَا. وَهَذَا وَحْدَهُ كَافٍ لِجَعْلِهِمْ يَسْعَوْنَ إِلَى ضَمَانِ قَدْرٍ مِنَ التَّلاَحُمِ يَقْضِي عَلَى القَسْوَةِ وَالأَنَانِيَّةِ فِيهِمْ [2]. وَلَمَّا يَكُونُ أَحَدُهُمْ فِي مَأْزِقٍ، يُحَاوِلُ الآخَرُونَ التَّخْفِيفَ عَنْهُ بِتَضْحِيَةٍ عَارِضَةٍ أَوِ انْدِفَاعِيَّةٍ مُفَاجِئَةٍ. وَلاَ يَعْنِي ذَلِكَ بِالضَّرُورَةِ، أَنَّهُمْ يَهْتَمُّونَ بِمَصِيرِهِ، إِذْ سُرْعَانَ مَا يَعُودُونَ إِلَى شُؤُونِهِمِ الخَاصَّةِ عِنْدَمَا لاَ تُكَلَّلُ جُهُودُهُمْ بِالنَّجَاحِ، وَلَكِنْ يَظَلُّ شِبْهُ اتِّفَاقٍ ضِمْنِيٍّ قَائِمًا بَيْنَهُمْ،

مَفَادُهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الدَّعْمِ اللاَّزِمِ لِلْغَيْرِ فِي حَالَةِ الاقْتِضَاءِ، وَأَنَّ مِنْ حَقِّهِ هُوَ ذَاتُهُ المُطَالَبَةُ بِهِ فِي الشُّرُوطِ نَفْسِهَا.

---

[1]- ومن بين أسوأ نقاط ضعف الفرد حاجته الدائمة إلى مساعدة غيره له . وهو لوحده لا يستطيع تلبية احتياجاته الخاصة مهما تمتّعت فردانيته من القوة والتأثير .

[2]- وهذا من الأسباب التي عجّلت بظهور النقابات المهنية والجمعيات والمنظمات في العصر الحديث .

يُوجَدُ بِالفِعْلِ بَيْنَ مُوَاطِنِي النُّظُمِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ اتِّفَاقٌ تَعَاقُدِيٌّ يَتِمُّ بِمُوجِبِهِ تَحْوِيلُ الإِحْسَاسِ المُشْتَرَكِ بِالمَخَاطِرِ وَ أَسْبَابِ الضَّعْفِ، إِلَى قَانُونٍ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّعَاطُفِ وَالمَنْفَعَةِ لِصَالِحِ إِرْسَاءِ قِيَمِ المُسَاعَدَةِ وَالإِسْعَافِ وَالتَّضَامُنِ الاجْتِمَاعِيِّ. وَكُلَّمَا كَانَتْ شُرُوطُ [هَذِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ] مُتَمَاثِلَةً، أَحَسَّ الجَمِيعُ بِأَنَّ عَلَيْهِمْ وُجُوبًا، القِيَامَ بِهَذَا الإِجْرَاءِ» . [1]

آلكسيس دو توكفيل [2]

أسئلة :

1 – اِشرحْ طبيعة ودور التعاطف، كقيمة إنسانية سامية، في تدعيم الروابط بين الناس.

2 – استناداً إلى النص، هل ترى أن دوتوكفيل قد استطاع إزالة التعارض بين نزعة الفرد الطبيعية إلى الاستقلالية، والتضامن الاجتماعي الذي يبديه إزاء غيره؟

3 – اربطْ العلاقة السببية بين القيم المذكورة في النص وتأسيس النظام الديمقراطي.



[1] –Alexis de Tocqueville، De la démocratie en Amerique ، T2 ، p (233–234) ، ENAG / éditions ، 2ème édition 91.

[2] - Alexis de Tocqueville عالم اجتماع ومؤرخ فرنسي (1805– 1859)، عاصر التحول الكبير من الثورة الفرنسية إلى عودة الملكية . رحل إلى أمريكا وأعجب بنظامها السياسي، فألف حوله كتابه ذائع الصيت : الديمقراطية في أمريكا .





39 - الشعور الديمقراطي

[ما الّذي يُثْبتُ أنَّ الدِّيمُقْراطيَّة [1] تَقومُ على شُعُورٍ مُشْتَرَكٍ قِوامُهُ: مُعادَلَةُ الأنا والغَيْر، و وَسَطيّةُ الحُرّيَّةِ والالْتِزام ؟]

« يَنْبَغي عَلَيْنا في الوَاقِعِ أَنْ نُحَدِّدَ مَعْنَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ دُونَ رَبْطِهَا مُسْبَقًا بِأَيِّ مَفْهُومٍ آخَرَ، فَنَنْظُرَ إِلَيْهَا عَلَى أَعَمِّ وُجُوهِهَا، أَيْ فِي إِطَارِ عُمُومِيَّاتِهَا قَبْلَ أَنْ نَرْبِطَ المَوْضُوعَ بِأَيِّ مِقْيَاسٍ مُسْبَقٍ.

فَفِي مِثْلِ هَذَا الإِطَارِ، الَّذِي سَتَتَّضِحُ مُبَرِّرَاتُهُ فِيمَا بَعْدُ، يَجِبُ أَنْ نَعْتَبِرَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ مِنْ ثَلاثَةِ وُجُوهٍ: الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ كَشُعُورٍ نحوَ الأَنَا [2]، وَ نحوَ الآخَرِينَ، وَكَمَجْمُوعَةِ شُرُوطٍ لِتَنْمِيَةِ هَذَا الشُّعُورِ. فَهَذِهِ الوُجُوهُ تَتَضَمَّنُ بِالفِعْلِ مُقْتَضَيَاتِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ وَالمَوْضُوعِيَّةِ؛ أَيْ كُلَّ الاسْتِعْدَادَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الشُّعُورُ الدِّيمُقْرَاطِيُّ، وَالعُدَّةُ الَّتِي يَسْتَنِدُ عَلَيْهَا فِي المُجْتَمَعِ، فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ كَوَاقِعٍ سِيَاسِيٍّ إِنْ لَمْ تَكُنْ شُرُوطُهَا مُتَوَفِّرَةً فِي بِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ وَفِي العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ القَائِمَةِ، وَهَذِهِ الشُّرُوطُ لَيْسَتْ مِنْ وَضْعِ الطَّبِيعَةِ، وَلاَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ النِّظَامِ الطَّبِيعِيِّ، عَلَى خِلاَفِ مَا كَانَتْ تَتَصَوَّرُهُ الفَلْسَفَةُ الرُّومَانْطِيقِيَّةُ فِي عَهْدِ جَانْ جَاكْ رُوسُو [3]، بَلْ هِيَ خُلاَصَةُ ثَقَافَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَتَتْوِيجٌ لِحَرَكَةِ الإِنْسَانِيَّاتِ [4]، وَتَقْدِيرٌ جَدِيدٌ لِقِيمَةِ الإِنْسَانِ: تَقْدِيرُهُ لِنَفْسِهِ، وَتَقْدِيرُهُ لِلآخَرِينَ. فَالشُّعُورُ الدِّيمُقْرَاطِيُّ هُوَ نَتِيجَةٌ لِهَذِهِ الحَرَكَةِ عَبْرَ القُرُونِ، وَلِهَذَا التَّقْدِيرِ المُزْدَوَجِ لِقِيمَةِ الإِنْسَانِ.

وَالحَقِيقَةُ العَامَّةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشُّعُورِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ، مَهْمَا يَغْشَاهَا مِنْ قِلَّةِ وُضُوحٍ (حَيْثُ تَلْبَسُ هُنَا ظَوَاهِرَ التَّارِيخِ الغَرْبِيِّ وَخَصَائِصَهُ الَّتِي لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَكَرَّرَ فِي تَارِيخِ الأَجْنَاسِ وَالشُّعُوبِ الأُخْرَى)، [فَهِيَ أَنَّهَا] تَبْرُزُ رَغْمَ ذَلِكَ تَحْتَ هَذَا الغِلاَفِ الخَاصِّ، أَيْ عِنْدَمَا نُخَلِّصُ المَوْضُوعَ مِنْ قُيُودِ التَّارِيخِ وَالسِّيَاسَةِ، وَنُعَبِّرُ عَنِ الأَشْيَاءِ بِمُصْطَلَحِ عِلْمِ النَّفْسِ وَعِلْمِ الاجْتِمَاعِ [5].

1- من اليونانية القديمة: ديموس = شعب، و كراطوس = نظام حكم. فهي إذن: نظام حكم الشعب.

2- أي من منظور نفسي خالص.

3- J.J Rousseau (1712 – 1778) فيلسوف سويسري معروف بدعوته الإنسان إلى محبة الطبيعة انطلاقا من فطرة الخيرية المتأصلة فيه كعاطفة سامية؛ وهذه أول إرهاصة للرومانطيقية (أو الرومانسية) كمذهب في الفكر والأدب والفن، محاولا فيما بعد، تجاوز صرامة العقل وجفافه في المذهب الكلاسيكي.

4- أي التطور الذي شهدته دراسة الإنسان ضمن ما يعرف بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

5- بمعنى أن الديمقراطية كنتيجة من نتائج التاريخ السياسي تحمل سمات المجتمع الغربي الذي نشأت فيه، (وهي سمات قد لا تتكرر في زمان أو مكان آخرين)، ولكنها كشعور نفسي وكظاهرة اجتماعية ليست وقفا على هذا المجتمع بل تتسم بكونها إنسانية عامة.



إنَّ الشُّعُورَ الدِّيمُقْرَاطِيَّ في أُورُوبَا كَانَ النَّتِيجَةَ وَالمآلَ الطبيعيَّ لحَرَكَةِ الإِصْلاحِ وَالنَّهْضَةِ. فَهَذَا هُوَ مَعْنَاهُ التَّارِيخِيُّ الصَّحِيحُ، وَلَكِنَّ هَذَا المعْنى لاَ يَفْصِلُ عَنْ تَارِيخِ أُورُبَّا لِيُطَبَّقَ عَلَى أُمَمٍ أُخْرَى. وَلَكِنَّ القَانُونَ العَامَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طَبِيعَةِ الشُّعُورِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ، سَوَاءٌ في أُورُوبَا أَوْ في بَلَدٍ آخَرَ، هُوَ أَنَّ هَذَا الشُّعُورَ نَتِيجَةٌ لاطِّرَادٍ [1] اجْتِمَاعِيٍّ مُعَيَّنٍ: فَهُوَ بِالمصْطَلَحِ النَّفْسِيِّ، الحدُّ الوَسَطُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُمَثِّلُ نَقِيضًا بِالنِّسْبَةِ لِلآخَرِ: النَّقِيضَ المعَبِّرَ عَنْ نَفْسِيَّةِ وَشُعُورِ العَبْدِ المسْكِينِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالنَّقِيضَ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِيَّةِ وَشُعُورِ المسْتَعْبِدِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. فَالإِنْسَانُ «الحرُّ» [2]، أَيْ الإِنْسَانُ الجَدِيدُ الَّذِي تَتَمَثَّلُ فِيهِ قِيَمُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالْتِزَامَاتُهَا، هُوَ الحدُّ الإِيجَابِيُّ بَيْنَ نَافِيَتَيْنِ [3] تَنْفِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا هَذِهِ القِيَمَ وَتِلْكَ الالْتِزَامَاتِ». [4]

مالك بن نبي [5]

أسئلة:

1 – فرِّقْ، اعتمادا على النص، بين المعنى الخاص والمعنى العام للديمقراطية.

2 – حدِّدْ الشروط النفسية والاجتماعية للديمقراطية، كما وردت في النص، وعلِّقْ عليها.

3 – توسَّعْ في الفكرة التي مؤدّاها أن الشعور الديمقراطي هو بمثابة الحدِّ الإيجابي بين نافيتين تنفي كل منهما قيم الديمقراطية والتزاماتها.

---

[1] - المقصود بالاطراد هنا ليس الزيادة بل التوازن والتفاعل الإيجابي.

[2] - لاحظ كيف وضع هذا اللفظ بين هلالين دلالة على أنه لا يجب أن يفهم على وجهه المطلق بل النسبي.

[3] - وهما نافية شعور العبد، ونافية شعور المستعبد.

[4] - مالك بن نبي، تأملات، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ، ص (64–65–66) بتصرف.

[5] - هو مفكر جزائري معاصر (1905– 1973)، وُلد بقسنطينة وانتقلت أسرته إلى تبسة أين زاول تعليمه الابتدائي والإعدادي، ثم أنهى تعليمه (الفرنسي الإسلامي) واشتغل ابتداء من سنة 1925 كاتبا فمترجما، وواصل تعليمه في فرنسا وتخرج في عام 1935 مهندسا كهربائيا. شرع في التأليف سنة 1946 فانتج باكورة أعماله: الظاهرة القرآنية، وأتبعها بسلسلة من المؤلفات تتسم بعمق التحليل وسعة الاطلاع مثل: شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، تأملات، ميلاد مجتمع، ومذكرات شاهد القرن.



40 - الأسرة أساس الدولة الأخلاقي

[لِماذا نَعُدُّ الأُسْرَةَ المَنْبَعَ الأَساسِيَّ لِلْمُثُلِ والمَناقِبِ الأَخْلاقِيَّةِ السَائِدَةِ في الدَّوْلَةِ ؟]

«إِنَّ مَبْدَأَ تَطَوُّرِ العَلاَقَاتِ الأَخْلاَقِيَّةِ بِحَيْثُ تَتَحَوَّلُ إِلَى الشَّكْلِ القَانُونِيِّ لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ؛ فَنِظَامُ الأُبُوَّةِ (النِّظَامُ البَطْرِيرِكِيُّ) [1]، سَوَاءٌ مِنْ حَيْثُ صِلَتُهُ بِالجِنْسِ البَشَرِيِّ كَكُلٍّ، أَوْ بِالنِّسْبَةِ لِبَعْضِ أَفْرُعِ هَذَا الجِنْسِ، يُنْظَرُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الوَضْعُ الَّذِي يَتِمُّ الجَمْعُ فِيهِ بَيْنَ العُنْصُرِ القَانُونِيِّ وَبَيْنَ الاعْتِرَافِ الوَاجِبِ بِالجَوَانِبِ الأَخْلاَقِيَّةِ وَالانْفِعَالِيَّةِ فِي طَبِيعَتِنَا، وَالَّذِي تَرْتَبِطُ فِيهِ العَدَالَةُ بِهَذِهِ الجَوَانِبِ، وَتُؤَثِّرُ حَقًّا وَفِعْلاً فِي تَعَامُلِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ.

وَأَسَاسُ هَذَا الوَضْعِ الأَبَوِيِّ هُوَ العَلاَقَاتُ الأُسَرِيَّةُ الَّتِي تُطَوِّرُ الشَّكْلَ الأَوَّلِيَّ لِلأَخْلاَقِ الوَاعِيَةِ، الَّذِي يَتْلُوهُ الشَّكْلُ الثَّانِي وَهُوَ أَخْلاَقُ الدَّوْلَةِ. وَحَالَةُ النِّظَامِ الأَبَوِيِّ هِيَ إِحْدَى حَالاَتِ الانْتِقَالِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الأُسْرَةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِالفِعْلِ لِتَقُومَ بِدَوْرِ الجِنْسِ أَوِ الشَّعْبِ [2]، وَالَّتِي لاَ تَعُودُ فِيهَا الوَحْدَةُ، بِالتَّالِي، مُجَرَّدَ رَابِطَةِ حُبٍّ وَثِقَةٍ، بَلْ تُصْبِحُ رَابِطَةَ خِدْمَةٍ تَعَهُّدِيَّةٍ [3]. وَلاَ بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَفْحَصَ أَوَّلاً المَبْدَأَ الأَخْلاَقِيَّ لِلأُسْرَةِ [...].

إِنَّ أَفْرَادَ الأُسْرَةِ يَعِيشُونَ فِي وَحْدَةِ مَشَاعِرَ وَحُبٍّ وَثِقَةٍ وَإِيمَانِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ. وَفِي عَلاَقَةِ الحُبِّ الطَّبِيعِيِّ يَكُونُ لَدَى الفَرْدِ الوَاحِدِ وَعْيٌ بِنَفْسِهِ بِقَدْرِ وَعْيِهِ بِالآخَرِ؛ فَهُوَ يَعِيشُ خَارِجَ ذَاتِهِ. وَفِي إِنْكَارِ الذَّاتِ المُتَبَادَلِ هَذَا، يَظْفَرُ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنْ جَدِيدٍ بِالحَيَاةِ الَّتِي كَانَتْ قَدِ انْتَقَلَتْ بِالقُوَّةِ إِلَى الآخَرِ؛ وَالوَاقِعُ أَنَّهُ يَظْفَرُ بِوُجُودِ الآخَرِ وَوُجُودِهِ الخَاصِّ كَمَا هُوَ مُتَضَمَّنٌ

---

[1] ـ أو Patriarcat وهونظام اجتماعي للأسرة تكون فيه السلطة الاقتصادية والسياسية للرجل(أو الأب وحينئذ تسمى بالأسرة الأبيسية) . ويقابلها نظام Matriarcat (أو الأسرة الأميسية نسبة إلى الأم) .

[2] ـ و الظاهر أن هيغل يفضل هذا الشكل من أشكال الأسرة على غيره ، ويتعاطف معه .

[3] ـ أي تتحوّل من العلاقات العاطفية داخل الأسرة إلى العلاقات الواعية اجتماعيا واقتصاديا ، والتعاقدية قانونيا داخل الدولة .



في وُجودِ الآخرِ [1]. كذلكَ فإنَّ المصالحِ الأُخرى المرْتبطَةَ بالضَّروريّاتِ والاهْتمامَاتِ الخارجيَّةِ للْحياةِ، وكذلكَ النُّموَّ الذي ينْبغي أنْ يأخُذَ مكانَهُ في الأُسْرَةِ، أيْ نموَّ الأطْفالِ، كُلُّ هذا يُشكِّلُ هدفًا مُشْتركًا بيْنَ أعْضاءِ العائلَةِ. وهكذا تُشكِّلُ روحُ العائلَةِ وُجودًا جوْهريًا واحدًا مِثْلُها مِثْلُ روحِ الشَّعْبِ في الدَّوْلَةِ [2]؛ وفي كِلْتا الحالتَيْنِ تعْتمدُ الأخْلاقُ على شُعورٍ ووَعْيٍ وإرادةٍ ، ولاَ تكونُ قاصرةً على الشَّخصيَّةِ الفرْديَّةِ، أوِ المنْفعةِ الخاصَّةِ، بلْ تشْمَلُ المصالحَ المشْترَكَةَ للأفْرادِ بصفَةٍ عامَّةٍ. لكنَّ هذهِ الوحْدَةَ في حالَةِ العائلَةِ هيَ بالضَّرورةِ وحْدةُ شُعورٍ أوْ وجْدانٍ، لا يتعدَّى حُدودَ الحالَةِ الطَّبيعيَّةِ.

وينْبغي على الدَّوْلَةِ أنْ تحْترِمَ إلى أقْصى درَجةٍ علاقَةَ الوَلاءِ للأُسْرَةِ أوِ العائلَةِ؛ فعَنْ طريقِ هذا الوَلاءِ تكْتسبُ الدَّوْلَةُ أعْضاءً فيهَا منْ أفْرادٍ أصْبحُوا أخْلاقيِّينَ بالفعْلِ.

وهؤلاءِ الأفْرادُ حينَ يتَّحدُونَ ليُكوِّنُوا دوْلَةً يجْلبُونَ معَهُمْ ذلكَ الأساسَ السَّليمَ لصَرْحِ الحياةِ السِّياسيَّةِ؛ وهُوَ القُدْرةُ على الشُّعورِ بالتَّوحُّدِ معَ الكُلِّ» [3].

فريديريك هيغل [4]

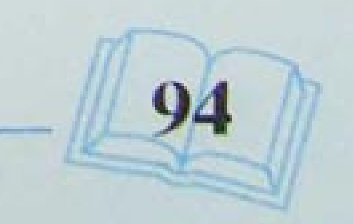
---

[1]- يركز هيغل على قيمة هذه العواطف الأسرية التي يعتبرها طبيعية في الإنسان ، بخلاف المجتمع اللامدني الذي لا تسوده دولة ؛ فإنه ينضح بالعدوان والصراع والمظالم . والدولة إذن هي بمثابة مركب لهذين النقيضين من حيث إنها تحاول دائما أن تعوض الفرد ما افتقده إثر انفصاله عن محيطه الأصلي ؛ أي الأسرة ، وذلك من خلال الرعاية التي تكفلها له . وهو لون آخر من ألوان الجدلية الهيغلية .

[2]-إن هذا التشبيه يعكس بشدّة الفكر المثالي في فلسفة هيغل ، فهو يتمثل الدولة حامية لحمى الفرد لا تظلمه ولا تهضم حقوقه، تحقق له مطالبه وتلبي له حاجاته ، تماما كما هو الشأن في الأسرة .

[3] .هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ ، ترجمة/ إمام عبد الفتاح إمام ، ج1، دار الثقافة ، بدون طبعة ، القاهرة 1986، ص ، (113– 114) بتصرف.

[4].G-W-Frederick Hegel هو فيلسوف مثالي ألماني (1770– 1831)، من أكبر العقول التي أثرت في فلسفة القرن التاسع عشر. أسس منهج الجدل، واهتم بفلسفة التاريخ والمنطق وعلم الجمال والسياسة والاجتماع والأخلاق والدين والميتافيزيقا . من مؤلفاته : فلسفة القانون ، علم الجمال ، فلسفة التاريخ ، وعلم ظواهر الفكر .



أسئلة :

1 – عرض هيغل لمزايا النظام الأسري البطريركي. اُذكرْها وبيّنْ صلتها بنظام الدولة أخلاقيا.

2 – تحدّث عن العواطف الإيجابية التي تؤثر في الفرد حسب النص .

3 – كيف ينتقل الفرد، على ضوء الأطروحة الواردة في النص، من الأسرة إلى الدولة بصورة سلسةٍ ومرنة ؟ و ما الذي على الدولة أن تقوم به من التزامات تجاه الأسرة في هذه الحالة ؟



41 - الأسرة والأمة والإنسانية

[إِذا سَلَّمْنا بِأَنَّ ثَمَّةَ رَابِطاً بِنائيّاً بَيْنَ الأُسْرَةِ و الأُمَّةِ والمُجْتَمَعِ الإِنْسانِيِّ ، فَكَيْفَ يَتوَجَّبُ تَحْوِيلُهُ إِلى رابِطٍ أَخْلاقِيٍّ في الأَسَاسِ ؟]

«يَمُتُّ [1] الفَرْدُ بِأَصْلِه إِلَى أُسْرَةٍ يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا، وَتَمُتُّ الأُسْرَةُ إِلَى مُجْتَمَعٍ تَعِيشُ فِيه نَدْعُوهُ الأُمَّةَ، وَتُؤَلِّفُ الأُمَّةُ جُزْءًا مِنْ مُجْتَمَعٍ أَوْسَعَ مِنْهَا بِكَثِيرٍ هُوَ المجْتَمَعُ الإِنْسَانِيُّ. وَهَكَذَا فَإِنَّ كُلَّ فَرْدٍ وَكُلَّ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَعِيشُونَ فِي هَذَا المجْتَمَعِ الوَاسِعِ الَّذِي يَضُمُّ كُلَّ كَائِنٍ عَاقِلٍ، فَهُنَاكَ وَاجِبَاتٌ عَامَّةٌ تَجْعَلُ الأَفْرَادَ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالأُمَمَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، مُلْزَمِينَ بِهَا تجَاهَ الإِنْسَانِيَّةِ .

إِنَّ المغَالَاةَ [2] فِي تَعَلُّقِ الفَرْدِ بِأُسْرَتِهِ قَدْ تَقُودُهُ إِلَى نِسْيَانِ وَاجِبَاتِهِ حِيَالَ [3] أُمَّتِه، وَأَنَّ وَرَاءَ دَائِرَةِ الأُسْرَةِ الضَّيِّقَةِ كَائِنَاتٌ لَهُمْ حَقٌّ بِرِعَايَتِنَا وَعِنَايَتِنَا. وَالمغَالَاةُ فِي حُبِّ الإِنْسَانِ لِوَطَنِهِ وَفِي التَّعَلُّقِ بِقَوْمِيَّتِهِ [4] قَدْ تَنْتَهِي بِهِ إِلَى نِسْيَانِ أَنَّ هُنَاكَ، فِي العَالَمِ الوَاسِعِ ، أَشْخَاصًا لهَمْ مِنَ الحقُوقِ مَا لَهُ. إِنَّنَا نَعْتَرِفُ لِمُوَاطِنِينَا بِحَقِّ الحيَاةِ ، وَلَكِنَّ الأَفْرَادَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي العَالَمِ الوَاسِعِ لهَمْ حَقُّ الحيَاةِ أَيْضًا، وَبِأَنَّ عَلَى مُوَاطِنِينَا وَاجِبَ التَّصَرُّفِ بِمَا تُوحِيهِ إِلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ، وَبِأَنْ يحَقِّقُوا الخيْرَ الأَخْلَاقِيَّ الَّذِي يَمْنَحُهُمْ مِنَ الكَرَامَةِ أَعْلَى دَرَجَاتِهَا. وَلَكِنَّ الأَفْرَادَ الآخَرِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي بِلَادٍ غَيْرِ بِلَادِنَا، عَلَيْهِمْ وَاجِبَاتٌ يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِهَا .

---

1. يمتُّ = يتصل ويرتبط .
2. المغالاة = المبالغة الشديدة .
3. حيال= تجاه ومقابل .
4. وهو ما يسمى في المصطلح السياسي بالشوفينية او (Chauvinisme) . واصل الكلمة ماخوذ من اسم جندي فرنسي يسمى Nicolas Chauvin كان متعصبا في حبه لنابوليون ولفرنسا الإمبراطورية إلى حدّ الجنون . ولكن المصطلح لم يدخل القاموس السياسي إلا في عام 1840 .

إِنَّ إِخْلَاصَهُمْ لِهَذِهِ الوَاجِبَاتِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُمْ جَدِيرِينَ بِالاحْتِرَامِ فِي نَظَرِ كُلِّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ مَهْمَا كَانَتْ دَرَجَةُ ثَقَافَتِهِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْنَا وَاجِبَاتٍ حِيَالَ الآخَرِينَ مِنْ غَيْرِ أُمَّتِنَا ، وَأَنَّ أُمَّتَنَا عَلَيْهَا وَاجِبَاتٌ أَيْضًا حِيَالَ الأُمَمِ الأُخْرَى الَّتِي تَشْتَرِكُ مَعَهَا فِي الإِنْسَانِيَّةِ [1]. وَبِمَا أَنَّنَا رَأَيْنَا العَلَاقَاتِ الأَخْلَاقِيَّةَ بَيْنَ الأَفْرَادِ، فَإِنَّهُ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَرَاهَا بَيْنَ الأُمَمِ ، أَوِ الدُّوَلِ المُمَثِّلَةِ لِهَذِهِ الأُمَمِ [...] .

إِذَنْ، فَقِيَامُ عَلَاقَاتٍ أَخْلَاقِيَّةٍ بَيْنَ الدُّوَلِ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِتَحْقِيقِ خَيْرِ الإِنْسَانِيَّةِ وَسَعَادَتِهَا. وَهُنَا نُلَاحِظُ أَنَّ القَوَاعِدَ الَّتِي تَتَحَكَّمُ بِاحْتِرَامِ الأَفْرَادِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَبِالبِرِّ بِالوَعْدِ الَّذِي يَقْطَعُهُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ... إلخ، هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَتَحَكَّمَ أَيْضًا فِي العَلَاقَاتِ القَائِمَةِ بَيْنَ الأُمَمِ . وَلِهَذَا، فَإِنَّ أَقْصَى مَا يَتَمَنَّاهُ الإِنْسَانُ أَنْ يَنْشَأَ نِظَامٌ مِنَ الحَقِّ؛ أَيْ نِظَامٌ قَانُونِيٌّ يُنَظِّمُ عَلَاقَاتِ الأُمَمِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ [2]؛ إِذْ أَنَّ فُقْدَانَ هَذَا النِّظَامِ القَانُونِيِّ إِنَّمَا يَعْنِي فِي خَاتِمَةِ المَطَافِ إِحْلَالَ الحَرْبِ مَكَانَ السِّلْمِ، وَجَعْلَ القُوَّةِ وَحْدَهَا هِيَ الحَكَمُ الأَخِيرُ بَيْنَ الأُمَمِ . وَهَذَا مَا حَدَثَ خِلَالَ التَّارِيخِ وَمَا يَحْدُثُ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا لِلأَسَفِ [3]» . [4]

تيسير شيخ الأرض [5]

---

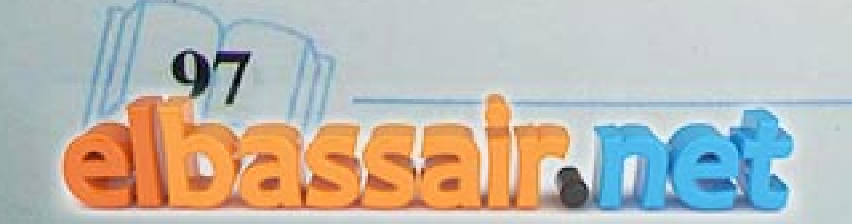
[1] - يُشترط فقط في هذه الواجبات المتبادلة أن تكون منزهة عن الأغراض مهما كانت طبيعتها ؛ يقول كانط (1724–1804) في بيان واحد من الأوامر القطعية الصادرة عن الواجب الأخلاقي : «إعمل كما لو أنك ترى الإنسانية، ممثلة في نفسك وفي غيرك ، غاية لا وسيلة .»

[2] - مواثيق الأمم المتحدة وقوانين حقوق الإنسان، (وخاصة الإعلان العالمي الصادر في أعقاب الحرب الكونية الثانية)، تندرج كلها ضمن محاولات الإنسانية المتواصلة لإقامة العلاقات السياسية الدولية على أسس أخلاقية في المقام الأول .

[3] - في ذلك إشارة إلى ما يجري في عصرنا الراهن من عدوان وانتهاك لحقوق الإنسان في العالم .

[4] - تيسير شيخ الأرض ، مبادىء الفلسفة ، مطابع ألف باء- الأديب ، بدون طبعة ، دمشق 1969، ص ، (187–188) .

[5] - سبق التعريف به في موضع آخر(أنظر النص رقم : 25) .



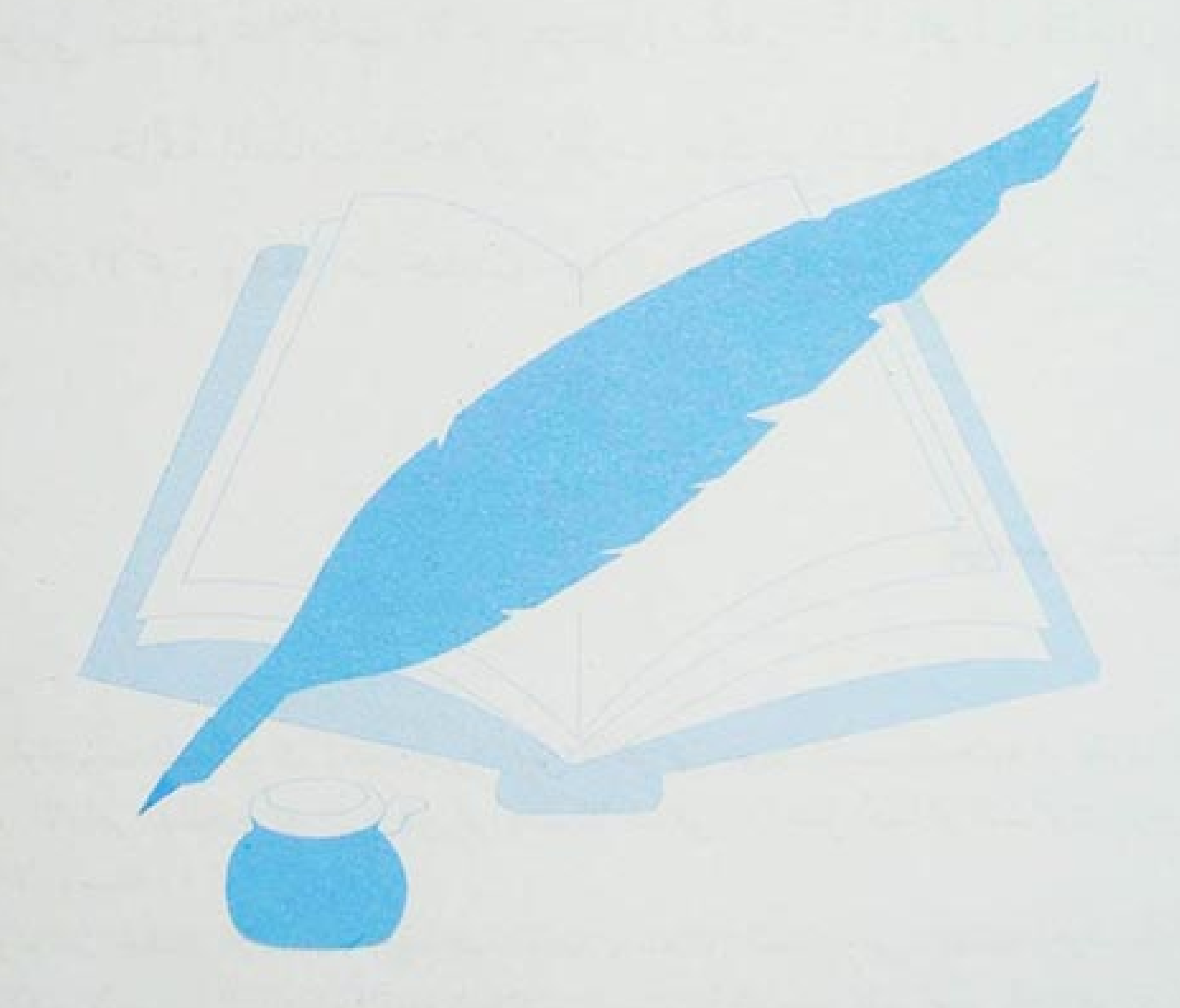
أسئلة :

1 ـ عدِّدْ مخاطر الانكفاء على الذات وعدم التفتح على الأمم الأخرى كما عرضت في النص.

2 ـ بيِّنْ، من النص، طبيعة الالتزامات الأخلاقية بين الدول، ونتائج الإخلال بها .

3 ـ كيف يمكن تعميم الأخلاق القائمة بين الأفراد إلى أن تصبح قائمة بين الدول والأمم ؟

4 ـ أُرسمْ دوائر ترمز إلى مواقع الأسر داخل دوائر أكبر هي الأمم، وارسم هذه الأخيرة بمكوناتها ضمن دائرة واحدة كبرى هي المجتمع الإنساني. ثم لاحظ واستنتج .



42 - القيمة الأخلاقية للعمل

[كَيفَ تجاوَزَ مَفْهومُ العَمَلِ رَواسِبَ التَّحْقيرِ التَّاريخيَّة ، فَأَصْبَحَ قِيمَةً إِنْسانيَّةً مُنتِجَةً ، وإنجازًا أَخْلاقيًا سامِيًا ؟]

«إِنَّ حَقَّ العَمَلِ يَعْكِسُ تَحَوُّلَ قِيمَةِ العَمَلِ فِي العَصْرِ الحَديثِ إِلى قِيمَةٍ جَوْهَرِيَّةٍ فِي حَياةِ الإِنْسانِ بَعْدَ أَنْ كانَ عَلامَةً إِنْسانيَّةً مُخَفَّضَةً، وَقِسْمَةً لِلْعامَّةِ وَالعَبيدِ، وَأَمْرًا لا يُشَرِّفُ صاحِبَهُ .

وَقَدْ حَدَثَ التَّحَوُّلُ الكَبيرُ لَدى انهيارِ الإِقْطاعِ [1] وَظُهورِ طَبَقَةٍ تَقومُ ثَرْوَتُها عَلى نَوْعٍ مِنَ العَمَلِ الصِّناعيِّ أَوِ التِّجاريِّ أَوِ المِهَنيِّ أَوِ الفِكْريِّ . وَلَكِنْ ظَلَّتِ الرَّواسِبُ الإِقْطاعِيَّةُ تُلَوِّنُ القِيَمَ المُتَّصِلَةَ بِالعَمَلِ ، وَلَعَلَّها ما زالَتْ حَتَّى يَوْمِنا هَذا تُمارِسُ أَثَرَها، وَلَيْسَ العَهْدُ بِبَعيدٍ بِصُورَةِ العَمَلِ الَّذي لا يَكْتَسِبُ شَرَفًا إِلاَّ إِذا اقْتَرَنَ بِالسِّيادَةِ وَالتَّرَفُّعِ . وَكانَ هَذا مَسْؤُولاً عَنْ ظُهورِ قِيَمٍ تَحْتَقِرُ العَمَلَ اليَدَوِيَّ الَّذي لا يَعْكِسُ السِّيادَةَ، وَتُمَجِّدُ العَمَلَ مِنْ وَراءِ مَكْتَبٍ تُحيطُهُ هالَةُ السُّلْطَةِ [2]، وَفيهِ الفاصِلُ بَيْنَ الإِنْسانِ وَ مُواطِنيهِ، وَالعُزْلَةُ الَّتي تُؤَكِّدُها القِيَمُ الإِقْطاعِيَّةُ بَيْنَ المُواطِنِ وَحاكِميهِ .

كانَ المُوَظَّفُ شَيْئًا غَيْرَ العامِلِ، شَيْئًا يَنْتَمي إِلى الحاكِمِ لا المَحْكومِ . وَكانَتِ الوَظيفَةُ طَريقًا إِلى التَّعالي لا إِلى الخِدْمَةِ العامَّةِ، وَكانَ الارْتِزاقُ عَنْ طَريقِ العَمَلِ، أَيًّا كانَ، يَضَعُ صاحِبَهُ في دَرَجَةٍ أَقَلَّ مِنَ السُّلَّمِ الاجْتِماعيِّ الَّذي يَتَسَنَّمُهُ المَرْزوقونَ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنْ أَبْناءِ الذَّواتِ [3] وَأَصْحابِ الأَراضي وَالعَقاراتِ [...] .

وَسَوْفَ تَظَلُّ هَذِهِ التَّفْرِقَةُ قائِمَةً إِلى زَمَنٍ طَويلٍ، حَتَّى يُصْبِحَ العَمَلُ اليَدَوِيُّ واجِبًا عَلى الجَميعِ بِما في ذَلِكَ المُشْتَغِلينَ بِالعَمَلِ الفِكْريِّ، وَحَتَّى يَكْسِبَ العَمَلُ اليَدَوِيُّ تَقْديرًا عامًّا يُحْدِثُ التَّغَيُّرَ القِيَمِيَّ الاجْتِماعِيَّ المَطْلوبَ؛ وَيَعْني ذَلِكَ الْتِزامَ الدَّوْلَةِ بِتَوْفيرِ العَمَلِ المُلائِمِ لِلْمُواطِنينَ،

1- الإقطاع (أو Féodalisme)، هو واحد من النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في العصر الوسيط ، لما تبوأت طبقة النبلاء الأرستقراطيين الحكم عن طريق تملك أراض وإقطاعيات .

2- أي يتوفر على قدر كبير من النفوذ ، خاصة إذا كان على شكل منصب أو وظيفة سياسية .

3- أبناء الذوات = أبناء الأثرياء وأصحاب الجاه ورجال السلطة المتنفذين .



وَيَعْنِي فَوْقَ ذَلِكَ كُلَّ الحُقُوقِ الفَرْعِيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِذَلِكَ؛ كَالْحَقِّ فِي الأَجْرِ المُلائِمِ لِطَبِيعَةِ العَمَلِ وَكَمِيَّتِهِ وَحَقِّ الرَّاحَةِ وَالإِجَازَاتِ وَتَوَافُرِ الشُّرُوطِ الصِّحِّيَّةِ بِمَكَانِ العَمَلِ [...] .

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الثَّوْرَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ، تِلْكَ الرِّحْلَةَ بَيْنَ الفَرْدِيَّةِ وَالجَمَاعِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ انْتِقَالَ انْفِعَالِ السَّعَادَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالثِّقَةِ مِنَ الإِنْجَازِ الفَرْدِيِّ إِلَى الإِنْجَازِ الجَمَاعِيِّ؛ وَهُوَ انْتِقَالٌ هَائِلٌ لأَنَّهُ يُمَثِّلُ خُطْوَةً بَشَرِيَّةً تَكَادُ تَكُونُ نَوْعِيَّةً تَنْقُلُ الإِنْسَانَ إِلَى إِنْسَانٍ جَدِيدٍ، مِنَ الارْتِكَازِ عَلَى الغَرَائِزِ الفَرْدِيَّةِ إِلَى الارْتِكَازِ عَلَى غَرِيزَتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. وَالإِنْجَازُ يَعْنِي الإِنْتَاجَ، وَالإِنْتَاجُ عَمَلِيَّةٌ اسْتِثْمَارِيَّةٌ [1] يَدِينُ لَهَا الإِنْسَانُ بِوُجُودِهِ وَتَفَوُّقِهِ عَلَى الكَائِنَاتِ . وَمِنْ ثَمَّةَ أَصْبَحَتِ الإِنْسَانِيَّةُ وَالإِنْتَاجُ صِنْوَيْنِ [2]، وَأَصْبَحَ المُجْتَمَعُ المُنْتِجُ هُوَ المُجْتَمَعُ المُتَطَوِّرُ الَّذِي يَرْتَقِي، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ يَمْلِكُ وَسَائِلَ الارْتِقَاءِ، وَأَصْبَحَتْ مَعْرَكَةُ البَشَرِيَّةِ مَعْرَكَةَ إِنْتَاجٍ. وَلَعَلَّهُ مِنْ هُنَا كَانَتْ لِلْعَمَلِ قِيمَةٌ رَفِيعَةٌ"؛ وَالعَمَلُ إِنْ كَانَ يَبْدَأُ حَقًّا فَإِنَّهُ يَنْتَهِي وَاجِبًا [3]. وَهُوَ لَيْسَ مُجَرَّدَ حَرَكَةٍ أَوْ جُهْدٍ، بَلْ تَحَرُّكٌ نَحْوَ هَدَفٍ يَخْدُمُهُ هَذَا العَمَلُ » . [4]

أحمد محمد خليفة [5]

أسئلة :

1 – استخلصْ من النص أبرز الجوانب السلبية التي طبعت وضعية العمل في العصور الغابرة .

2 – اشرحْ مظاهر التحول في مفهوم العمل تزامنا مع التطورات القانونية والاجتماعية الحديثة.

3 – تأمّلْ وأجبْ : «العمل إنْ كان يبدأ حقّاً فإنه ينتهي واجباً». في رأيك ؛ كيف يتسنّى للعمل أن يجسّد هذا المسار في الواقع ؟

---

[1]. استثمارية = منتجة ومربحة .

[2]. صنوين = متشابهين ومتماثلين .

[3]. ومن هنا فإن كل التشريعات العالمية ودساتير الدول تعتبر العمل حقًا و واجبا في نفس الوقت .

[4]. د. أحمد محمد خليفة ، في المسألة الاجتماعية، دار المعارف، بدون طبعة ، القاهرة 1970. ص ، (68 – 69) .

[5]. هو باحث أكاديمي عربي معاصر ، متخصص في فلسفة القانون ، يحاضر في الجامعات المصرية . عرف خاصة بكتابه:

في المسالة الاجتماعية .



43 - من ديماغوجيا [1] الاقتصاد الموجه

[هَل اعْتبارُ الماركسيَةِ [2] أرْبابَ العَمَلِ الرَّأسماليِّين طَبقةً طُفَيْليَّةً مُسْتغِلَّةً لهُ ما يُبرِّرُه ؟]

« كانَ التطلُّعُ الرَّئيسيُّ للإنْسانيّةِ خلالَ آلافِ السِّنين، هُوَ عدَمُ الموْتِ جوعًا فوْقَ أرْضٍ شاقَّةٍ ، وإذا بَقيَ أدْنى فضْلٍ زائدٍ بعْدَ تلْبيَةِ الحاجاتِ الأوَّليَّة، تأكَّدَ التّطلُّعُ إلى قيَمٍ أُخْرى لَدى جماعاتٍ مُخْتصَّةٍ تتطفَّلُ علَى الاقْتِصادِ منْ أصْحابِ الامْتيازاتِ . وهؤلاءِ المتميِّزونَ لا يكُونُونَ بوجْهٍ عامٍ منْ ذوي النَّشاطِ الاقْتصاديّ؛ إنَّهُمْ خارجَ الاقْتصادِ .

ولَكِنَّ النَّظريَّةَ الماركسيَّةَ ليسَتْ تلْكَ النَّظريَّةَ البَديهيَّةَ . إنَّها تقُولُ إنَّ أصْحابَ الامْتيازِ والطُّفيْليِّينَ هؤلاءِ هُمْ مُديرُو العَمَلِ المسْتغِلُّونَ في الدَّائرةِ الاقتِصاديَّةِ ، وأنَّهُمْ يعيشُونَ مُباشَرةً منْ " فائِضِ القيمةِ " [3]، وأنَّهُمْ إذا لمْ يخْتفُوا وراءَ أقْنعةِ مُلوكٍ أوْ أرسْتُقراطيِّينَ أوْ قُضاةٍ أوْ موظَّفينَ ، فإنهُمْ يُسخِّرُونَ هؤلاءِ لمآربهِمْ نتيجةَ قُوَّةِ إثْرائهِمْ .

إنَّ هذهِ النَّظرِيَّةَ لا يُمكنُ أنْ تحظَى بالتَّأْييدِ إطْلاقًا؛ ذلكَ أنَّ مُديري العَمَلِ الاقْتصاديِّ والمزارعينَ والباعةَ والتُّجارَ المتجوِّلينَ والحرفيِّينَ اليدَويِّينَ وأرْبابَ المصارفِ، كُلُّ أُولئكَ قدِ اسْتغلَّتْهُمْ مُباشرةً الجماعاتُ السِّياسيَّةُ : الأرسْتُقراطيُّونَ، الموظَّفُونَ، أصْحابُ النُّفوذِ على اخْتلافِهِمْ، ولَوْ أنَّهُمْ كانُوا قدِ اسْتغَلُّوا بادئَ ذي بدْءٍ العَبيدَ والعُمَّالَ الَّذينَ اسْتخْدمُوهُمْ في أعْمالهِمْ [...] .

إنَّ الصِّراعَ الطَّبقيَّ واقعٌ تاريخيٌّ، ولَكنَّهُ لا يَجري بصُورةٍ رئيسيَّةٍ بيْنَ أطْرافِ النِّزاعِ الاقْتصاديِّينَ . والنَّظريَّةُ الماركسيَّةُ ، وهيَ تنْزلقُ في وسْواسِ الخصُوماتِ الجانبيَّةِ بيْنَ عُمَّالٍ

---

[1]-أو Démagogie وهي أسلوب خطابي ينتحل تشويه الحقائق أو الجدل الفارغ لأجل تحقيق هدف ما .

[2]-نسبة إلى ماركس (1883 ـ1818) K.Marx المفكر والفيلسوف الشيوعي الألماني المعروف .

[3]-من القوانين الماركسية التقليدية ومفادها أن أرباب العمل يسرقون جهد العمال عن طريق استغلالهم .



وَمُدِيرِي العَمَلِ ، تَمنَعُ أَصْحابها مِنْ أَنْ يَرَوْا التَّنَاقُضَ الجَدِيدَ؛ وَهُوَ أَكْثَرُ أَهمِّيَّةً حَالِيًّا؛ إِنَّ إِضْرَابَاتِ العُمَّالِ مِنْ أَجْلِ زِيَادَةِ الأُجُورِ أَوْ تَحْسِينِ شُرُوطِ العَمَلِ، دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُجُودِ صِرَاعٍ حَقِيقِيٍّ ، أَوْ حَرْبٍ حَقِيقِيَّةٍ، بَلْ عَلَى وُجُودِ مُنَاقَشَاتٍ قَاسِيَةٍ بَيْنَ شُرَكَاءَ .

وَبِذَلِكَ فَإِنَّ تَشْبِيهَ المارْكسِيِّينَ أَرْبَابَ العَمَلِ الاقْتِصَادِيِّ بِأَرِسْتُقْرَاطِيَّةٍ جَدِيدَةٍ يَنْبَغِي مُكَافَحَتُهَا، وَتَشْبِيهَ بُرْجُوَازِيِي الأَعْمَالِ بِالطَّبَقَاتِ الطُّفَيْلِيَّةِ وَالإِقْطَاعِيَّةِ القَدِيمَةِ، أَوْ بِطَبَقَاتِ الكُهَّانِ، هُوَ تَشْبِيهٌ مُضَلِّلٌ تَمَامًا؛ فَالبُورْجُوَازِيَّةُ، وَقَدِ ارْتَدَتِ الحُلَّةَ الوَظِيفِيَّةَ، تُدْخِلُ الصُّورَةَ الإِنْتَاجِيَّةَ عَلَى نَحْوٍ أَفْضَلَ تَمَامًا» . [1]

ريمون رويّه [2]

أسئلة :

1 – حاولْ تعريف الطبقة الطفيلية بناء على الأمثلة الموظفة من تاريخها القديم والحديث.

2 – وضّحْ، استنادا إلى النص، الفارق بين الطبقة الطفيلية وطبقة أرباب العمل.

3 – لتقويم النص، هل ترى أن المؤلف قد وُفّق في إبطال نظرة الماركسية النقدية للرأسماليين ؟

---

[1]- ريمون رويه ، نقد الإيديولوجيات المعاصرة ، ترجمة/ عادل العوا، عويدات ، ط1، بيروت 1978. ص ، (155–156) .

[2]- Raymond Ruyer فيلسوف فرنسي معاصر (1902– 1987) تخصص في تدريس الإيديولوجيا في جامعة نانسي . من مؤلفاته : فلسفة القيمة ، السيبرنيتيك وأصل الإعلام ، ونقد الإيديولوجيات المعاصرة .



44 - إلى القيم الإيجابية للاقتصاد الحرّ

[مَا الَّذي يُبرِّرُ القَوْلَ : إنَّ الاقْتِصَادَ الحُرَّ يَتلاءَمُ مَعَ الطَّبيعَةِ الإِنْسَانيَّةِ بِمَا يَنْطوي عَلَيْهِ مِن مَعَاييرَ اقْتِصَاديَّةٍ وقِيَمٍ أخْلاقِيَّةٍ ؟]

«إنَّ الاقْتِصَادَ اللِّيبيرَالِيَّ الرَّأْسَمَالِيَّ (نِظَامَ المَشْرُوعِ الخَاصِّ) [1] لَيْسَ مِنَ النَاحيَةِ النَّظَرِيَّةِ سِوَى شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الاقْتِصَادِ. وَقَدْ يَكُونُ الاقْتِصَادُ الخَاضِعُ لِلدَّوْلَةِ وَلِلتَّخْطيطِ البيرُوقْرَاطِيِّ [2] مِنَ النَّاحيَةِ النَّظَرِيَّةِ أَيْضًا، اقْتِصَادًا سَليمًا بِكُلِّ مَا فِي الكَلِمَةِ مِنْ مَعْنَى، أَيْ خَاضِعًا لِلْمِعْيَارِ الاقْتِصَادِيِّ المَاثِلِ في أفْضَلِ تَلْبيَةٍ مُمْكِنَةٍ لِلْحَاجَاتِ بِأَدْنى جُهْدٍ مُمْكِنٍ، بَلْ أَنَّ لِلاقْتِصَادِ المُوَجَّهِ [3] مَنَافِعَ في بَعْضِ المَيَادينِ (مِثْلُ حَقْلِ المُوَاصَلاَتِ وَ وَسَائِلِ النَّقْلِ، وَمِلْكِيَّةِ الثَّرَوَاتِ الطَّبيعِيَّةِ). وَبِهَذَا المَعْنَى الدَّقيقِ لا يُؤَلِّفُ الاقْتِصَادُ الاشْتِرَاكِيّ عَقَائِدِيَّةً [4]، بَلْ هُوَ تِقْنِيَّةٌ جَائِزَةٌ.

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ الاقْتِصَادَ اللِّيبيرَالِيَّ، بِدُونِ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَنَّهُ اتِّسَاقٌ [5] طَبيعِيٌّ، إِنَّمَا يُمَثِّلُ إِلَى حَدٍّ كَبيرٍ ظَاهِرَةً طَبيعِيَّةً، بَيْنَمَا يَتَّصِفُ الاقْتِصَادُ الاشْتِرَاكِيُّ بِأَنَّهُ بِنَاءٌ عَقْلِيٌّ وَمَشْرُوعٌ تِقْنِيٌّ، يَظَلُّ فِي حَالَةِ مَشْرُوعٍ إِذَا لَمْ يُلْقِ وِصَايَةً سِيَاسِيَّةً.

إنَّ لِلاقْتِصَادِ اللِّيبيرَالِيِّ مَنَافِعَ عَمَلِيَّةً جَلَّى : إِنَّ مُديري العَمَلِ الخَاصِّ، الَّذينَ قَدْ يُثْرُونَ أَوْ يُفْلِسُونَ، هُمْ أَفْضَلُ حُرَّاسٍ لِلْقَوَانينِ الاقْتِصَادِيَّةِ ضِدَّ لاَمُبَالاَةِ المُسْتَخْدِمينَ وَالعُمَّالِ، وَضِدَّ نَزَوَاتِ [6] المُهَنْدِسينَ وَالتِّقْنِيِّينَ، وَضِدَّ مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الطُّفَيْلِيِّينَ. وَإِنَّ وَسْوَاسَ الرِّبْحِ لَدَيْهِمْ،

---

[1] - الاقتصاد الليبيرالي الرأسمالي = الاقتصاد الحر، ونظام المشروع الخاص = الملكية الخاصة المنتجة.

[2] - من Bureaucratic أو المكتبية؛ وهي الإشراف الإداري على الاقتصاد في النظم الاشتراكية.

[3] - الاقتصاد الموجه = الاقتصاد الاشتراكي.

[4] - العقائدية ترجمة تقريبية لمصطلح إيديولوجيا (أو Idéologie) من Idée = فكرة، والمفهوم العام للعقائدية يحمل معنى علم الأفكار السياسية لمذهب أو حزب أو تيار فلسفي.

[5] - اتساق = انتظام وانسجام وتناغم.

[6] - نزوات = رغبات طائشة.



وَهُوَ فِي نَظَرِ العَقَائِدِيِّينَ [1] أَمْرٌ أَنَانِيٌّ حَقِيرٌ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ النَّاحِيَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ حَادِثٌ سَلِيمٌ مَادَامَ يَتَرَتَّبُ عَلَى المُجْتَمَعِ آخِرَ المَطَافِ أَنْ يَسُدَّ كُلَّ عَجْزٍ فِي الاسْتِثْمَارِ. وَأَنَّ دَوْرَ الحَارِسِ المُشَارِ إِلَيْهِ دَوْرٌ جَاحِدٌ [2]؛ فَهُوَ يَجْعَلُ أَرْبَابَ العَمَلِ شَنِيعِينَ . وَلاَ يَخْرُجُ كُرْهُ النَّاسِ لِحُرَّاسِ الجَحِيمِ الاقْتِصَادِيِّينَ عَنْ أَنَّهُ تَعْبِيرٌ عَنِ الكُرْهِ الطَّبِيعِيِّ، وَلَكِنَّهُ صَدًى لِلْمَعَايِيرِ الاقْتِصَادِيَّةِ ذَاتِهَا. فَإِذَا تَجَاوَزُوا الحُرَّاسَ أَلْفَوْا أَنْفُسَهُمْ [3] وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمَامَ المَعَايِيرِ ذَاتِهَا، وَهَذِهِ المَعَايِيرُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَمُوتَ مِنْ جِهَةٍ، كَمَا أَنَّهَا، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، تَثْأَرُ لِنَفْسِهَا بِدُونِ شَفَقَةٍ عِنْدَمَا يَتَنَكَّرُ لَهَا المُتَنَكِّرُونَ .

إِنَّ المَشَارِيعَ الكُبْرَى الاحْتِكَارِيَّةَ [4] لاَ تَتَمَتَّعُ البَتَّةَ بِحُرِّيَّةِ اقْتِطَاعِ أَرْبَاحٍ بَاهِضَةٍ عَلَى وَجْهٍ يُخَالِفُ القَوَانِينَ الاقْتِصَادِيَّةَ؛ فَهِيَ لاَ تَتَنَافَسُ فِيمَا بَيْنَهَا فَحَسْبُ، بَلْ أَنَّ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَزِيدَ أَرْبَاحَهَا إِلَى الحَدِّ الأَقْصَى، أَنْ تُقَلِّلَ سِعْرَ مَبِيعَاتِهَا وَتُخَفِّضَهُ تَقْرِيبًا إِلَى نَفْسِ المُسْتَوَى الَّذِي يَنْجُمُ عَنْ مُنَافَسَةٍ تَامَّةٍ بَيْنَ الشَّرِكَاتِ الَّتِي تُنْتِجُ السِّلَعَ عَيْنَهَا. وَأَنَّ كَلِمَةَ « تَقْرِيبًا » هُنَا تُمَثِّلُ المَنْفَعَةَ الَّتِي تَجْنِيهَا المَشَارِيعُ مِنَ الاحْتِكَارِ وَيَفُوزُ المُسْتَهْلِكُونَ بِأَحْسَنِ تَعْوِيضٍ عَنْهَا بِفَضْلِ مَرْدُودِ الإِنْتَاجِ التَّمَاثُلِيِّ [5] الكَبِيرِ جِدًّا .

وَمِنَ السُّخْفِ الظَّنُّ أَنَّ فِي إِمْكَانِ مَشْرُوعٍ ، بَعْدَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى مُنَافِسِيهِ ، أَنْ يَبِيعَ مَنْتُوجَهُ بِأَيِّ سِعْرٍ يَفْرِضُهُ » . [6]

ريمون رويه [7]

---

1. يقصد العقائديين الاشتراكيين .
2. جاحد = منكر الجميل .
3. ألفوا أنفسهم = وجدوا أنفسهم .
4. المشاريع الاحتكارية هنا تعني المشاريع العمومية التابعة للدولة .
5. الإنتاج التماثلي = المتخصص في إنتاج نفس السلعة .
6. ريمون رويه، نقد الإيديولوجيات المعاصرة، ترجمة / عادل العوا، عويدات، ط1، بيروت 1978. ص،(157، 158) .
7. تم التعريف به في موضع آخر؛ (أنظر النص رقم : 43).



أسئلة :

1 – اُذكرْ ما في النص من نتائج أسفرت عنها المقارنة المنعقدة بين الاقتصادين الحرّ والموجّه .

2 – عدّدْ مزايا الاقتصاد الحرّ كما عرض لها صاحب النص، وبيّنْ أبعادها .

3 – هل توافق ريمون رويّه في القول بأن الربح مبرّر ومشروع لزيادة الاستثمار، وأنه لا يعبّر بالضرورة عن درجة الجشع والطمع لدى الرأسماليين؟ علّل إجابتك بشواهد من الواقع .



45 - حدود أَخْلَقَةِ الاقتصاد

[كَيْفَ نَنْأَى بِالاقْتِصَادِ عَنْ تَأْثِيرِ أَدْلَجَةِ الأَخْلاقِ [1] لِصَالِحِ المِعْيَارِ الإِنْتَاجِيِّ وَحْدَهُ ؟]

« يُعْتَبَرُ الاقْتِصَادُ وَالتِّقْنِيَةُ الاقْتِصَادِيَّةُ اليَوْمَ الضَّرَرَيْنِ الرَّئِيسِيَّيْنِ ضِدَّ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ ؛ فَقَدْ يَقْتُلُ المَرْءُ نَفْسَهُ بِالعَمَلِ، وَقَدْ يَهْدِمُ المُجْتَمَعُ ذَاتَهُ، بِاعْتِبَارِهِ جَمَاعَةً حَيَوِيَّةً، حَتَّى يُنْتِجَ مُجْتَمَعًا صِنَاعِيًا. فَالنَّاسُ لاَ يَسْتَطِيعُونَ عَيْشًا إِلاَّ إِذَا امْتَلَكُوا وَسَائِلَ هَذَا العَيْشِ، وَلَكِنَّ الوَسَائِلَ الاقْتِصَادِيَّةَ تَسُودُ عِنْدَئِذٍ الحَيَاةَ وَتُحَدِّدُهَا، وَفِي جِذْعِ هَذِهِ المُتَبَايِنَاتِ وَالمُتَنَافِرَاتِ تَظْهَرُ أَمْرَاضٌ عَصَبِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ.

إِنَّ الفَزَعَ المَرَضِيَّ مِنَ الاقْتِصَادِ يُؤَلِّفُ اليَوْمَ عَقَائِدِيَّةً سَائِدَةً، وَالشَّكْلَ السَّامَّ الحَادَّ فِي حَمْلَةِ أَعْدَاءِ القِيَمِ عَلَيْهَا. وَيَتَّسِمُ هَذَا الفَزَعُ بِجَمِيعِ سِمَاتِ وَبَاءٍ أَوْ جُنُونِ عَظَمَةٍ [2] جَمْعِيٍّ؛ إِنَّ دَعَاوَى العَقَائِدِيِّينَ ضِدَّ المُجْتَمَعِ الاقْتِصَادِيِّ تُهَيِّجُ الرَّأْيَ العَامَّ فَيَتَرَقَّبُ مُعْجِزَةً اجْتِمَاعِيَّةً تَقْضِي عَلَى المَشَارِيعِ الصِّنَاعِيَّةِ وَعَلَى « السُّجُونِ الرَّأْسُمَالِيَّةِ » [3]، وَعَلَى مَطْلَبِ الرِّبْحِ القَبِيحِ، بَلْ وَتَأْتِي عَلَى المَصَانِعِ الكُبْرَى وَعَلَى أُسْلُوبِ الإِنْتَاجِ التَّسَلْسُلِيِّ [4]، وَتَكْفُلُ مُسْتَوًى عَالِيًا مِنَ الحَيَاةِ لِلْعُمَّالِ وَالفَلاَّحِينَ وَالمُوَظَّفِينَ، وَتُتِيحُ أَوْقَاتَ فَرَاغٍ وَثَقَافَةً وَتَرْبِيَةً مُسْتَمِرَّةً فِي المُدُنِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَحْيَا حَيَاةَ رَفَاهٍ [...] .

لَكِنْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الاقْتِصَادِ أَنْ يَكُونَ وَاعِظًا أَخْلاَقِيًا. فَالاقْتِصَادُ يَخْدُمُ طَلَبَاتِ المُسْتَهْلِكِينَ. وَالاقْتِصَادُ لاَ يَفْرِضُ نَمَطَ الاسْتِهْلاَكِ وَلاَ طِرَازَ الحَيَاةِ بَلْ هُوَ وَسِيطٌ بَيْنَ الإِمْكَانَاتِ التِّقْنِيَّةِ وَبَيْنَ أَذْوَاقِ الزَّبَائِنِ [...] .

[1] - أدلجة الأخلاق = ما تمارسه الأخلاق من اعتقادات مذهبية وتقويم فكري وسلوكي .

[2] - مرض نفسي يوحي للمصاب به بالتفوق الزائف . (وكان كثير من زعماء التاريخ كهتلر ضحية له) .

[3] - تعبير أطلقه منظرو الاشتراكية للدلالة على وضعية يكون فيها العمال أسرى لرغبات مستخدميهم في الاقتصاد الرأسمالي، فيتحكم هؤلاء في مصائرهم كما يتحكم سجان معتقل كبير في مصائر سجنائه .

[4] - أسلوب الإنتاج التسلسلي = الإنتاج الذي ينجزه العمال عن طريق الآلة وفق حركات رتيبة متتابعة .



إِنَّ تَعَارُضَ التَّطَلُّعَاتِ (المَفْرُوضِ أَنَّهَا نَبِيلَةٌ) وَالحَاجَاتِ (المَفْرُوضِ أَنَّهَا خَسِيسَةٌ) تَعَارُضٌ زَائِفٌ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الاقْتِصَادِ أَنْ يَكُونَ مُرَبِّيًا، وَالَّذِينَ يُقَدِّمُونَ السِّلَعَ يخَاطِبُونَ زَبَائِنَ رَاشِدِينَ يمْتَلِكُونَ سَلَفًا القُدْرَةَ عَلَى الشِّرَاءِ وَيَعْلَمُونَ مَاذَا يُرِيدُونَ، وَحَتَّى وَإِنْ بَقِيَ العَامِلُ مُلْزَمًا بِعَمَلٍ رَتِيبٍ ضَرُورِيٍّ، فَإِنَّنَا هُنَا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعُودَ بِاللاَّئِمَةِ عَلَى التِّقَنِيَّةِ وَحْدَهَا : فَمِعْيَارُ المَرْدُودِ الاقْتِصَادِيِّ ذَاتُهُ هُوَ الَّذِي يحْمِلُ عَلَى اخْتِيَارِ عَمَلٍ مِنَ الطِّرَازِ التَّسَلْسُلِيِّ، وَتَرْجِيحِهِ عَلَى الحِرْفَةِ اليَدَوِيَّةِ؛ إِنَّ التَّنَاقُضَ الحَقِيقِيَّ يمْثُلُ بَيْنَ الاقْتِصَادِ وَبَيْنَ النَّزْعَةِ الإِنْسَانِيَّةِ». [1]

ريمون رويّه [2]

أسئلة :

1 – أبرزْ من النص جملة الاتهامات الأخلاقية التي وجّهها العقائديون ضدّ الاقتصاد الإنتاجي .

2 – لخّصْ دَحْضَ المؤلف لها ، وبيّنْ فحوى دفاعه عن قيمة المعايير الاقتصادية الخالصة .

3 – دوّنْ فقرة تعرض فيها موقفك من إشكالية " أخلقة أو عدم أخلقة العمل" مع التعليل .

---

1. ريمون رويّه ، نقد الإيديولوجيات المعاصرة، ترجمة/ عادل العوا، عويدات، ط 1، بيروت 1978. ص، (159، 160، 161) .

2. سبق التعريف به في موضع آخر (انظر النص رقم : 43) .

46 - الشّخصيّة الإنسانية و المجتمع

[إذا ما اعْتَبَرْنا أنَّ ثَمَّةَ شَخْصِيَّةً إنْسانيَّةً عامَّةً، فَهَلْ يَعْني ذَلِكَ حَتْمًا أَنَّها اجْتِماعيَّةٌ؟]

« على كُلٍّ مِنَّا أَنْ يَخُوضَ في عَمَلٍ يَتَضَمَّنُ مَسْؤُولِيَّةً (فَوْقَ – شَخْصِيَّةٍ) [1] بِقَدْرِ مَا تُهَيِّءُ لَهُ ذَلِكَ ظُرُوفُ حَيَاتِه. لَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا نَفْعَلَ ذَلِكَ بِرُوحِ البِنْيَةِ الْجَمَاعِيَّةِ، بَلْ بِرُوحِ الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ أَخْلَاقِيًّا. فَفِي كُلِّ حَالَةٍ فَرْدِيَّةٍ إِذَنْ نَحْنُ نُكَافِحُ لِلْاحْتِفَاظِ بِأَكْبَرِ قَدْرٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَحِينَمَا نُصْبِحُ جَادِّينَ وَاعِينَ، نُفَكِّرُ فِيمَا يُنْسَى عَادَةً أَلَا وَهُوَ أَنَّ كُلَّ نَشَاطٍ عَامٍّ يَجِبُ لَيْسَ فَقَطْ أَنْ يَحْسِبَ حِسَابَ الْوَقَائِعِ الَّتِي تَتَحَقَّقُ فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَاعَةِ، بَلْ وَأَيْضًا حِسَابَ إِيجَادِ الْحَالَةِ الذِّهْنِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الرُّقِيِّ بِتِلْكَ الْجَمَاعَةِ. وَإِيجَادُ مِثْلِ هَذِهِ الرُّوحِ وَالاسْتِعْدَادُ أَهَمُّ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ نَصِلُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً فِي الْوَقَائِعِ. وَالنَّشَاطُ الْعَامُّ الَّذِي لَا تُوَجَّهُ فِيهِ أَكْبَرُ الْجُهُودِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ يُفْسِدُ هَذِهِ الرُّوحَ [2] .

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَعْمَلُ وَعَلَى عَاتِقِهِ مَسْؤُولِيَّةٌ (فَوْقَ – شَخْصِيَّة) عَلَيْهِ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَسْؤُولٌ لَيْسَ فَقَطْ عَنْ نَجَاحِ النَّتَائِجِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَحَقَّقَ عَنْ طَرِيقِهِ، بَلْ وَأَيْضًا عَنِ الرُّوحِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَجِبُ إِيجَادُهَا. وَهَكَذَا نَخْدُمُ الْمُجْتَمَعَ دُونَ أَنْ نُسَلِّمَ أَنْفُسَنَا لَهُ، وَلَا نَسْمَحُ لَهُ بِالْوِصَايَةِ عَلَيْنَا فِي شُؤُونِ الْأَخْلَاقِ.

وَلَيْسَ لَنَا أَبَدًا أَنْ نَطْرَحَ عَدَمَ ثِقَتِنَا بِالْمُثُلِ الْعُلْيَا الَّتِي يَضَعُهَا الْمُجْتَمَعُ وَبِالْمُعْتَقَدَاتِ الْمُتَدَاوَلَةِ فِيهِ. غَيْرَ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ يُوقِفُ تَقَدُّمَ الْأَخْلَاقِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ، بِأَنْ يَغْتَصِبَ لِنَفْسِهِ مَكَانَةَ الْمُعَلِّم

---

[1]- أو Transpersonnelle وهو مصطلح اقتبسه المؤلف من أحد فروع علم النفس يحمل نفس التسمية . ولعل أقرب معانيه : خبرة أو حالة أو حركة تعطي لصاحبها إمكانية الخروج عن الأنا والذات وتجاوز الفردانية إلى الشعور بالاندماج في الحقائق المحيطة من أشياء أو أشخاص . والمصطلح يعبر عن توجه فكري تأسس في أمريكا عام 1969 يسمى بـ :New Age .

[2]- أي أن تحمّل الفرد لمسؤوليته العامة يجب أن يتشبع بروح الشخصية الإنسانية الأخلاقية لا الاجتماعية.



الأَخْلَاقِيِّ. وَلَا حَقَّ لَهُ فِي هَذَا؛ فَالْمُعَلِّمُ الأَخْلَاقِيُّ الوَحِيدُ هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي يُفَكِّرُ تَفْكِيرًا أَخْلَاقِيًّا، وَيُنَاضِلُ فِي سَبِيلِ الأَخْلَاقِ.

إِنَّ انْهِيَارَ الحَضَارَةِ قَدْ حَدَثَ بِسَبَبِ تَرْكِ الأَخْلَاقِ لِلْمُجْتَمَعِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَجْدِيدِهَا إِلَّا إِذَا أَصْبَحَتِ الأَخْلَاقُ مَوْضُوعَ اهْتِمَامِ الكَائِنَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ المُفَكِّرَةِ، وَإِلَّا إِذَا سَعَى الأَفْرَادُ لِتَأْكِيدِ أَنْفُسِهِمْ فِي المُجْتَمَعِ عَلَى أَنَّهُمْ أَشْخَاصٌ أَخْلَاقِيَّةٌ. وَبِقَدْرِ مَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ يُصْبِحُ المُجْتَمَعُ كِيَانًا أَخْلَاقِيًّا، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ كِيَانٍ طَبِيعِيٍّ كَمَا هُوَ بِحَسَبِ نَشْأَتِهِ». [1]

آلبرت إشفيتزر [2]

أسئلة:

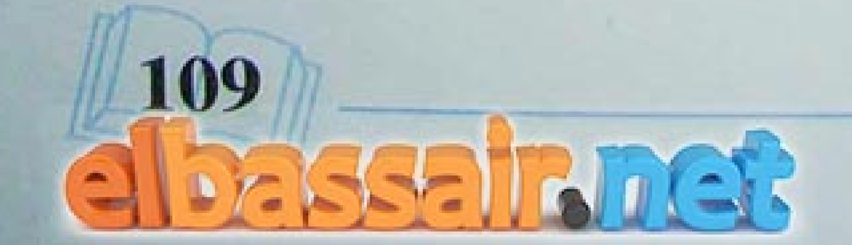
1 – عيّنْ، انطلاقاً من النص، مجمل المواصفات التي يجب أن تتصف بها الشخصية الإنسانية.

2 – أبرزْ المخاطر التي تنجرُّ – حسب المؤلف – عن إخضاع الشخصية الإنسانية لإرادة المجتمع.

3 – لتقويم النص، استعرض الحلّ المقدم فيه لإشكالية انهيار الحضارة، و بيّنْ رأيك فيه.

[1]. آلبرت إشفيتزر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، ط 2، بيروت 1980، ص، (399– 400 – 401) بتصرف.

[2]. سبق التعريف به في موضع آخر؛ (انظر النص رقم : 27).



47 - الإنسان والمعادلة الاجتماعيّة

[إلى أيّ حدّ يُمْكنُ تبريرُ الرَّأْي القَائل : إنَّ الشَّخْصيَّةَ الإنسانيَّة ثابتَةٌ ، لكنَّ المُجْتَمعَ المُتغيِّر يَدْفَعُها إلى أنْ تُغيِّرَ فيه وأنْ تتغيَّرَ ؟]

«إنَّ المُلاحَظَةَ [1] تُجْبرُنا على أنْ نُقَدِّرَ للإنْسَانِ قِيمَتَيْنِ: قِيمَتَهُ كَإِنْسَانٍ، وَقِيمَتَهُ كَكَائِنٍ اجْتِمَاعِيٍّ. قِيمَةً تُوهَبُ لَهُ في طِينَتِهِ الأُولَى بِمَا وَضَعَ اللهُ فِيهَا مِنْ تَكْرِيمٍ، وَلَيْسَ لِظَرْفٍ مِنَ الظُّرُوفِ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُغَيِّرَ مِنْهَا شَيْئًا، كَمَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ ظَرْفٍ أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ خَصَائِصِ عَيِّنَةِ (الزِّنْكِ)، وَقِيمَةً أُخْرَى تُعْطَى لَهُ بِعَمَلِيَّاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، تَمَامًا كَمَا تُعْطِي الْعَمَلِيَّاتُ الصِّنَاعِيَّةُ لِعَيِّنَةٍ مِنَ (الزِّنْكِ) قِيمَتَهَا الْعَمَلِيَّةَ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى إِنَّ الْإِنْسَانَ يُمَثِّلُ مُعَادَلَتَيْنِ: مُعَادَلَةً تُمَثِّلُ جَوْهَرَهُ كَإِنْسَانٍ صَنَعَهُ مَنْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعَهُ [2]، وَمُعَادَلَةً ثَانِيَةً تُمَثِّلُهُ كَكَائِنٍ اجْتِمَاعِيٍّ يَصْنَعُهُ الْمُجْتَمَعُ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذِهِ الْمُعَادَلَةَ الْأَخِيرَةَ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ فَعَالِيَةَ الْإِنْسَانِ، إِنْسَانٍ فِي جَمِيعِ أَطْوَارِ التَّارِيخِ لَا يَتَغَيَّرُ فِيهِ شَيْءٌ، بَلْ تَتَغَيَّرُ فَعَالِيَتُهُ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ.

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ شَخْصِيَّتَهُ لَيْسَتْ بِالْبَسِيطَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ مُرَكَّبَةٌ تَشْتَمِلُ عَلَى عُنْصُرٍ ثَابِتٍ يُحَدِّدُ كِيَانَهُ كَإِنْسَانٍ وَعُنْصُرٍ مُتَغَيِّرٍ يُحَدِّدُ قِيمَتَهُ كَكَائِنٍ اجْتِمَاعِيٍّ. وَهَذَا يَجْعَلُنَا نَصُوغُ مُشْكِلَتَهُ صِيَاغَةً جَدِيدَةً [...].

إِنَّنَا حِينَمَا نَدْرُسُ مُجْتَمَعًا مَا فِي حِقْبَةٍ مِنَ الزَّمَنِ كَافِيَةٍ لِتُعْطِيَنَا خِبْرَةً بِشُؤُونِ الْمُجْتَمَعَاتِ فِي مُخْتَلَفِ أَطْوَارِهَا، نَرَى أَنَّ الْمُجْتَمَعَ نَفْسَهُ يَكُونُ أَحْيَانًا فِي حَالَةِ رُكُودٍ وَكَسَادٍ؛ وَلَوْ أَنَّنَا

1- إن كلمة الملاحظة هنا استُعملت بإطلاقها ؛ أي بمعنى المعاينة والمشاهدة . ولكن يمكن الاستنتاج أن المقصود تخصيصاً هو الملاحظة العلمية و الواقعية ؛ والمثال الموظف لاحقاً يؤكد صدق هذا الاستنتاج .

2- والمتقن هو الخالق عزّ و جلّ .



قَدْ حَلَّلْنَا في مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ الوَضْعَ النَّفْسِيَّ الَّذي يَكُونُ عَلَيْهِ الْفَرْدُ، فَإِنَّنَا نَراهُ يَتَمَتَّعُ بِصُورَةٍ وَاضِحَةٍ بِشُعُورِ الاسْتِقْرَارِ؛ فَلَا يَحْتَوِيهِ أَيُّ قَلَقٍ، وَبِالتَّالِي، فَإِنَّهُ لَا يَبْذُلُ أَيَّ مُحَاوَلَةٍ لِتَغْيِيرِ الْوَضْعِ مِنْ حَوْلِهِ، إِذْ تَسِيرُ الْأَشْيَاءُ وَالْحَوَادِثُ دُونَمَا تَدَخُّلٍ مِنْ إِرَادَتِهِ. وَهُنَا يُصْبِحُ التَّارِيخُ سَيْلًا يَجْرِفُهُ إِلَى حَيْثُ لَا يَدْرِي مُسْتَسْلِمًا لَهُ الاسْتِسْلَامَ الْمُطْلَقَ.

فَإِذَا مَا حَدَثَ في الْمُجْتَمَعِ حَالَةٌ جَدِيدَةٌ غَيَّرَتْ هَذِهِ الْأَوْضَاعَ كُلَّهَا، فَإِنَّ مَوْقِفَ الْإِنْسَانِ هُنَا يَتَغَيَّرُ أَمَامَ الْحَوَادِثِ وَالْأَشْيَاءِ، وَبِالتَّالِي، يَتَغَيَّرُ مَجْرَى التَّارِيخِ[1]. وَهَذَا لَا يَحْدُثُ إِلَّا في حَالَاتٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْمُجْتَمَعَاتِ؛ وَلَوْ أَنَّنَا أَخَذْنَا بِالتَّحْلِيلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لَوَجَدْنَا أَنَّهَا، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَالَاتُ قَلَقٍ يَسُودُهَا الشُّعُورُ بِالْخَطَرِ، سَوَاءٌ أَكَانَ الْخَطَرُ وَاقِعِيًّا أَمْ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ خَامَرَتْ الْعُقُولَ[2]. [...]

وَأَوَّلُ مَا يَكُونُ مِنْ أَثَرِ هَذِهِ الْحَالَةِ في نَفْسِ الْفَرْدِ، أَنَّهَا تَحْرِمُهُ الشُّعُورَ بِالاسْتِقْرَارِ بِمَا يَعْتَرِيهِ وَيُسَيْطِرُ على مَشَاعِرِهِ مِنْ قَلَقٍ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ إِلَّا بِتَغْيِيرِ الْوَضْعِ، بِتَغْيِيرِ الْأَشْيَاءِ، بِالْوُقُوفِ أَمَامَ الْحَوَادِثِ لِتَوْجِيهِهَا لِغَايَاتٍ وَاضِحَةٍ و قَرِيبَةٍ فِي شُعُورِ الفَرْدِ، سَوَاءٌ أَكَانَ الْوَاقِعُ يُؤَيِّدُ هَذَا الشُّعُورَ أَوْ لَا يُؤَيِّدُهُ»[3].

مالك بن نبي[4]

---

[1]. إن الشواهد على ذلك كثيرة في تاريخ المجتمعات : خذ مثلا الغزو الأجنبي وما يؤدي إليه من مقاومة ، وظهور الأنبياء وما يتبعه من هدي وإصلاح، وحصول الكوارث الطبيعية وما يترتب عليه من استنفار للهمم وشحذ للعقول في ميدان الاكتشاف والابتكار.. وهكذا .

[2]. هذا ملخص فكرة التحدّي كمبدأ يسيّر الحوادث الاجتماعية في التاريخ الإنساني؛ فكلما حدث أمر جلل كان له ردّ فعل يعادله أو يفوقه من حيث القوة ؛ فتتكوّن بهذا المبدإ دورات يسري عليها التاريخ ؛ و هو ما يلاحظ في تفسير نشأة وتطور وانحدار الحضارات عند (ابن خلدون/ت1406)، وعند المؤرخ البريطاني المعاصر(آرنولد توينبي/ت1975) وغيرهما .

[3]. مالك بن نبي ، تأملات ، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، بدون طبعة ، بيروت 1979، ص، (131، 132) .

[4]. سبق التعريف به في موضع آخر؛ (أنظر النص رقم : 39) .



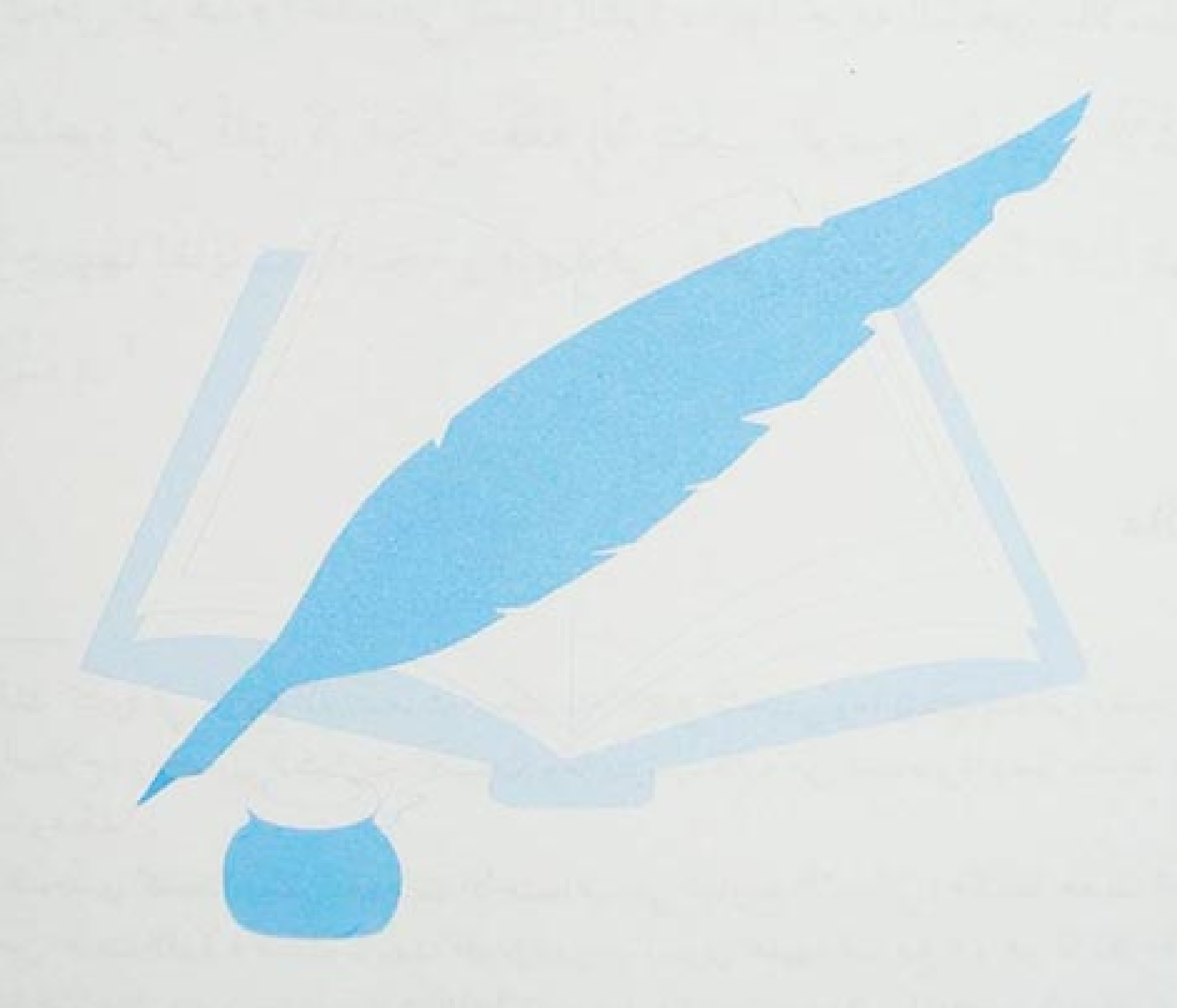
أسئلة :

1 - حدّدْ الفارق الأساسي بين المعادلة الإنسانية والمعادلة الاجتماعية حسب صاحب النص .

2 - اِشرحْ، بالعودة إلى النص، كيف تعبّر المعادلة الاجتماعية وحدها عن الجانب الفعال في الشخصية ؟

3 - بيّنْ، على ضوء أطروحة المؤلف، طبيعة العلاقة التي تربط بين تغيّر الفرد والتغيّر الحاصل في المجتمع .

4 - ناقشْ، في فقرة موجزة، قيمة التأثير الاجتماعي على فعالية الشخصية الإنسانية العامة (من حيث مداه وحدوده)، مقابل فرضية تأثير الأفراد المضادّ في مجتمعاتهم.



48 - من الشّخصيّة الجماعية إلى الفردية

[إذا سلّمنا بأثر البيئة الاجتماعية في الشّخصية، ألا يعني ذلك إلغاء لدور الفرد؟]

« ليست الشّخصيّة أثرًا من آثار الوراثة فقط، بل أنّها تخضع لتأثير البيئة أيضا؛ والمقصود بهذه البيئة جملة العوامل الخارجيّة الّتي تؤثّر في الكائن الحيّ منذ بدء نموّه. ولكن ينبغي أن نلاحظ أنّ البيئة تطلق بمعنيين؛ فتارةً نعني بها الشّروط الطّبيعيّة الّتي يعيش فيها الفرد، وعندئذٍ ندعوها بيئةً طبيعيّةً، وتارةً نعني بها الشّروط الاجتماعيّة الّتي يعيش فيها الإنسان ، وعندئذٍ يحسن أن ندعوها بيئةً اجتماعيّةً. والبيئة الطّبيعيّة تبدأ بتأثيرها في الفرد منذ أن يكون جنينا [...]، ولكنّ التّأثير الأكبر يأتي من البيئة الاجتماعيّة؛ ففي المجتمعات البدائيّة ينغمر الفرد انغمارًا يكاد يكون كلّيًا في الجماعة الّتي يعيش بين ظهرانيها [1]. ويرى أفراد هذه المجتمعات أنّ تماسكهم لا يمكن أن يكون دون هذا الانغمار. إنّ " الأنا " تضمحل في الـ" نحن " حتّى أنّه ما من فرد يفكّر في الواقع بغير ما يتقبّله المجموع [2].

في هذه المجتمعات، يتحوّل الشّخص في الواقع إلى شخصيّة اجتماعيّة؛ ذلك أنّ شخصيّات الأفراد تنصهر انصهارًا تامًّا أو شبه تامّ في الجماعة، فلا تكون هناك شخصيّة حقيقيّة سوى شخصيّة القبيلة. أمّا شخصيّات الأفراد فليست سوى نسخ متكرّرة من هذه الشّخصيّة الجمعيّة؛ جميعها تحمل بشكل متشابه عادات القبيلة وأعرافها و تقاليدها. عدا ذلك ليست لديه اهتمامات أو أفكار خاصّة غير اجتماعيّة.

لكن أثر المجتمعات المتحضّرة يختلف عن ذلك بعض الاختلاف، وذلك لأنّها مجتمعات تأخذ بتقسيم العمل الّذي أدّى إلى ظهور التّخصّص، وهذا بدوره أدّى إلى اختلاف

---

1. الانغمار= الاندماج ، بين ظهرانيها = ضمنها .
2. هذه الحالة من ذوبان (الانا) – كما يبيّن الانثروبولوجيون – ليست قاصرة على المجتمعات البدائية فحسب ، بل يمكن رصدها أيضا الآن لدى المجتمعات المغلقة والعشائرية في الارياف أو المناطق النائية.



الْأَفْرَادِ فِي وَظَائِفِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَبِالتَّالِي، إِلَى ظُهُورِ فَرْدِيَّاتِهِمْ وَشَخْصِيَّاتِهِمْ الْمُتَمَايِزَةِ[1]. وَالشَّخْصِيَّةُ فِي هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ تَتَكَوَّنُ مِنَ الِاسْمِ الَّذِي تَحْمِلُهُ، وَمِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَعْتَنِقُهَا، وَمِنَ الْمُعْتَقَدَاتِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِهَا، وَمِنَ الْمَبَادِئِ الَّتِي تُوَجِّهُ سُلُوكَهَا؛ وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ تَتَلَقَّاهَا مِنَ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ فِي مُعْظَمِهَا. إِنَّهَا تَقُومُ بِالْوَظِيفَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا تَسْتَطِيعُ فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، أَنْ تَسْتَجِيبَ لِمَثَلٍ أَعْلَى تَتَّخِذُهُ هَادِيًا لَهَا، وَأَنْ تَقُومَ بِدَوْرٍ تَنَكُّرِيٍّ تُلْقِي فِيهِ عَلَى وَجْهِهَا قِنَاعًا مِنَ الرِّيَاءِ يُخْفِي حَقِيقَتَهَا، فَتَتَظَاهَرُ بِاعْتِنَاقِ مَبْدَإٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ سُلُوكٍ هِيَ مِنْهُ بَرَاءٌ، فَيُؤَدِّي الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَرْتَدَّ إِلَيْهَا مَشَاعِرُ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا، وَتُؤَثِّرُ فِي مَشَاعِرِهَا الْحَقِيقِيَّةِ[2].

وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ يَظَلُّ أَكْثَرَ مُرُونَةً مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْبِدَائِيَّةِ، وَيَسْهُلُ ازْدِيَادُ أَمْرِ بُرُوزِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ وَأَمْرِ وَعْيِهَا لِذَاتِهَا».[3]

تيسير شيخ الأرض[4]

[1]- إذا نظرنا إلى هذه المسألة من الزاوية القيمية ، فضلا عن ذلك ، تراءت لنا أهمية التحوّل من الحياة الجماعية البسيطة إلى ظاهرة تقسيم العمل والتخصص ؛ إذ لم يؤدّ ذلك إلى تكريس النزعة الفردية فقط ، بل أدّى في نفس الوقت إلى تحرير الذكاء الفردي وملكة الإبداع الخاصة مما مكن من انبثاق الحضارات .

[2]- قد لا يكون من الضروري أن يسلك الفرد هذا المسلك في تعامله مع التأثيرات الاجتماعية فلا يحتاج إلى تنكر، أو رياء، أو تظاهر ، بل فقط إلى مواجهة صريحة أحيانا مع هذه التأثيرات على أساس من القناعة الشخصية ؛ كما هو الشأن في التعامل مع القيم والتنظيمات السائدة في المجتمع مثلا ؛ فلولا مساهمة الفرد فيها مساهمة إيجابية لما قُدّر لها أن تتغير من طور تاريخي إلى آخر، وأن تختلف من جماعة إلى جماعة أخرى في الطور التاريخي الواحد .

[3]- تيسير شيخ الأرض، مبادىء الفلسفة، مطابع ألف باء - الأديب، دون طبعة، دمشق 1969. ص، (98- 99- 100) .

[4]- سبق التعريف به في موضع آخر؛ (أنظر النص رقم : 25) .



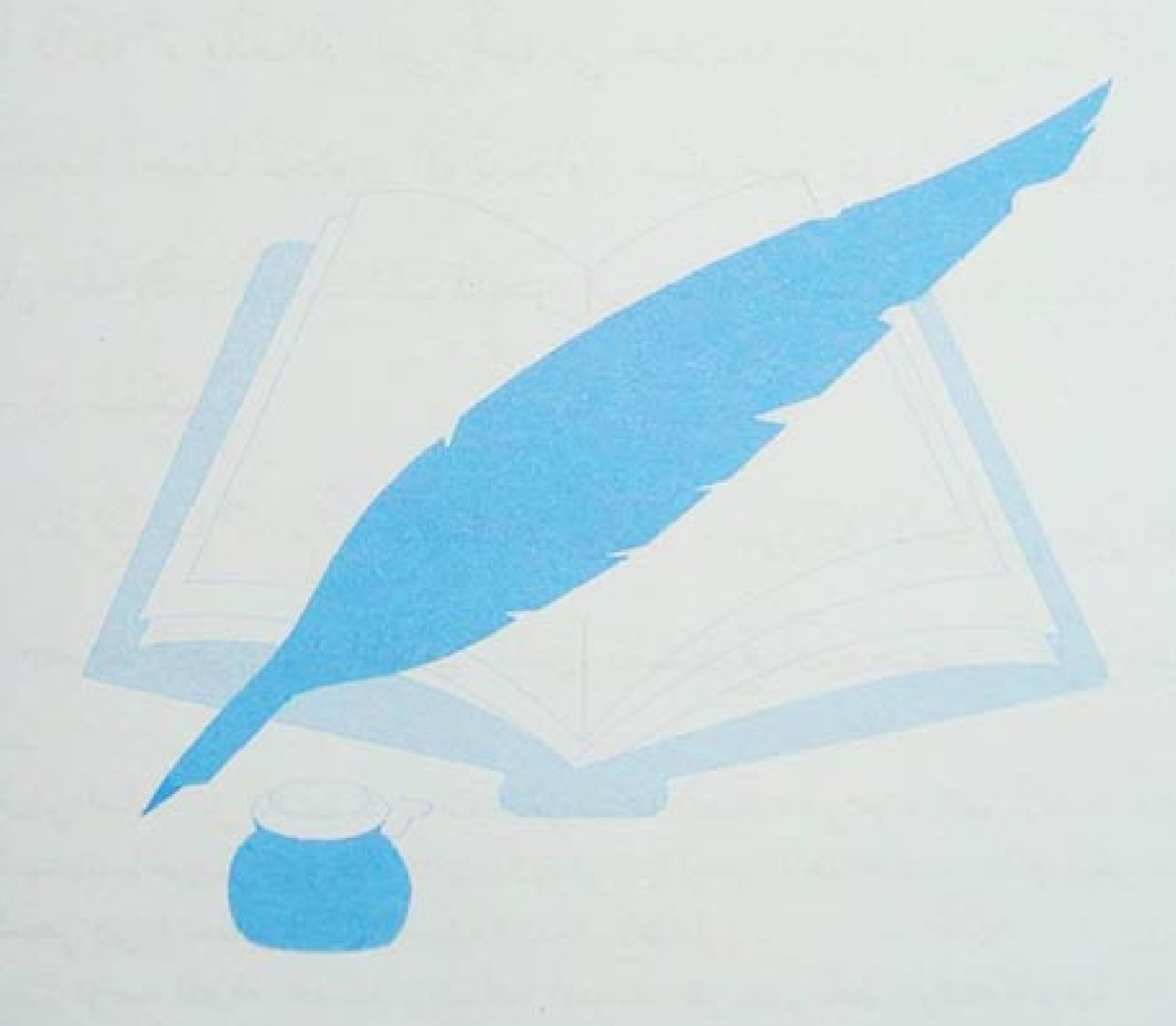
أسئلة:

1 – حدّد صاحب النص مفهومين متمايزين للفظ "البيئة". عيّنْ هذا التمايز القائم بينهما من حيث الطبيعة و من حيث القيمة.

2 – لخّصْ بأمانة ما ذُكر في النص من مظاهر تتّصل بتأثير البيئة الاجتماعية في تكوين و وظيفية الشخصية.

3 – تحدّثْ، مستعيناً بمنطوق النص، عن التحوّل الجوهري الذي شهده هذا التأثير، و موضّحاً العوامل التي ساهمت في الحدّ منه.

4 – ما هي في رأيك الصورة الفضلى للشخصية التي يفترض فيها أن تكون معصومة من نقيصة تذويب الفرد من جديد في الجماعة، أو إلغاء شخصيته المتميزة ؟



49 - كرامة الإنسان ومصير الإنسانيّة

[ما أثرُ تحرُّرِ الشَّخْصيَّةِ من غرائزِ الهيْمنةِ في صوْنِ كرامةِ ومُستقبلِ الإنْسانِ؟]

«إنَّ الوُجودَ الإنْسانيَّ أقْوى منْ أنْ ينْهارَ أمامَ أيِّ نُزوعٍ تخْريبيٍّ [1] لأنَّهُ وُجودٌ مُبدعٌ خلَّاقٌ، وبسببِ العلاقةِ الَّتي تربطُ الفرْدَ بالْفرْدِ الآخرِ منْ ناحيةٍ، وبسببِ المدِّ الإنْسانيِّ الَّذي يرْبطُ الْحياةَ بالكوْنِ منْ ناحيةٍ أُخْرى. وبالرَّغْمِ من الجُهْدِ الَّذي يبْذُلُهُ الإنْسانُ باسْتمْرارٍ، لمْ يسْتطعْ أنْ يكْشفَ عنْ أسْرارِ الْعالمِ الَّذي يعيشُ فيه إلَّا في جوانبَ محْدُودةٍ تحُولُ محْدوديَّتُها بيْنهُ وبيْنَ إدْراكهِ الْميتافيزيقيِّ الْكُلِّيِّ [2].

إلَّا أنَّ هذا لا يعْني أنَّ الحياةَ الإنْسانيَّةَ ذاتُ نُزوعٍ خُلوديٍّ لا يعْرفُ للزَّمنِ حُدودًا، ولا للأحْداثِ تُخوماً [3]، بلْ أنَّ الْفناءَ النِّسْبيَّ شرْطٌ منْ شُروطِ الْوُجودِ، على أنْ لا يتجاوزَ الحدَّ الَّذي فرضتْهُ الْحياةُ ذاتُها [4]. والْغرائزُ الَّتي تحْيا في خلايانا وتعْملُ في سُلوكنا، الْكامنِ منْهُ والدِّيناميكيِّ [5]، تجْعلُنا أحْيانًا نُحاولُ أنْ نتجاوزَ هذا الحدَّ دُونَ وعْيٍ منَّا، ودُونَ معْرفةٍ لما يُمكنُ أنْ يبْلُغهُ مثْلُ هذا التَّجاوُز. لذلكَ فنحْنُ في صراعٍ مُسْتمرٍّ ورهيبٍ بيْنَ وُجودنا الَّذي كانَ، ووُجودنا الَّذي سنكُونُهُ.

وإزاءَ ما تفْعلُهُ الْغرائزُ بنا [6]، فإنَّهُ علينا أنْ نُحوِّلَ جبرُوتنا الإنْسانيَّ منْ دوَّامةِ التَّيَّاراتِ الانْفعاليَّةِ إلى تيَّارٍ جديدٍ آخرَ: تيَّارِ الْفكْرِ الَّذي يسْتطيعُ أنْ يحْتضنَ كُلَّ وُجودنا احْتضانًا

---

[1]- المقصود بالنزوع التخريبي أساساً كل مظاهر النزاعات والحروب بما تتضمنه من هدم لقيم الإنسان ، أو تهديد لوجوده ذاته (و من ذلك شبح التهديد بالحروب النووية أو الكيميائية أو البيولوجية ؛ هذا الشبح الذي يبقى مسلطاً على رقاب البشر دائما إذا لم يتم السعي إلى التخلص من كل أسلحة الدمار الشامل) .

[2]- و هذه دعوة إلى تطوير و توجيه المعرفة العلمية بما يساعد الإنسان على فهم مصيره والتحكم فيه .

[3]- التخوم = الحدود ، والنزوع الخلودي = الاعتقاد بفكرة البقاء الأبدي وعدم الفناء .

[4]- إن الفناء النسبي الذي تفرضه الحياة يتمثل في نسبة الوفيات العادية، وضحايا الكوارث الطبيعية .

[5]- ديناميكي = حيوي أو حركي او متفاعل .

[6]- أخطر هذه الغرائز على الإطلاق : التنازع على البقاء وحب السيطرة والتفوق ، والتي تتمظهر في ضروب من الصراع غير المبرر أخلاقياً كما هو الحال في الحروب و اشكال الغزو والاحتلال .



فيه صِدْقٌ وَتَوَجُّهٌ أَصِيلٌ. إِنَّ في هَذَا الْفِكْرِ طَاقَاتٍ رَائِعَةً خُلِقَتْ لِتَطْوِيرِنَا إِلَى مَرْحَلَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ أَكْثَرَ رُقِيًّا مِنَ الَّتِي سَبَقَتْهَا. وَبِذَلِكَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ ذَاتَنَا، وَعَلاَقَتَنَا بِالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ، وَأَنْ نَعْمَلَ عَلَى تَجْنِيبِ نَوْعِنَا الْإِنْسَانِيِّ وَيْلاَتِ مَا تَرْمِي إِلَيْهِ الْغَرَائِزُ مِنْ شُرُورٍ لَا فَائِدَةَ بِيُولُوجِيَّةً وَرَاءَهَا [1]. وَهَذِهِ النَّظْرَةُ إِلَى الْوُجُودِ لَا تَتَّشِحُ بِالسَّوَادِ، وَلَيْسَتْ نَظْرَةً تَشَاؤُمِيَّةً، إِذْ أَنَّ كُلَّ الْمَسَاوِئِ الَّتِي يَشْكُو مِنْهَا إِنْسَانُنَا الْمُعَاصِرُ لَا تَنْبَثِقُ مِنْ نَفْسِهِ، إِنَّمَا هِيَ نَتِيجَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلظُّرُوفِ الَّتِي اقْتَرَنَتْ بِتَطَوُّرِهِ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى أُخْرَى. وَالْفَرْدُ مَهْمَا كَانَ مُسْتَوَاهُ الثَّقَافِيُّ، وَطَبِيعَةُ الْأَوْضَاعِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ ، يَظَلُّ فِي تَوْقٍ لَا نِهَائِيٍّ إِلَى الِارْتِقَاءِ بِنَوْعِهِ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدُلُّ سُلُوكُهُمُ الظَّاهِرِيُّ عَلَى نَزْعَةٍ تُصَنَّفُ إِلَى شَرٍّ، عَنِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يُعْرَفُونَ بِالتَّقْوَى [2] .

إِنَّنَا قَدْ نَفْنَى، وَقَدْ نَسْتَمِرُّ فِي تَطَوُّرِنَا الصَّاعِدِ. إِلَّا أَنَّ الْإِنْسَانَ الذي بَرْهَنَ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي السَّيْرِ الِارْتِقَائِيِّ فِي وُسْعِهِ، إِذَا عَادَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِقِيَمِهِ، وَإِلَى إِدْرَاكِ الْهَدَفِ التَّطَوُّرِيِّ الَّذِي جَعَلَتْهُ لَهُ الْحَيَاةُ، أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى كُلِّ صُعُوبَةٍ، وَأَنْ يَمْحُوَ مِنْ مُسْتَقْبَلِهِ كُلَّ مَأْسَاةٍ : إِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ تَتَضَمَّنُ رَوْعَةَ الْكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَعُمْقَ الْإِيمَانِ بِالْمَصِيرِ الْأَكْمَلِ لِلْإِنْسَانِ». [3]

كارل ياسبيرس [4]

---

[1] فهي لا تعمل على انتخاب طبيعي للإنسان الأصلح (كما في عالم الحيوان على نحو ما تقول به نظرية التطور) ، بقدر ما تعمل على تدمير منجزاته الحضارية الماضية، و إعاقة سيرورة تطوره الآني والمستقبلي. ومثل هذه الشرور هي ما يجب أن يتصدى له الفكر الإنساني و كذا المعرفة العلمية .

[2] إن التفاؤل عند الأشرار يختلف عنه عند الأتقياء ؛ فالأول صادر عن حس أناني مفرط في أنانيته يختزل في شخوص أنصاره مصير الإنسانية كلها ، ويعتبر ما عداه من الناس الذين يقلون عنه قوة وجبروتا، أو يختلفون عنه في الرؤى بمثابة الحطب الذي يستخدم من أجل إبقاء نيران شرور الهيمنة لديه متقدة دائما . أما تفاؤل الأخيار والأتقياء فيقوم على تصور مستقبل الإنسانية كلها معقود الصلة بمثل العدل والتآخي والعمل من أجل الرقي الاجتماعي للإنسان في كنف السلم والعيش المشترك . (والمؤلف من دعاة النوع الثاني من التفاؤل بكل تأكيد) .

[3] كارل ياسبيرس ، مستقبل النوع الإنساني، ترجمة/ أورخان ميسّر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق 1974، ص ، (78– 79) بتصرف.

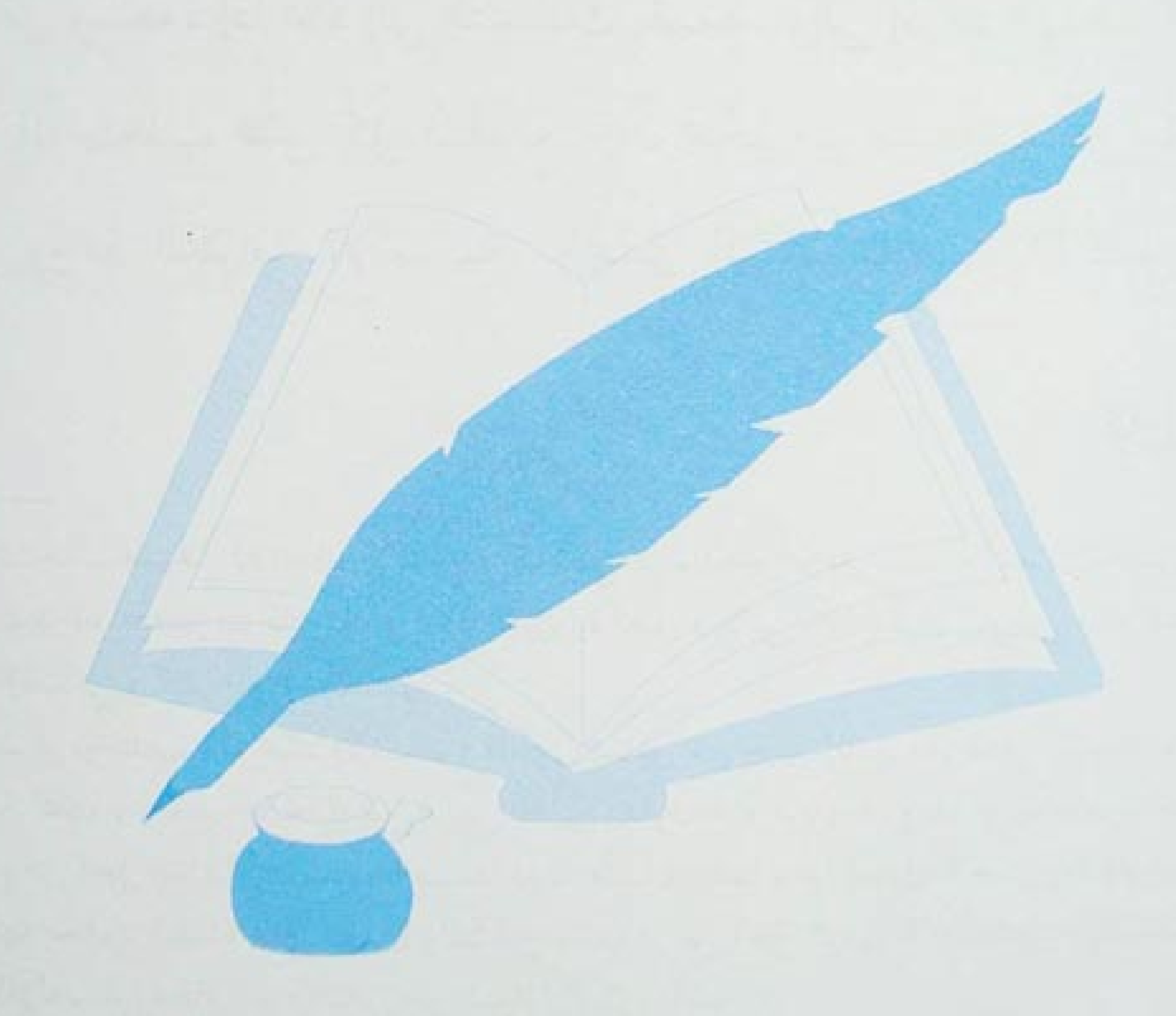
[4] Karl Yaspers هو فيلسوف وجودي ألماني معاصر(1883– 1969) ، يمثل أحد أعلام الوجودية غير الملحدة . له مواقف مشهودة في مناصرة السلم العالمي. من أهم مؤلفاته : فلسفة الوجود، علم النفس المرضي العام، مستقبل النوع الإنساني، سيكولوجيا إدراك العالم .

أسئلة :

1 – علّلْ لماذا اتجه كارل ياسبيرس إلى ربط قدرتنا في التحكم في مصيرنا بالتقدم العلمي ؟

2 – أوضحْ، بالكيفية نفسها، كيف أن تجاوز الشخصية لغرائز التنازع والعدوان، بضمانة من الأخلاق، هو بمثابة المبرّر لكل تفاؤل بمستقبل النوع البشري ؟

3 – حرّرْ فقرة تستعرض فيها طبيعة التوازن الذي يجب أن تتضمنه معادلة الفناء الكلي الذي يتهدّدنا ويتعارض مع كرامتنا، والفناء النسبي الذي هو من ضرورات التحكم في مصيرنا .



الإشكالية الثالثة: في فلسفة العلوم

إذا كانت الحقيقة حقائق وأصنافا شتى، فلماذا البحث عن الحقيقة المطلقة الواحدة؟ وكيف التمييز بينها وبين الواقع؟ وهل الحقائق العلمية واحدة في صرامتها وطريقة استنتاجها واستثمارها؟ وهل هي حقائق لا غبار عليها من الناحية الإبستيمولوجية؟ وهل يمكن استثمارها وكيف؟ وهل ما قدمته للإنسان، يساهم في محاربة جهله وترقية سعادته؟



مدخل

• **في الحقيقة العلمية والحقيقة الفلسفية المطلقة**: ما هي الحقيقة وما هي أصنافه ومقاييسها؟ أليست الحقيقة مهما كانت مطلقة، هي حقيقة نسبية، بالنسبة لصاحبها أو للمجال الذي يبحث فيه أو للتصور الذي يحمله ؟ ألا يلتبس الأمر بين الحقيقة و الواقع؟ و ما هذا الواقع الذي يلتبس بالحقيقة؟

• **في الرياضيات والمطلقية**: إن فلسفة العلوم، تطرح التساؤلات التالية: هل الرياضيات - هذه الصناعة المجردة - مستخلصة في أصلها البعيد مستخلصة من العقل أم من التجربة؟ وهل هي في كل الأحوال، صناعة دقيقة المنهج والنتائج؟ إلى أي حد يمكن القول بأن للرياضيات حدودا ومآخذ؟

• **في العلوم التجريبية والعلوم البيولوجية**: إذا كانت التجربة هي المقياس الأساسي، لجعل العلم علما، فهل العلوم التجريبية تعتبر علوما صارمة في تطبيق المنهاج التجريبي، و دقيقة في استخلاص نتائجها؟ ألا يمكن أن نتحدث عن مخاطر العمل بهذا المقياس في علوم المواد الحية؟

• **في علوم الإنسان والعلوم المعيارية** : هل نتحدث عن العلوم الإنسانية أم علوم الإنسان؟ وهل العلوم المعيارية علوم، إذا كانت لا تهتم بما هو كائن ؟ و إذا كانت هذه العلوم الإنسانية علوما على منوالها ، فهل عدم دقتها، يحول دون استثمار نتائجها في فهم الواقع البشري و التحكم فيه وتحويله حسب تطلعاته ؟

• **في الإبستيمولوجيا وقيمة العلم**: إن العلوم على اختلاف أصنافها، لا تدرك من الحقيقة إلا ما تسمح به طريقة العمل وأدواتها. فكيف وصلت مع ذلك، إلى تحويل العالم و إنشاء عالم التكنولوجيا؟ و هل هي في تحويلها للعالم مصدر خير دائما؟



50 - الحقيقة والوضوح

[إِذا كانَتِ الْحَقيقَةُ تُعَرِّفُ نَفْسَها بِنَفْسِها، فَلِماذا نَخْتَلِفُ في الْبَحْثِ عَنْها؟]

«اَلْحَقيقَةُ [1] هِيَ إِثْبَاتٌ أَوْ نَفْيٌ مُرْتَبِطٌ بِشَيْءٍ يَتَوافَقُ مَعَ هَذا الشَّيْءِ نَفْسِه. وَالْكَذِبُ هُوَ إِثْبَاتٌ أَوْ نَفْيٌ مُرْتَبِطٌ بِشَيْءٍ لَا يَتَوافَقُ مَعَ هَذَا الشَّيْءِ نَفْسِه [...].

إِنَّ الْأَشْيَاءَ الْوَاضِحَةَ فَوْقَ كُلِّ الْأَشْيَاءِ [2] لَا تُعَرِّفُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا فَقَطْ، إِنَّها تُعَرِّفُ أَيْضًا بِالْكَذِبِ بِحَيْثُ يَكُونُ مِنَ الْحَمَاقَةِ أَنْ نَسْأَلَ: كَيْفَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَعِيهَا؟ وَلِأَنَّها وَاضِحَةٌ فَوْقَ كُلِّ الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ وُضُوحٌ آخَرُ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَهَا أَوْضَحَ.

وَيَسْتَتْبِعُ هَذَا، أَنَّ الْحَقِيقَةَ تُعَرِّفُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا وَتُعَرِّفُ أَيْضًا بِالْكَذِبِ، وَأَنَّ الْكَذِبَ لَا يُعَرِّفُ وَلَا يُبَرْهِنُ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ. فَمَنْ يَمْلِكُ الْحَقِيقَةَ إِذَنْ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَشُكَّ فِي ذَلِكَ؛ أَمَّا الْغَائِصُ فِي الْكَذِبِ أَوِ الْخَطَإِ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ، فَبِإِمْكَانِهِ التَّصَوُّرُ بِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ؛ شَأْنُهُ شَأْنُ مَنْ يَحْلُمُ مَعَ ظَنِّهِ بِأَنَّهُ سَاهِرٌ، لَا شَأْنُ مَنْ يَسْهَرُ مَعَ ظَنِّهِ بِأَنَّهُ دَائِماً يَحْلُمُ.

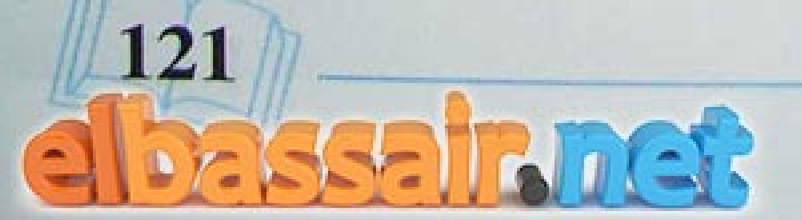
وَعَلَى ضَوْءِ مَا قِيلَ، يَنْكَشِفُ أَيْضًا، وَإِلَى حَدٍّ مَا، مَا كُنَّا نَقُولُهُ: وَهُوَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقِيقَةُ أَوْ أَنَّ الْحَقِيقَةَ هِيَ اللهُ نَفْسُهُ [3]. [...] مِنْ هُنَا، نَرَى الْكَمَالَ فِي مَنْ يَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ، إِنْ

---

[1] - الحقيقة عند سبينوزا بقطع النظر عن المجال الذي تتواجد فيه، إذا كانت قد تعني الصواب والصدق أحيانا، فإنها في حد ذاتها جوهر لا يتطرق إليه تغير ولا اضطراب.

[2] - من التساؤلات التي يطرحها سبينوزا في مجال المعرفة والحقيقة، ما يأتي: كيف أعرف أن معرفتي هي المعرفة الحقة؟ وهل من الممكن الوثوق بحواسي فيما تنقل إلى ذهني من المحسوسات؟ وفي إجابته، يميز بين أنواع من المعرفة واضعا ثقتنا في أفضلها وأحسنها، أهمها ثلاثة: الأول يأتينا عن طريق الأخبار والإشاعات، كمعرفتي بتاريخ ميلادي؛ الثاني يأتينا عن طريق التجربة الغامضة كمعرفة الطبيب طريقة العلاج كما هي في العرف؛ والثالث وهو أرقاها، ما يأتي عن طريق الإدراك المباشر كأن ندرك أن الكل أكبر من الجزء، وهذه تمثل المعرفة الحدسية والتي فيها تنبجس الحقيقة. وأولى الحقائق وأصلها عنده هو الله، فكل شيء كامن فيه، وكل شيء يحيا ويتحرك فيه.

[3] - الله عند المؤلف واحد وقدرته تمتد امتدادا لانهائيا، والسبب الوحيد هو الله وهو علة نفسه أي علة حرة وأولى. والحكيم هو من يبحث عن الله وما البحث عنه سوى السعي إلى معرفة الحقيقة.



نَحْنُ قَابَلْنَاهُ بِمَنْ لَيْسَ فِيهَا. فَبَيْنَمَا يَكُونُ أَحَدُهُمَا قَابِلاً لِلتَّغْيِيرِ بِسُهُولَةٍ، يَكُونُ الْآخَرُ غَيْرَ قَابِلٍ لَهُ بِسُهُولَةٍ. وَمِنْ هُنَا، يَنْتُجُ أَنَّ أَحَدَهُمَا يَمْتَلِكُ فِي نَفْسِهِ الثَّبَاتَ وَالْجَوْهَرَ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ. وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ فِي التَّفْكِيرِ الَّتِي تَتَوَافَقُ مَعَ الشَّيْءِ لِتَوَافُرِ الْأَسْبَابِ أَكْثَرَ، تَنْطَوِي هِيَ أَيْضًا، عَلَى ثَبَاتٍ أَكْثَرَ وَجَوْهَرٍ أَكْثَرَ؛ وَبِمَا أَنَّهَا تَتَوَافَقُ تَمَامًا مَعَ الشَّيْءِ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ تُصَابَ فِي أَيَّةِ لَحْظَةٍ كَانَتْ بِغَيْرِ الْأَثَرِ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ، أَوْ تَتَأَثَّرَ بِأَيِّ تَغَيُّرٍ؛ هَذَا فَضْلاً عَنْ أَنَّ جَوْهَرَ الشَّيْءِ كَمَا رَأَيْنَا ذَلِكَ سَابِقًا، ثَابِتٌ، وَلَيْسَ هَذَا شَأْنَ الْكَذِبِ» .[1]

باروخ سبينوزا[2]

أسئلة :

1 – بيِّنْ كيف أن وضوح الحقيقة يتجلّى في انطباقها مع الواقع .

2 – دافعْ عن الأطروحة التي يتبنّاها سبينوزا في موضوع الحقيقة .

3 – متى يمكن الحديث عن الحقائق بالجمع لا بالمفرد ؟



---

[1] – Spinoza، Œuvres 1، Court traité ، Garnier Flammarion، 1964. (2ème P. Ch. 15)

[2] – Spinoza Baroch فيلسوف هولندي (1632– 1677) معجب بديكارت ومعروف بثورته على التقليد ودعوته إلى طلب العلم والتحرر ؛ تمرد عن دينه اليهودي بفلسفته المشهورة بوحدة الوجود . من مؤلفاته المشهورة : مبادئ الفلسفة عند ديكارت ، مقالة في اللاهوت والسياسة ، والأخلاق .



51 - الحقيقة والنفع

[هَلْ هُناكَ مَا يَدْعُو إِلى الحَديثِ عَنِ الحَقيقَةِ المُطْلَقَة، مَا دَامَتِ المَوازِينُ النَّفْعِيَّةُ الطَّارِئَةُ هِيَ الَّتي تُحَدِّدُهَا ؟]

«إِنَّ القَبْضَ على الحَقيقَةِ – أَبْعَدُ مَا يَكُونُ هُنَا، عَن كَوْنِهِ غَايَةً في ذَاتِهَا [1] – لَا يَزِيدُ عَن كَوْنِه وَسِيلَةً أَوْ أَدَاةً أَوَّلِيَّةً لِبُلُوغِ أَنْوَاعٍ حَيَوِيَّةٍ أُخْرَى مِنَ الإِشْبَاعِ والرِّضَا والسُّرُورِ [2]. وإِذا قُدِّرَ لِي أَنْ أَضِلَّ طَرِيقِي في الغَابَةِ، وأَتَضَوَّرُ جُوعًا، ثُمَّ وَجَدْتُ مَا يُشْبِهُ طَرِيقًا مُعَبَّداً لِلبَقَرِ، فَإِنَّهُ لَأَمْرٌ بَالِغُ الأَهَمِّيَّةِ، أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ الاعْتِقَادُ بِوُجُودِ مَقَامٍ أَوْ مَأْوَى إِنْسَانِيٍّ في نِهَايَتِهِ، لأَنَّنِي إِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ، وَمَضَيْتُ في أَثَرِه، فَسَأُنْقِذُ حَيَاتِي.

إِنَّ الفِكْرَةَ الصَّحِيحَةَ هَهُنَا نَافِعَةٌ [3]، لأَنَّ المَقَامَ أَوِ المَأْوَى الذي هُوَ هَدَفُهَا أَوْ مَوْضُوعُها، نَافِعٌ. وَمِنْ ثَمَّةَ، فَإِنَّ القِيمَةَ العَمَلِيَّةَ لِلأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ، تُشْتَقُّ بِصِفَةٍ أَوَّلِيَّةٍ، مِنَ الأَهَمِّيَّةِ العَمَلِيَّةِ لِمَوْضُوعَاتِها بِالنِّسْبَةِ لَنَا.

وَلَيْسَ ثَمَّةَ رَيْبٌ، في أَنَّ مَوْضُوعَاتِهَا لَيْسَتْ في الحَقِيقَةِ، هَامَّةً في كُلِّ الأَوْقَاتِ؛ فَرُبَّمَا في مُنَاسَبَةٍ أُخْرَى، لَا تَكُونُ بِي حَاجَةٌ إِلى المَقَامِ أَوِ المَأْوَى وَعِنْدَئِذٍ، فَفِكْرَتِي عَنْهُ، مَهْمَا تَكُنْ مُحَقَّقَةً، سَتَكُونُ مِنَ النَّاحِيَةِ العَمَلِيَّةِ، فِكْرَةً مُنفَصِمَةً [4] وَغَيْرَ مُرْتَبِطَةٍ وَأَوْلَى بِهَا أَنْ تَظَلَّ

---

[1] – البحث عن الحقيقة لا يتعدّى غايتين : إما من أجل الحقيقة كحقيقة في حد ذاتها ، وإما من أجل تحقيق مشاريع حيوية تعود بالفائدة العملية لمن يتطلع إليها . الغاية الأولى تتمثل في البحث من أجل البحث ؛ والثانية تتمثل في البحث كوسيلة لأغراض شتى .

[2] – فلا معنى لاعتبار أمرٍ حقيقةً من الحقائق ، إنْ لم يُوفِّرْ لي أو لنا السعادة والراحة ويضمنْ أسباب الخروج من الأزمة والقلق .

[3] – إن الحقيقة تُقاس بمعيار العمل المُنتج ؛ فكل ما يؤدي إلى النجاح فهو حقيقي؛ وإنَّ كل ما يعطينا أكبر قسط من الراحة وما هو صالح لأفكارنا ومفيد لنا بأي حال من الاحوال ، فهو حقيقي

[4] – منفصمة أي منقطعة لا يحتاج إليها السياق .



كَمينَةً [1].[...] وكُلَّما أَصْبَحَتْ حَقيقَةٌ مِن تِلْكَ الحَقائِقِ الإِضافِيَّةِ، مُرْتَبِطَةً عَمَلِيًا بِمَطْلَبٍ عَاجِلٍ مِن مَطالِبِنا أَوْ بِضَرُورَةٍ مُلِحَّةٍ مِن ضَرُوراتِنا، فَإِنَّها تُنْقَلُ مِن مَخْزَنِ التَّبْريدِ حَيْثُ كانَتْ قابِعَةً، لِكَيْ تُؤَدِّيَ عَمَلاً في العالَمِ وَيَزْدادَ نَشاطُ اعْتِقادِنا بِها». [2]

وليم جيمس [3]

أسئلة :

1 – أُكتُبْ تمهيداً تحدِّدُ فيه الإطار الفكري للنص مبرزاً التقابُل بين البحث عن الحقيقة الثابتة والبحث عن الحقيقة التي تتغيَّرُ بتغير أسباب نجاحها .

2 – إن حلَّ مشاكل الإنسان تحتاج إلى أدوات؛ بيِّن على ضوء النص، كيف تتحوَّل الوسيلة إلى غاية .

3 – تأمَّلْ هذا السؤالَ، وقدِّمْ جواباً عنه : إذا كانت الحقيقة الظرفية تابعةً للعمل، أفلا تتعدد بتعدد الأعمال، ولم يَعُدْ للحديث عن الحقيقة المطلقة التابعة للفكر ما يبرِّرُهُ؟

---

[1] – كمينة أي تبقى محفوظة في الخفاء إلى أن تتهيأ لها الفرصة فتَظهر وتُبرهن على حقيقة صدقِها . يمكنك مثلا ، أن تعتبر العددَ (27) مكعب العددِ (3) أو حاصلَ ضربِ (3× 9) أو حاصل جمع (26 +1) أو باقي طرح (73) من (100) أو بطرقٍ لا نهاية لها، وكلُّها صادقة؛ فالأمر يتوقف على نوعية العملية الحسابية التي تستجيب وتنسجم مع الموقف .

[2] – وليم جيمس، البراغماتية، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص، (239–241) .

[3] – W.James فيلسوف أمريكي (1842 – 1910)، أشهر مؤسسي المذهب البراغماتي أو الذرائعي، من مؤلفاته: مبادئ علم النفس، والبراغماتية .



52 - بين البداهة[1] والقصد

[هَلْ يَعْنِي تَبايُنِ الحَقيقَةِ الفَلْسَفيَّةِ عَن الحَقيقَةِ العِلْميَّةِ عَدمَ وُجودِ تَكامُلٍ بيْنَهُما ؟]

« إنّنَا حينَمَا نَتَأمَّلُ في فِكْرَةِ العِلْمِ الكُلّيِّ[2] القَائِمِ علَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ ، وَالمُبرَّرِ تَبْريراً قَويًّا كُلَّ القُوَّةِ، لَا نَعْنِي بِذَلِكَ شَيْئاً آخَرَ غَيْرَ المَثَلِ الأَعْلَى الّذِي يَقُودُ جَميعَ العُلُومِ الّتِي تَسْعَى إلَى العُمُومِيَّةِ ، مَهْمَا تَكُنْ دَرَجَةُ تَحْقِيقِ هَذَا المَثَلِ الأَعْلَى مِن النَّاحيَّةِ العَمَليَّةِ[3] [...] .

إنَّ البَدَاهَةَ التَّامَّةَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِن حَقيقَةٍ خَالِصَةٍ مَضْبُوطَةٍ، إنَّمَا تَظْهَرَانِ لَنَا كَفِكْرَةٍ مُتَضَمِّنَةٍ في المَيْلِ إلَى مَعْرِفَةٍ حَدْسيَّةٍ[4] ؛ فَالصِّحَةُ وَالخَطَأُ، وَالنَّقْدُ وَمُطَابَقَةُ النَّقْدِ لِلْمُعْطَيَاتِ البَدِيهِيَّةِ ، إنْ هِيَ إلَّا مَوْضُوعَاتٌ أَثَّرَتْ مِن قَبْلُ في الحَيَاةِ السَّابِقَةِ عَلَى الحَيَاةِ العِلْميَّةِ .

أَمَّا العِلْمُ ذَاتُهُ ، فَيَبْغِي حَقَائِقَ ذَاتَ قِيمَةٍ نِهَائيَّةٍ وَيَتَقَبَّلُهَا الجَميعُ، حَقَائِقَ مُحَدَّدَةً تَبْتَدِئُ مِن التَّحْقِيقَاتِ الجَدِيدَةِ وَالأَخِيرَةِ. وَإذَا لَمْ يَسْتَطِعْ العِلْمُ في الوَاقِعِ، أَنْ يَنْجَحَ في بِنَاءِ مَنْظُومَةٍ مِن الحَقَائِقِ « المُطْلَقَةِ »، وَإذَا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَدِّلَ مِن الحَقَائِقِ المُكْتَسَبَةِ دُونَ أيِّ تَوَقُّفٍ، كَمَا لَا بُدَّ لَهُ مِن أَنْ يَنْتَهِيَ إلَى الاقْتِنَاعِ، فَإنَّهُ يَرْضَخُ مَعَ ذَلِكَ لِفِكْرَةِ الحَقيقَةِ المُطْلَقَةِ وَالحَقيقَةِ العِلْميَّةِ، وَيَمِيلُ بِذَلِكَ نَحْوَ أُفُقٍ لَا مُتَنَاهٍ مِن التَّقْرِيبَاتِ[5] تَأْتَلِفُ جَمِيعاً في هَذِهِ الفِكْرَةِ . وَالعِلْمُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِمَعُونَةِ هَذِهِ التَّقْرِيبَاتِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَجَاوَزَ المَعْرِفَةَ السَّاذِجَةَ، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ ذَاتَهُ أَيْضاً بِصُورَةٍ لَا نِهَائيَّةٍ.

إنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِذَلِكَ أَيْضاً بِالغَايَةِ الَّتِي يَضَعُهَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ، أَيْ بِالعُمُوميَّةِ التَّنْظِيميَّةِ لِلْمَعْرِفَةِ، تِلْكَ العُمُوميَّةُ النِّسْبيَّةُ : إمَّا بِالنِّسْبَةِ إلَى هَذَا المَجَالِ العِلْمِيِّ المُغْلَقِ،

---

1. مصطلح ديكارتي يعني الوضوح المطلق للحقائق بفضل حدوس العقل الأولية (الأفكار الفطرية) .
2. مصطلح أرسطي يفيد معنى معرفة الحقيقة من الوجهة الأنطولوجية (فلسفة الوجود) .
3. ومعنى ذلك وجوب أن تقود التأملات الفلسفية مجمل بحوث العلم .
4. المعرفة الحدسية هي التي لا تحتاج إلى برهان على النقيض من المعرفة الاستدلالية .
5. يقصد أنه على العلم الوضعي أن يكتفي بالحقائق الجزئية والتقريبية بخلاف الفلسفة .

وَإِمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْوِحْدَةِ الكُلِّيَّةِ لِلْوُجُودِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَالَّتِي لَا بُدَّ لَهُ مِن افْتِرَاضِهَا بِصُورَةٍ مُسْبَقَةٍ إِذَا كَانَ الأَمْرُ أَمْرَ «فَلْسَفَةٍ» [1] مِن الفَلْسَفَاتِ، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِن أَنْ يَكُونَ مُمْكِناً. وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ، أَنَّ فِكْرَةَ العِلْمِ وَالفَلْسَفَةِ تَتَضَمَّنُ مِن وِجْهَةِ نَظَرِ القَصْدِ الغَائِيِّ [2] نِظَاماً مِن المَعَارِفِ السَّابِقَةِ بِذَاتِهَا وَالمُضَافَةِ إِلَى مَعَارِفَ أُخْرَى لَاحِقَةٍ بِذَاتِهَا». [3]

إدموند هوسرل [4]

أسئلة :

1 – عدّدْ خصائص العلم الكلي (الفلسفة) كما بسطها هوسرل في نصه.

2 – أوضحْ، بالكيفية نفسها، مميزات العلم الوضعي.

3 – ما هي طبيعة العلاقة التي تربط إذن، بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة العلمية؟

4 – قيِّمْ، في بضعة أسطر، البنية المنطقية لأطروحة صاحب النص.



[1]- أي أن العلم الوضعي يبقى نسبيا لكونه يقوم أولا على التخصص، وثانيا على التبعية لفلسفة ما.

[2]- إن القصد الغائي هو أساس المذهب الظواهري لهوسرل ؛ فلا شعور إلا بموضوع، ولا علم إلا لغاية.

[3]- إدموند هوسرل، تاملات ديكارتية، ترجمة/ تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1958، ص، (62 – 63) بتصرف.

[4] - Edmund Husserl هو فيلسوف الماني محدث (1859– 1938) مؤسس الظواهرية كمنهج فلسفي في نظرية المعرفة، وكمذهب مهّد لظهور الوجودية. من مؤلفاته: افكار رئيسية من أجل الظواهرية، و تاملات ديكارتية.



53 ـ المكان الهندسي والمطلقية

[هَل المَكَانُ الهَنْدَسِيُّ مَفْهُومٌ مُطْلَقٌ في ظِلِّ تَعَدُّدِ الهَنْدَسَاتِ في الرِّيَاضِيَّاتِ المُعَاصِرَة؟]

« إِنَّ مَسْأَلَةَ الحَقِيقَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ نَنْسبَهَا إِلَى قَضَايَا هَنْدَسِيَّةٍ مَا، أَصْبحَتْ تَعْنِي فَقَطْ عَدَمَ تَنَاقُضِ تِلْكَ القَضَايَا فِيمَا بَيْنَهَا وَلَا تَعْنِي إِطْلَاقًا المَعْنَى القَدِيمَ لِلْحَقِيقَةِ؛ وَهوَ مُطَابَقَةُ القَضَايَا لِلْوَاقِعِ أَوْ المَكَانِ الخَارِجِيِّ.

إِنَّ هَذَا التَّصَوُّرَ الجَدِيدَ لِلْحَقِيقَةِ الرِّيَاضِيَّةِ طَعْنَةٌ نَجْلَاءُ [1] لِنَظَرِيَّةِ (كانط) في الحَدْسِ المَكَانِيِّ [2] الَّتِي سَيْطَرَتْ طَوِيلاً عَلَى الفِكْرِ الرِّيَاضِيِّ، وَالَّتِي رَأَتْ فِي هَنْدَسَةِ (إقليدس) [3] الهَنْدَسَةَ الوَحِيدَةَ وَالضَّرُورِيَّةَ بِسَبَبِ تَعْبِيرِهَا عَنْ خَوَاصِّ المَكَانِ أَوْ مُطَابَقَتِهَا لَهُ. وَلَا فَرْقَ عِنْدَنَا بَيْنَ مَنْ يَرَى أَنَّ المَكَانَ قَائِمٌ فِي العَالَمِ الخَارِجِيِّ كَالوَاقِعِيِّينَ جُمْلَةً وَعَلَى رَأْسِهِمْ (نيوتن) [4]، وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ إِنَّ المَكَانَ مِنَ العَنَاصِرِ القَبْلِيَّةِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الذِّهْنُ الإِنْسَانِيُّ وَحْدَهُ دُونَ العَالَمِ الخَارِجِيِّ كَـ (كانط)، إِذْ لَا يَهُمُّنَا هُنَا فِي الحَقِيقَةِ أَنْ يَكُونَ المَكَانُ خَارِجِيًا بِالنِّسْبَةِ لِلْفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ أَوْ قَبْلِيًا فِيهِ، وَإِنَّمَا يَهُمُّنَا فَقَطْ أَنْ نَرَى بِوضُوحٍ كَيْفَ اسْتَقَلَّتْ قَضَايَا الهَنْدَسَةِ عَنِ المَكَانِ أَيًا كَانَ، وَلَمْ تَعُدْ تُقَاسُ الحَقِيقَةُ فِيهَا بِمَدَى صِلَتِهَا بِالمَكَانِ أَوْ مُطَابَقَتِهَا لَهُ، وَإِنَّمَا تُقَاسُ فَقَطْ بِمِيزَانٍ مَنْطِقِيٍّ صِرْفٍ هُوَ عَدَمُ تَنَاقُضِهَا فِيمَا بَيْنَهَا فِي دَاخِلِ كُلِّ هَنْدَسَةٍ عَلَى حِدَةٍ.

هَذَا هُوَ مَعْنَى الحَقِيقَةِ الَّذِي أَدَّتْ إِلَيْهِ نَشْأَةُ الهَنْدَسَاتِ وَتَطَوُّرُهَا نَتِيجَةً لِحَرَكَةِ النَّقْدِ البَاطِنِيِّ [...] .

---

[1]- طعنة نجلاء = بمعنى هجوم كاسح، وهدم مؤثر أو إطاحة.

[2]- هي النظرية المنسوبة إلى الفيلسوف الألماني كانط (1724– 1804) والتي تنص على اعتبار مفهومي المكان والزمان من ضمن الأحكام القبلية؛ أي المتصفة بكونها عقلية مطلقة لكنها تقوم كإطار للتجربة.

[3]- رياضي إغريقي قديم تنسب إليه أول هندسة متكاملة تعرف باسمه.

[4]- فيزيائي إنجليزي (1643 – 1727) صاغ قوانين الحركة الأساسية للميكانيكا، ونظرية الجذب العام .

إنَّ الهَنْدَسَةَ الإقْليدِيَّةَ [1] لَيْسَتْ إلَّا واحِدَةً مِنْ عَدَدٍ لَا يَنْتَهي مِنَ المُمْكِنَاتِ الهَنْدَسِيَّة، وَالحَقيقَةُ الهَنْدَسِيَّةُ تَعْني اتِّساقَ أو انْسِجامَ مَجْموعَةٍ مِنَ القَضايَا غَيْرِ المُتَناقِضَةِ الَّتي تُسْتَنْبَطُ مِنْ عَدَدٍ مِنَ المُسَلَّمَاتِ، وَالمُسَلَّمَاتُ تَخْتَلِفُ مِنْ هَنْدَسَةٍ إلَى أُخْرَى، وَلَا يَصِحُّ أنْ نَنْسِبَ إلَيْهَا صِفَةَ الحَقِيقَةِ بِمَعْنَاهَا القَدِيمِ؛ أيْ المُطَابَقَةِ لِخَواصِّ مَكانٍ مَا، لأنَّنا لا نَعْلَمُ أيَّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ المُسَلَّمَاتِ حَقِيقِيَّةٌ بِهَذَا المَعْنَى، وَكُلُّ مَا نَسْتَطِيعُ أنْ نَنْسِبَهُ إلَى كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنْهَا مِنْ مَعَانِي الحَقِيقَةِ، هِيَ أنَّهَا مَجْمُوعَةٌ قَادِرَةٌ عَلَى تَحَمُّلِ عِبْءِ البُرْهَانِ عَلَى عَدَدٍ مِنَ القَضَايَا المُعَيَّنَةِ دُونَ تَنَاقُضٍ بَيْنَهَا». [2]

محمد ثابت الفندي [3]

أسئلة :

1 – عيّنْ طبيعة المكان عند كانط (بناء على هندسة إقليدس) وما يعاب عليها في نظر المؤلف.

2 – اربطْ العلاقة بين ظهور هندسات أخرى متعدّدة وهدم مفهوم المكان الهندسي المطلق.

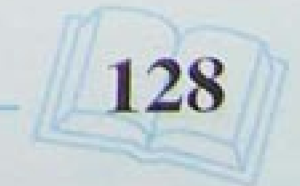
3 – استنادا إلى النص، فيمَ يتمثّل إذن، مفهوم الحقيقة الهندسية في الرياضيات المعاصرة ؟

---

[1]. نسبة إلى إقليدس، وأما الهندسات الأخرى فأبرزها هندسة ريمان، وهندسة لوباتشيفسكي.

[2]. محمد ثابت الفندي، فلسفة الرياضة، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت 1969 ص ، (63).

[3]. هو باحث جامعي ومترجم عربي معاصر، درّس في كثير من الجامعات العربية. من آثاره : أصول المنطق الرياضي، وفلسفة الرياضة.



54 - الرياضيات وأنساقها

[إذا كانت الحقيقة الرياضية تفقد معناها خارج نسقها ، فهل إنها تتعدد بتعدد أنساقها ؟]

« لا نَدْري كَيفَ أَوْحى إِخْفاقُ البَرْهَنةِ المُباشِرَة، بفكْرَةِ البَرْهَنة بالخُلْف [1] ، ولا كَيفَ وَصَلَ سَريعًا ، إِخْفاقُ البَرْهَنَة بالخُلْف [2] بِدَوْرِه وعَنْ طَريقِ انقلابِ وِجْهَة النَّظَر، إلى بِناءِ الهَنْدَسات الأُولى المُسَمّاة باللاَّإقْليدِيَّة ؟ [...]

وَالفِكْرَةُ الَّتي ظَهَرَتْ هكَذا بِمُناسَبَةِ نَظَرِيَّةِ المُتَوازِيات، كانَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَمْتَدَّ امْتِدادًا طَبيعيًا إِلى جَميعِ المُصادَرات. وَعِنْدَها، نَرى انْفِصالَ مَظْهَرَيِ الحَقيقَةِ الهَنْدَسِيَّةِ الَّذَيْنِ كانا إِلى هذا الحينِ، مُخْتَلِطَيْنِ في وِحْدَةٍ مُذْهِلَة . لَقَدْ كانَتِ النَّظَرِيَّةُ في الهَنْدَسَةِ خَبَرًا عَنِ الأَشْياء وَبِناءً مِنْ طَرَفِ الفِكْر، أَيْ كانَتْ قانونًا فيزيائيًا وقِطْعَةً مِنْ نَسَقٍ مَنْطِقِيٍّ، كانَتْ حَقيقَة حَدَثٍ وَحَقيقَةَ عَقْلٍ. وَمِنْ هاتِه الأَزْواجِ المُفارِقَة، تَتَخَلّى الآنَ وَحَتْمًا، الهَنْدَسَةُ النَّظَرِيَّةُ عَنِ العُنْصُرِ الأَوَّلِ [3] الَّذي أَعادَتْهُ إِلى الهَنْدَسَةِ التَّطْبيقِيَّة. فَلَمْ يَعُدْ في النَّظَرِيّاتِ مِنْ مُبَرِّرٍ لِوُجودِ حَقيقَةٍ مُنْفَصِلَة، وَبِعِبارَةٍ أُخْرى لِوُجودِ حَقيقَةٍ ذَرِّيَّة : فَحَقيقَتُها ما هِيَ سِوى انْدِماجِها في النَّسَقِ فَقَطْ؛ وَلِهذا، فَبِإِمْكانِ النَّظَرِيّاتِ المُتَنافِرَةِ فيما بَيْنَها أَنْ تَكونَ أَيْضًا صادِقَةً، شَريطَةَ أَنْ نُلْحِقَها بِأَنْساقٍ مُخْتَلِفَة. أَمّا الأَنْساقُ ذاتُها ، فَلَمْ يَعُدِ الأَمْرُ بالنِّسْبَةِ إِلَيْها، يَتَعَلَّقُ بالصِّدْقِ أَوْ بالكَذِبِ إِلاَّ إِذا ارْتَبَطَ بالمَعْنى المَنْطِقِيِّ للتَّماسُكِ أَوِ التَّناقُضِ الدّاخِلِي. إِنَّ المَبادِئَ الَّتي تَحْكُمُها

---

[1] – البرهان بالخلف هو الاستدلال الذي يحكم بصحة قضية بعد رفع نقيضها. فإذا كان المكان إما مسطحا أو لامسطحا ، وثبت كذب القضية الثانية، تقرر صدق كون المكان مسطحا.

[2] – وإذا كان البرهان بالخلف مرفوعا ، اتسع المجال إلى مساع برهانية أخرى: فإذا كانت القضية الثانية « لامسطح » محتملة، فإن القضية الاولى « مسطح » مجرد حالة من الحالات المحتملة أيضا. ولهذا فالأخذ بمنطلق يختلف عن منطلق القضية الاولى لا يؤدي بالضرورة إلى تناقض .

[3] – العنصر الاول هو الهندسة المرتبطة بعالم الاشياء والأحداث.



هِيَ مُجَرَّدُ افْتِرَاضَاتٍ [1] فِي الْعُرْفِ الرِّيَاضِيِّ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ: فَهِيَ فَقَطْ، مَوْضُوعَةٌ وَلَيْسَتْ مُؤَكَّدَةً وَلاَ مَشْكُوكًا فِيهَا، كَمَا فِي تَخْمِينَاتِ الْعَالِمِ الْفِيزِيَائِي؛ إِلاَّ أَنَّهَا خَارِجَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، كَقَرَارٍ أَوِ اصْطِلاَحٍ. هَكَذَا، تَأْخُذُ الْحَقِيقَةُ الرِّيَاضِيَّةُ طَابَعًا شُمُولِيًا: إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ تَضْمِينِيَّةٌ وَاسِعَةٌ، يُشَكِّلُ فِيهَا ارْتِبَاطُ كُلِّ الْمَبَادِئِ، الْمُقَدَّمَ؛ وَيُشَكِّلُ فِيهَا ارْتِبَاطُ كُلِّ النَّظَرِيَّاتِ، التَّالِيَ». [2]

رُوبِير بلانْشي [3]

أسئلة:

1 – أبرزْ كتمهيد لتحليل النص، خصائص الرياضيات التقليدية وأساسها المنطقي.

2 – بيِّنْ كيف أن الأنساق تحافظ كلها على صدقها على الرغم من وجود التنافر فيما بينها.

3 – ما قيمة الحقيقة الرياضية التابعة لنسق قائم على مجرد معطيات افتراضية ؟

---

[1] – لم تعد الرياضيات اليوم تتحدث عن المنطلقات الرياضية باعتبارها مبادئ بديهية ثابتة، لأنها في الحقيقة مجرد افتراضات تابعة لاختيار العقل الرياضي الحر.

[2] – Robert BLANCHE، L'axiomatique، Edition، PUF، 1967، p. (6).

[3] – Robert BLANCHE عالم فرنسي معاصر (1898 – 1975) تخصص في المنطق والإبستمولوجيا. من مؤلفاته: مقدمة في المنطق المعاصر، والأكسيوماتيك.



55 - نشأة الفرض [1] التجريبي

[ما طَبيعَةُ العَوامِلِ الَّتي تُساهِمُ في نَشْأَةِ الفَرْضِ، وَما أَهَمِيَّتُها في البَحْثِ العِلْمِيِّ؟]

«إِنَّ نَشْأَةَ الفُرُوضِ تَقُومُ عَلَى عَوامِلَ خارِجِيَّةٍ وَأُخْرَى باطِنِيَّةٍ. أَمَّا العَوامِلُ الخارِجِيَّةُ فَأَوَّلُها أَنْ يَبْدَأَ الإِنْسانُ مِنْ واقِعَةٍ مُلاحَظَةٍ في التَّجْرِبَةِ الجُزْئِيَّةِ، وَيُفَكِّرَ فيها. وَابْتِداءً مِنْ هذِهِ الواقِعَةِ يُحاوِلُ أَنْ يَفْتَرِضَ ما عَسَى أَنْ يَكُونَ القانُونُ الَّذي تَخْضَعُ لَهُ هِيَ وَأَمْثالُها. وَقَدْ رَأَيْنا، عِنْدَ كَلامِنا عَنْ قانُونِ سُقُوطِ الأَجْسامِ عِنْدَ (غاليلي) [2]، كَيْفَ أَنَّهُ ابْتَدَأَ مِنْ ظاهِرَةٍ أَوْ واقِعَةٍ بَسيطَةٍ مُشاهَدَةٍ، هِيَ ازْدِيادُ الإِسْراعِ كُلَّما اقْتَرَبَ الجِسْمُ مِنَ الأَرْضِ، فَأَدَّى بِهِ هَذا الَّذي شاهَدَهُ إِلَى افْتِراضِ قانُونٍ يُمْكِنُ أَنْ تَسيرَ عَلَيْهِ الأَجْسامُ في سُقُوطِها.

وَثانِيًا: قَدْ تَنْشَأُ الفُرُوضُ مِنْ مُجَرَّدِ الصُّدْفَةِ، فَكَثيرًا ما يَقَعُ الإِنْسانُ عَلَى ظَواهِرَ تَهْديهِ إِلَى وَضْعِ فَرْضٍ دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَدَ إِلَى ذَلِكَ فِعْلًا [3] [...].

وَأَمَّا العَوامِلُ الدّاخِلِيَّةُ فَهِيَ أَخْطَرُ مِنْ هذِهِ بِكَثيرٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ العَوامِلَ الخارِجِيَّةَ لَيْسَتْ إِلَّا مُجَرَّدَ فُرَصٍ وَمُناسَباتٍ لِوَضْعِ الفَرْضِ، وَلا يُمْكِنُ بِأَيِّ حالٍ مِنَ الأَحْوالِ أَنْ تَكُونَ شُرُوطًا كافِيَةً لِلافْتِراضِ، فَأَكْثَرُ الظَّواهِرِ الَّتي شاهَدَها كِبارُ العُلَماءِ، وَأَقامُوا عَلَيْها فُرُوضَهُمُ العِلْمِيَّةَ، يُشاهِدُها كُلُّ النّاسِ كُلَّ يَوْمٍ دُونَ أَنْ يُثيرَ ذَلِكَ أَدْنَى انْتِباهٍ فيهِمْ؛ فَالأَمْرُ يَتَوَقَّفُ في هذِهِ الحالَةِ عَلَى العَوامِلِ الباطِنِيَّةِ، أَيْ عَلَى الأَفْكارِ الَّتي تُثيرُها الظَّواهِرُ الخارِجِيَّةُ في نَفْسِ المُشاهِدِ.

وَالمُهِمُّ في هذِهِ الحالَةِ هُوَ أَنْ يُحيلَ الإِنْسانُ المُشاهِدُ هذِهِ الظَّواهِرَ إِلَى وَقائِعَ عِلْمِيَّةٍ يَكُونُ

---

[1] - ويسمى أيضا بالفرضية والافتراض (Hyppothèse).

[2] - Galilée عالم طبيعة وفلكي إيطالي (1564 – 1642) مكتشف قانون القصور الذاتي وسقوط الأجسام.

[3] - ويروق للكثيرين الاستشهاد بسقوط التفاحة بالصدفة والتي أدّت بنيوتن إلى اكتشاف قانون الجاذبية.



مِنْ مَجْمُوعِهَا قَانُوناً أَوْ نَظَرِيَّةً، وَهَذَا لَنْ يَتِمَّ إِلَّا بِوَاسِطَةِ وَضْعِ فِكْرَةٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُفَسِّرَ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ [...] إِنَّنَا هُنَا لَسْنَا بِإِزَاءِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الإِلْهَامِ أَوْ مِنَ الوِجْدَانِ الصُّوفِيِّ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَسْبِقَ هَذَا الافْتِرَاضَ مَا سَمَّيْنَاهُ «النِّظَامُ التَّحْلِيلِيُّ» الَّذِي يُوجَدُ فِي عَقْلِ كُلِّ عَالِمٍ، وَالَّذِي يَهْدِيهِ خِلَالَ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ إِلَى تَوَسُّمِ[1] القَانُونِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ تُفَسَّرَ عَلَى أَسَاسِهِ؛ وَهَذَا التَّوَسُّمُ يَتِمُّ بِمِرَانٍ طَوِيلٍ، وَبِإِعْدَادٍ يَتَعَلَّقُ بِالنِّظَامِ التَّحْلِيلِيِّ لِكُلِّ عَالِمٍ عَلَى حِدَةٍ، وَهُوَ نِظَامٌ يَنْشَأُ وِفْقَ المُمَارَسَةِ الطَّوِيلَةِ لِعِلْمٍ مُعَيَّنٍ أَوْ لِقُدْرَةٍ هَائِلَةٍ عَلَى تَخَيُّلِ القَاعِدَةِ الصَّحِيحَةِ لِظَاهِرَةٍ مَا مِنَ الظَّوَاهِرِ».[2]

عبد الرحمن بدوي[3]

أسئلة:

1 – تحدّثْ، على ضوء النص، عن العوامل الخارجية، وبيّن أهميتها في المنهج التجريبي.

2 – استعرضْ، بالكيفية نفسها، العوامل الباطنية محدّدا قيمتها العلمية.

3 – دوّنْ فقرة تبرهن فيها على أن البحث العلمي يمثل محصلة لتظافر التجربة مع العقل.

---

[1] توسّمُ الشيء = التنبؤ به، واستشرافه وتخمينه.

[2] عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت 1977 ص، (146).

[3] هو باحث ومترجم وأستاذ جامعي ومفكر عربي معاصر (1917– 2002) روّج لمذهب الوجودية، واهتم كثيرا بالتراث الإسلامي في التصوف والفلسفة، وعالج القضايا الفكرية المعاصرة. وهو مؤلف غزير الإنتاج. من أهمّ مؤلفاته: الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، الزمان الوجودي، مناهج البحث العلمي، شخصيات قلقة، أفلاطون في الإسلام، و شهيدة العشق الإلهي.

56 - النسبية والنظام المرجعي

[هَلْ الإِقْرَارُ بِمَبْدَأ النِّسْبِيَّةِ، يَرْفَعُ الحَدِيثَ عَنِ الحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ؟]

«لِنَفرِضْ وُجُودَ مِصْعَدٍ مُقْفَلٍ بِصُورَةٍ جَيِّدَةٍ، دَاخِلَ مَبْنًى ضَخْمٍ نَاطِحِ سَحَابٍ، وَهُوَ مِصْعَدٌ يَتَّخِذُهُ عَالِمٌ فِيزِيَائِيٌّ كَنِظَامٍ مَرْجِعِيٍّ [1] حَيْثُ يُجْرِي تَجَارِبَ. فَفِي حَالَةِ عَدَمِ تَشْغِيلِ المِصْعَدِ هَذَا، يَكُونُ سُقُوطُ الأَجْسَامِ تُجَاهَ أَرْضِيَّةِ المِصْعَدِ، أَمْرًا عَادِيًّا. وَفِي حَالَةِ ارْتِفَاعِ المِصْعَدِ، يَبْدُو وَكَأَنَّ الجَاذِبِيَّةَ تَتَزَايَدُ إِذِ الأَجْسَامُ تَسْقُطُ بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ.

وَلْنَفْرِضْ أَخِيرًا، المِصْعَدَ مَتْرُوكًا لِسُقُوطٍ حُرٍّ مِنْ أَعْلَى العِمَارَةِ؛ فَفِي هَذِهِ الحَالَةِ، لَوْ تَرَكَ العَالِمُ الفِيزِيَائِيُّ سَاعَتَهُ وَمِنْدِيلَهُ لِشَأْنِهِمَا، لَلاَحَظَ أَنَّ هَاتِهِ الأَشْيَاءَ تَسْبَحُ فِي الهَوَاءِ وَتَبْقَى فِي مُتَنَاوَلِهِ دُونَ أَنْ تَتَّجِهَ نَحْوَ الأَرْضِيَّةِ [2].

أَمَّا المُلاَحِظُ الخَارِجِيُّ، فَإِنَّهُ يَرَى فِعْلاً، أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الأَجْسَامِ: المِصْعَدَ، وَالعَالِمَ الفِيزِيَائِيَّ، وَالسَّاعَةَ، وَالمِنْدِيلَ، كُلَّهَا تَسْقُطُ تُجَاهَ الأَرْضِ بِنَفْسِ السُّرْعَةِ (تَجْرِبَةُ «غَالِيلِي»). [3] وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَالِمِ الفِيزِيَاءِ دَاخِلَ المِصْعَدِ، فَلاَ وُجُودَ [بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ] لِـ عُلُوٍّ وَلاَ لِـ تَحْتَ، وَلاَ وُجُودَ لاتِّجَاهٍ مُفَضَّلٍ: إِنَّ الجَاذِبِيَّةَ قَدْ تَلاَشَتْ وَالمِصْعَدَ أَضْحَى نِظَامًا غَالِيلِيًّا [4]:

وَكُلُّ شَيْءٍ نَسْتَثِيرُهُ عَنْ طَرِيقِ دَفْعَةٍ خَفِيفَةٍ، يَأْخُذُ فِي الاتِّجَاهِ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ إِلَى أَنْ يَقْرَعَ جَوَانِبَ الغُرْفَةِ [...].

---

[1] – النظام المرجعي هو الميزان الاساسي أو المقياس الذي يعتمد عليه في كل تقدير واعتبار.

[2] – لان ما ينطبق على المصعد من جاذبية خارجية ينطبق أيضا، على الأشياء داخله. إلا أن هذه الأشياء تبدو لمن هو داخل المصعد وكأنها مستقرة.

[3] – وهي تجربة قام بها «غاليلي» (العالم الإيطالي 1564 – 1642) في برج «بيزا» المائل، القصد منها التأكد من أن كل الأجسام تسقط ضرورة بنفس السرعة.

[4] – وهو نظام ينسب إلى «غاليلي» ومفاده هو كل نظام تكون فيه الحركات متسقة الانتظام.



وَالْعَالِمُ الْفِيزِيَائِيُّ الَّذِي نَشَأَ وَتَرَبَّى دَاخِلَ الْمِصْعَدِ فِي سُقُوطٍ حُرٍّ ، وَالَّذِي كَانَ يَعْتَبِرُ هَذَا الْمِصْعَدَ فِي حَالَةِ سُكُونٍ (إِنَّ النَّاسَ كَانُوا فِعْلاً يَعْتَبِرُونَ الْأَرْضَ وَكَأَنَّهَا فِي حَالَةِ سُكُونٍ)، سَيُلَاحِظُ بِأَنَّهُ يَعِيشُ فِي نِظَامٍ « غَالِيلِيٍّ »[1]، وَسَيُطَالِبُ بِحَقٍّ تَفْضِيلِهِ لِهَذِهِ الْفَرْضِيَّةِ فِي وَصْفِ الطَّبِيعَةِ، عَلَى فَرْضِيَّةِ الْمُلَاحِظِ الْخَارِجِيِّ الَّذِي يَرَى الْمِصْعَدَ فِي أَثْنَاءِ سُقُوطِهِ . وَهَذَا الْمُلَاحِظُ الْأَخِيرُ سَيُفَسِّرُ نَفْسَ الظَّوَاهِرِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَعْمَلَ عَلَى إِطْبَاقِ حَرَكَةٍ مُتَسَارِعَةٍ تَسَارُعًا مُتَّسِقًا فِي الِانْتِظَامِ ، مَعَ مَجَالِ الْجَاذِبِيَّةِ؛ وَهَذَا أَمْرٌ أَقَلُّ بَسَاطَةً، وَلَكِنِ الْوَصْفُ مُتَمَاسِكٌ فِي الْحَالَتَيْنِ .[2]

فَمِنْ نِظَامٍ غَالِيلِيٍّ (حَرَكَةٌ مُتَّسِقَةٌ فِي الِانْتِظَامِ) إِلَى نِظَامٍ لَاغَالِيلِيٍّ (حَرَكَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ)، يُمْكِنُنَا الِانْتِقَالُ، وَلَكِنْ شَرِيطَةَ أَنْ نَأْخُذَ الْجَاذِبِيَّةَ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ . فَمَجَالُ الْجَاذِبِيَّةِ جِسْرٌ يَسْمَحُ بِالِانْتِقَالِ مِنْ نِظَامٍ مَرْجِعِيٍّ مَا إِلَى نِظَامٍ مَرْجِعِيٍّ آخَرَ».[3]

بول كوديرك[4]

---

1 – وهذا مجرد حدس أو انطباع .

2 – وهو متماسك بالنظر إلى سياقه ونظامه .

3 - Paul Couderc، La Relativité، PUF، 1941، p. (102 – 103).

4 – Paul Couderc هو عالم معاصر اختص في الفيزياء والفلك، من مؤلفاته : النسبية .

أسئلة :

1 - حدّدْ المفاهيم المفتاحية الآتية: المطلق والنسبي، الثابت والمتغير، التقدير (أو الاعتبار) والتقرير مستعينا بها في تقديم النص.

2 - بيّنْ كيف أن اختلاف زوايا تقدير الأشياء يؤثر في بناء المفاهيم وإصدار الأحكام؟

3 - إلى أيّ حدّ يمكن لنظرية النسبية العامة أن تؤثر في القيم الدينية والأخلاقية فضلا عن الحياة الاجتماعية والثقافية؟



57 ـ الظواهر البيولوجية والحتمية

[إذا كانَت الأَشْياءُ الَّتي تغمُرُهاالحياةُ تختلفُ في خَصائصِها عَن الأَشْياء الجامدَة، فَهَل الحَتميَّةُ الَّتي تحكُمُ الظَّواهِرَالفيزْيائيَّةَ تحكُمُ أيْضاً وبالضَّرورةِ، الظَّواهِرَالبيُولوجِيَّةَ ؟]

«لاَ بُدَّ منَ التَّسْليم كَبَديهَةٍ تجْريبيَّةٍ [1]، بِأَنَّ شُرُوطَ وُجُود كُلِّ ظَاهِرَةٍ ـ سَوَاءٌ تَعَلَّقَ الأَمْرُ بالْكَائنَات الْحَيَّة أَوْ بالأَجْسَام الْجَامدَة ـ هيَ مُحَدَّدَةٌ تَحْديدًا مُطْلَقًا. وَهَذَا يَعْني بِتَعْبيرٍ آخَرَ، أَنَّ الظَّاهرَةَ إذَا عُرفَ شَرْطُهَا وَتُوَفَّرَ، وَجَبَ أَنْ تَحْدُثَ منْ جَديدٍ دَائمًا وَبالضَّرُورَة، وَذَلكَ حَسَبَ إرَادَة الْعَالم التَّجْريبيِّ [2]. وَمَا إنْكَارُ هَذه الْقَضيَّة سوَى إنْكَارٍ للْعلْم ذَاته [3]. وَبالْفعْل، فَإنَّ الْعلْمَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ سوَى الشَّيْء الْمُحَدَّد وَالشَّيْء الْقَابِل للتَّحْديد، فَإنَّهُ يَجبُ بالضَّرُورَة التَّسليمُ كَبَديهَةٍ بأَنَّ كُلَّ ظَاهرَةٍ هيَ وَاحدَةٌ في الشُّرُوط الْوَاحدَة [4]، وَأَنَّهُ حينَمَا لاَ تَعُودُ الشُّرُوطُ وَاحدَةً، فَإنَّ الظَّاهرَةَ تَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ تَكُونَ وَاحدَةً. فَهَذَا مَبْدَأٌ مُطْلَقٌ سَوَاءٌ تَعَلَّقَ الأَمْرُ بظَوَاهر الأَجْسَام الْجَامدَة أَوْ ظَوَاهر الْكَائنَات الْحَيَّة؛ وَلاَ يُمْكنُ لتَأْثير الْحَيَاة أَنْ يُغَيِّرَ في الْقَضيَّة شَيْئًا مَهْمَا كَانَ الرَّأْيُ فيه.

وَكَمَا قُلْنَا، فَإنَّ مَا يُسَمَّى بالْقُوَّة الْحَيَويَّة [5] هيَ علَّةٌ أُولَى تُمَاثلُ جَميعَ الْقُوَى الأُخْرَى منْ حَيْثُ إنَّنَا لاَ نَعْرفُ عَنْهَا شَيْئًا تَمَامًا. وَسَوَاءٌ سَلَّمْنَا أَوْ لَمْ نُسَلِّمْ بأَنَّ هَذه الْقُوَّةَ تَخْتَلفُ

---

[1] – المقصود بالبديهة التجريبية هو مبدأ الحتمية وهو مبدأ عقلي يلمس تجريبيا من خلال اكتشافنا للعلاقات الثابتة بين الظواهر. يقول آينشتاين: « إنه بدون الاعتقاد بأن هناك انسجاما داخليا في عالمنا هذا، فإنه لا يمكن أن يقوم العلم. فهذا الاعتقاد سوف يظل دائما الدافع الأساسي للإبداع العلمي ».

[2] – وهذا من خلال مراقبته للظاهرة في أثناء الملاحظة المباشرة أو في أثناء التجريب.

[3] – لأنه لا معنى للعلم في غياب الأخذ بمبدأ الحتمية.

[4] – يعني بالشروط الأسباب.

[5] – وأمر القوة الحيوية كعلة أولى و كسبب ميتافيزيقي أمر غامض لا تؤكده التجربة العلمية لأنه ينفلت من كل نظام وحتمية.



اخْتِلاَفًا جَوْهَرِيًا عَنِ الْقُوَى الْأُخْرَى الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي ظُهُورِ الْأَجْسَامِ الْجَامِدَةِ، فَإِنَّ هَذَا لاَ يَهُمُّ. غَيْرَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ حَتْمِيَّةٌ فِي الظَّوَاهِرِ الْحَيَّةِ الَّتِي تُنَظِّمُهَا؛ لأَنَّ بِدُونِهَا تَكُونُ قُوَّةً عَمْيَاءَ لاَ تَخْضَعُ لِقَانُونٍ؛ وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ.

وَمِنْ هُنَا، يَنْتُجُ أَنَّ ظَوَاهِرَ الْحَيَاةِ لَيْسَتْ لَهَا قَوَانِينُهَا الْخَاصَّةُ إِلاَّ لأَنَّ ثَمَّةَ حَتْمِيَّةً صَارِمَةً فِي شَتَّى الظُّرُوفِ الَّتِي تُشَكِّلُ شُرُوطَ وُجُودِهَا أَوْ تُثِيرُ ظُهُورَهَا؛ وَهَذَا أَمْرٌ وَاحِدٌ. وَلَكِنْ بِفَضْلِ التَّجْرِيبِ [1] فَقَطْ، كَمَا كَرَّرْنَا ذَلِكَ مِرَارًا، يُمْكِنُنَا فِي ظَوَاهِرِ الْأَجْسَامِ الْحَيَّةِ عَلَى غِرَارِ مَا يُمْكِنُنَا فِي ظَوَاهِرِ الْأَجْسَامِ الْجَامِدَةِ، الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَةِ الشُّرُوطِ الَّتِي تُنَظِّمُ الظَّوَاهِرَ وَتُمَكِّنُنَا مِنْ ثَمَّةَ، مِنَ التَّحَكُّمِ فِيهَا» . [2]

كلود برنار [3]



---

[1] – التجريب (L'expérimentation) يختلف عن التجربة (L'expérience) من حيث إن التجريب بناء إرادي وعمل تحدده شروط ووسائل يعده العالم في المخبر بمفهومه الواسع من أجل التحقق من فروضه؛ والعجربة بمفهومها العام هي مختلف الخبرات التي يستقيها الإنسان من خلال حياته، وهي في مفهومها العلمي مجرد الحدث المخبري العلمي .

[2] – Introduction à l'étude de la médecine expérimentale , Garnier Flammarion , Paris , 1966 , p. (109) .

[3] – Claude BERNARD هو عالم فيزيولوجي فرنسي (1813 – 1878)، وضع أهم أسس البحث العلمي في كتابه المشهور: مدخل إلى دراسة الطب التجريبي .

أسئلة :

1 – ضعِ النص في سياقه الفكري ممهّداً للمشكلة المطروحة.

2 – وضِّحْ كيف أن الإيمان بمبدأ الحتمية المطلق هو السبيل الوحيد لمحاربة الأفكار الميتافيزيقية المعيقة للتقدم العلمي؟

3 – لقد دخل التجريب ميدان الدراسات البيولوجية ، بيِّنْ الصعوبات التي واجهته، ثم بعض ما حققه من اكتشافات.

4 – اكتُبْ فقرة تقارن فيها بين خصائص المنهج التجريبي في علم البيولوجيا من جهة، وخصائص المنهج التجريبي في العلوم الفيزيائية والكيميائية من جهة أخرى.



58 - أسباب الخطأ في كتابة التاريخ

[هَلْ مَعْرِفَةُ المُؤَثِّراتِ المُعيقَةِ لِتَحْقيقِ المَوْضوعِيَّةِ في تَدْوينِ الأَحْداثِ التَّاريخِيَّةِ، كَفيلَةٌ بِتَجاوُزِ الذَّاتِيَّةِ ؟]

«لَـمَّا كَانَ الْكَذِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ [1] بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ، فَمِنْهَا: التَّشَيُّعَاتُ [2] لِلْآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الاعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّمْحِيصِ وَالنَّظَرِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَيُّعٌ لِرَأْيٍ أَوْ نِحْلَةٍ ، قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشَيُّعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الانْتِقَادِ وَالتَّمْحِيصِ، فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكَذِبِ وَنَقْلِهِ .

وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي الْأَخْبَارِ أَيْضًا، الثِّقَةُ بِالنَّاقِلِينَ، وَتَمْحِيصُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ [3]. وَمِنْهَا الذُّهُولُ [4] عَنِ الْمَقَاصِدِ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي الْكَذِبِ وَمِنْهَا تَوَهُّمُ الصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي الْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ الثِّقَةِ بِالنَّاقِلِينَ .

وَمِنْهَا الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ [5] عَلَى الْوَقَائِعِ لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ التَّلْبِيسِ وَالتَّصَنُّعِ، فَيَنْقُلُهَا الْمُخْبِرُ كَمَا رَآهَا وَهِيَ بِالتَّصَنُّعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ [6].

وَمِنْهَا تَقَرُّبُ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجِلَّةِ [7] وَالْمَرَاتِبِ بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ

---

1 – الخبر هو الحدث التاريخي الذي يرويه الرواة ويبنيه المؤرخون .

2 – التشيع ج. تشيعات مناصرة قضية أو مذهب .

3 – التعديل والتجريح طريقة علمية يعتمدها الفقهاء ورواة الحديث والمؤرخون لفحص الخبر واختبار مصدره .

4 – الذهول عن الشيء معناه السهو والتغافل والخروج عنه .

5 – إن إخراج الخبر عن سياقه الأصلي أو الجهل بمقدماته من شأنه أن يؤدي إلى انزلاقات .

6 – الحق في نفسه هو الحق في ذاته أي الذي لا يحتاج إلى براهين خارجية تشهد على صدقه ووجوده .

7 – أصحاب الجاه والاعتبار .

وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ، فَيَسْتَفِيضُ الإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ، فَالنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ الثَّنَاءِ وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي الْفَضَائِلِ [1] وَلاَ مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا.

وَمِنَ الأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا، وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ، الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الأَحْوَالِ فِي الْعُمْرَانِ، فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ ذَاتًا كَانَ أَوْ فِعْلاً [2]، لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخُصُّهُ فِي ذَاتِهِ يَعْرِضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ، فَإِذَا كَانَ السَّامِعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالأَحْوَالِ فِي الْوُجُودِ وَمُقْتَضَيَاتِهَا [3]، أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي تَمْحِيصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ». [4]

عبد الرحمن بن خلدون [5]

أسئلة:

1 – حرِّرْ مقدمة تمهد فيها لدراسة هذا النص مبرزا طبيعة العلاقة التي تربط الحوادث التاريخية بالإنسان.

2 – صنِّفْ العوائق المختلفة الواردة في النص، والتي تحول دون بلوغ الموضوعية في كتابة التاريخ، ورتِّبْها حسب أهميتها ثم حلِّلْها، وعلِّقْ عليها.

3 – ما هي باختصار، الإجابة التي يقدمها الكاتب عن المشكلة، وهل تفي بالمطلوب؟

---

[1] – الفضائل الخلقية والعلمية.

[2] – الحادث باعتباره شخصا مثلا، أو باعتباره مصدرا لسلوكات كالأفعال والأقوال.

[3] – ويوضح المؤلف هذه الأسباب في عرضه لروايات خيالية ونقدها، أشهرها ما حكاه المسعودي عن الإسكندر في كتابه « مروج الذهب » (ص، 36).

[4] – المقدمة، مطلع الكتاب الاول، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ، ص، (35 – 36).

[5] – سبق التعريف به في موضع آخر؛ (أنظر النص رقم: 36).



59 - دراسة الظاهرة الاجتماعية

[هَلْ يَكْفِي اعْتِبارُ الظَّاهِرَةِ الاجْتِماعِيَّةِ شَيْئاً حَتَّى نُوَفِّيها حَقَّها مِن المَوْضُوعِيَّةِ؟]

« إِنَّ عِلْمَ النَّفْسِ لَمْ يَنْشَأْ حَقِيقَةً إِلاَّ بَعْدَ أَنِ اهْتَدَى الْبَاحِثُونَ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ، إِلَى الْفِكْرَةِ الآتِيَةِ وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي تَقُولُ : إِنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ لاَ بَلْ مِنَ الْوَاجِبِ، أَنْ تُدْرَسَ حَالاَتُ الشُّعُورِ دِرَاسَةً « مَوْضُوعِيَّةً » بَدَلَ أَنْ تُدْرَسَ دِرَاسَةً « شَخْصِيَّةً »[1] أَيْ حَسْبَ وِجْهَةِ نَظَرِ شُعُورِ الْفَرْدِ الَّذِي تَمُرُّ بِهِ . فَتِلْكَ هِيَ إِذَنْ، الثَّوْرَةُ الْكُبْرَى الَّتِي تَمَّتْ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الدِّرَاسَاتِ، وَلَيْسَتْ كُلُّ الأَسَالِيبِ الْخَاصَّةِ وَالطُّرُقِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي زَادَتْ ثَرْوَةَ عِلْمِ النَّفْسِ إِلاَّ تِلْكَ الْوَسَائِلَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي اسْتَعَانَ بِهَا الْبَاحِثُونَ عَلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الأَسَاسِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ مُمْكِنٍ . وَهَذَا هُوَ نَفْسُ التَّقَدُّمِ الَّذِي يَنْبَغِي تَحْقِيقُهُ فِي عِلْمِ الاجْتِمَاعِ . فَإِنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى الْبَاحِثِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَرْحَلَةِ النَّظَرِ الشَّخْصِي الَّتِي لَمْ يَتَجَاوَزْهَا حَتَّى الآنَ، إِلَى مَرْحَلَةِ النَّظَرِ « الْمَوْضُوعِيِّ ».[2]

وَلَكِنَّنَا نَرَى مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، أَنَّ الانْتِقَالَ مِنَ الْمَرْحَلَةِ الأُولَى إِلَى الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ، أَسْهَلُ تَحْقِيقًا فِي عِلْمِ الاجْتِمَاعِ مِنْهُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ الظَّوَاهِرَ النَّفْسِيَّةَ تَبْدُو فِي وَاقِعِ الأَمْرِ، لِمُلاحَظَتِنَا عَلَى أَنَّهَا أَشْيَاءُ دَاخِلِيَّةٌ بِطَبِيعَتِهَا بِحَيْثُ لاَ يُمْكِنُ فَصْلُهَا عَنِ الشَّخْصِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهَا. وَلَمَّا كَانَ تَعْرِيفُنَا لِهَذِهِ الظَّوَاهِرِ سَالِفَةِ الذِّكْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا دَاخِلِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَرْدِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهَا، فَإِنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّنَا لاَ نَسْتَطِيعُ دِرَاسَتَهَا مِنَ الْخَارِجِ إِلاَّ إِذَا

---

[1] – لقد سبقت محاولة دراسة الحالات النفسية بصورة موضوعية أو شبه موضوعية، مساعي الاهتمام العلمي بالظواهر الاجتماعية. وهي محاولة كان القصد منها تجريد الدراسة من الطابع الذاتي الذي يهيمن على الباحث النفساني كإنسان.

[2] – لقد استوحى علماء الاجتماع المبدأ المنهجي في اعتبار الظواهر الاجتماعية ظواهر مستقلة عن ميول الأفراد وأحاسيسهم واعتقاداتهم من مبادرات الباحثين السيكولوجيين، على الرغم من صعوبة الاقتراب من الحادثة النفسية.



أَجْبَرْنَاهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ .. وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَدْرُسَ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ دِرَاسَةً خَارِجِيَّةً « مَوْضُوعِيَّةً »[1]، فَإِنَّهُ لاَ يَجِبُ عَلَيْنَا فَقَطْ، أَنْ نَبْذُلَ جُهْدًا كَبِيرًا فِي تَجْرِيدِهَا مِنْ حَالاَتِ الشُّعُورِ الشَّخْصِيِّ، بَلْ لاَ بُدَّ لَنَا أَيْضًا، مِنَ الاسْتِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ ، بِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الأَسَالِيبِ وَالْحِيَلِ[2]. وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالظَّوَاهِرِ الاجْتِمَاعِيَّةِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهَا تَنْطَوِي بِصِفَةٍ مُبَاشِرَةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ جِدًّا، عَلَى جَمِيعِ خَوَاصِّ الأَشْيَاءِ الْخَارِجِيَّةِ[3]. فَإِنَّ الْقَانُونَ يُوجَدُ مُدَوَّنًا فِي مَجْمُوعَاتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ، كَمَا أَنَّ حَوَادِثَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ تُوجَدُ مُسَجَّلَةً فِي أَرْقَامِ جَدَاوِلِ الإِحْصَاءِ، أَوِ الآثَارِ التَّارِيخِيَّةِ، أَوْ فِي أَنْوَاعِ الزِّيِّ، أَوْ فِي مَعَايِيرِ الذَّوْقِ الأَدَبِيِّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالآثَارِ الْفَنِّيَّةِ. وَتَمِيلُ الظَّوَاهِرُ الاجْتِمَاعِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا إِلَى خَلْقِ كِيَانٍ خَاصٍّ بِهَا خَارِجَ شُعُورِ الأَفْرَادِ ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهَا تُسَيْطِرُ عَلَى شُعُورِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ[4]، وَلِذَا ، فَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الافْتِنَانِ فِي التَّمْثِيلِ بِطَبِيعَةِ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ حَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنْ مُلاَحَظَتِهَا عَلَى أَنَّهَا أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنْ شُعُورِنَا » .[5]

إيميل دوركايم[6]

---

[1] – إن مفهوم الموضوعية يختلف تطبيقها من العلوم التجريبية إلى العلوم الإنسانية؛ من أكبر خصائص الموضوعية في مجال هذه العلوم الأخيرة، عدم إهمال التعاطف مع موضوع الدراسة وكذا السعي إلى فهمه من الداخل النفسي والثقافي .

[2] – ومن هذه الحيل ، الاستبطان (تحليل الذات لذاتها في أثناء الحالة النفسية) والمماثلة (قياس الذات بشبيهها) .

[3] – لقد نبه دوركايم في كتابه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » أكثر من مرة بأنه « يجب دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها (أشياء) » ؛ أي يجب دراستها بنفس الطرائق المستعملة في الظواهر الطبيعية مع الاحتفاظ بخصائصها الجوهرية وقوانينها الخاصة . إنها توجد خارج شعور الأفراد .

[4] – يقول دوركايم : « لست مجبرا على استخدام اللغة الفرنسية كأداة للتخاطب مع أبناء وطني ؛ ولست مضطرا إلى استخدام النقود الرسمية . ولكني لا أستطيع إلا أن أتكلم هذه اللغة وإلا أن أستخدم هذه النقود. ولو حاولت التخلص من هذه الضرورة لباءت محاولتي بالفشل الممض » (قواعد المنهج ، ص ، 52) .

[5] – إيميل دوركايم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة محمود قاسم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1961 ، ص ، (94 – 95) .

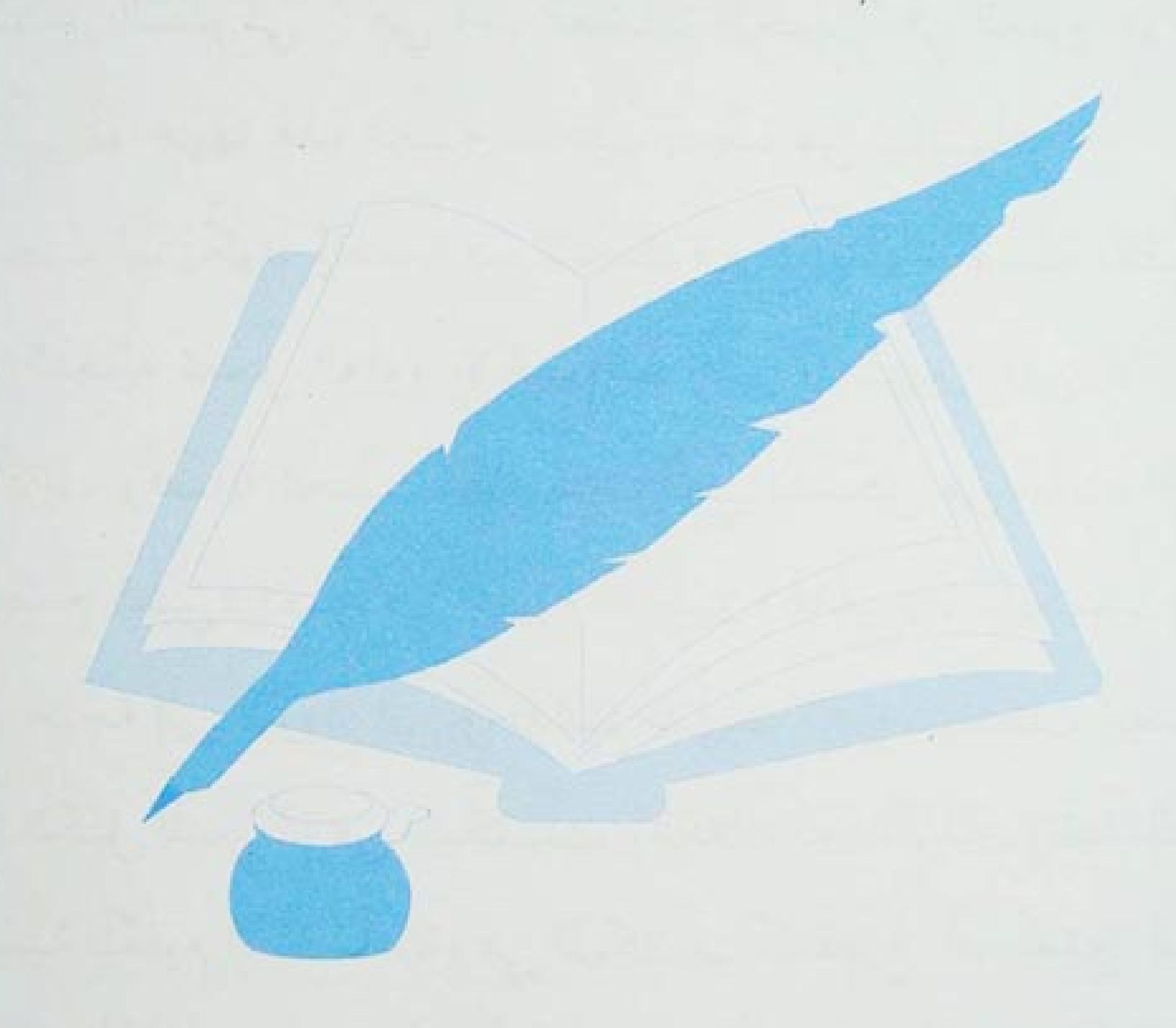
[6] – سبق التعريف به في موضع آخر (أنظر النص رقم : 28) .

أسئلة :

1 – اُرسُمْ جدوَلا وقسّمه إلى واديْن، أحدهما خاص بمميزات الظاهرة النفسية، والآخر خاص بمميزات الظاهرة الاجتماعية، واذكرها على أساس التقابل والمقارنة بين الطرفين .

2 – اذكُرْ ملامح المقاربة المنهجية الخاصة بدراسة الظاهرة الاجتماعية.

3 – هل ترى أن الظاهرة الاجتماعية مجرد أشياء ؟ أليست مشحونة ببصمات نفسية وقيم ثقافية محددة؟



60 ـ التعليل في علم النفس

[فِيمَ تتمثَّلُ صُعُوباتُ التَّجْرِيبِ ضِمْنَ مَنهجِ عِلْمِ النَّفْسِ وبَقِيَّةِ العُلُومِ الاِجْتماعِيَّةِ؟]

«إنَّ صُعُوبَاتِ العُلُومِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ تَكْمُنُ فِي التَّعْلِيلِ لَا فِي الاِكْتِشَافِ؛ وَالتَّعْلِيلُ هُوَ عَمَلِيَّةُ إِظْهَارِ كَيْفَ أَنَّ الاِكْتِشَافَاتِ وَالقَوَانِينَ تَنْتُجُ عَنِ القَضَايَا العَامَّةِ فِي ظِلِّ الظُّرُوفِ المُعْطَاةِ. وَهَذِهِ القَضَايَا لَيْسَتْ عَامَّةً فَحَسْب، بَلْ وَمَعْرُوفَةً جدًّا. وَهِيَ الحَقِيقَةُ الَّتِي تُؤَيِّدُ الرَّأْيَ القَائِلَ بِأَنَّ العُلُومَ الاِجْتِمَاعِيَّةَ تُخَصِّصُ جُهْداً أَقَلَّ لاِكْتِشَافِ الأَسَاسِيَّاتِ [1]، وَجُهْداً أَكْثَرَ لإِظْهَارِ أَنَّ عَشَرَاتِ الآلَافِ مِنَ النَّتَائِجِ [2] تَنْبُعُ مِنْ هَذِهِ الأَسَاسِيَّاتِ. وَحَتَّى لَوْ قَبِلْنَا أَنَّ قَضَايَا عِلْمِ النَّفْسِ السُّلُوكِيِّ [3] هِيَ أَعَمُّ القَضَايَا التَّجْرِيبِيَّةِ فِي العُلُومِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ، فَإِنَّ صُعُوبَةَ التَّعْلِيلِ الَّتِي تُوَاجِهُهَا هَذِهِ العُلُومُ سَتَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ نِهَايَتِهَا.

شَيْءٌ وَاحِدٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَاضِحاً مِنَ البَحْثِ فِي القَضَايَا النَّفْسِيَّةِ وَالقَضَايَا الأُخْرَى؛ فَفِي اكْتِشَافَاتِهَا الفِعْلِيَّةِ تَعْمَلُ العُلُومُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ عَلَى مُسْتَوَيَيْنِ عَلَى الأَقَلِّ: إِنَّهَا تَمْتَلِكُ قَضَايَا تَخُصُّ الأَفْرَادَ، وَقَضَايَا تَخُصُّ المَجْمُوعَاتِ الَّتِي تَتَشَكَّلُ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَفْرَادِ. وَبِأَوْسَعِ أَنْوَاعِ المُمَاثَلَةِ، يَصِحُّ الشَّيْءُ نَفْسُهُ فِي العُلُومِ الأُخْرَى؛ فَالفِيزْيَاءُ وَالكِيمْيَاءُ تَمْتَلِكُ قَضَايَا حَوْلَ الذَّرَّةِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى النُّزُولِ إِلَى وَحَدَاتٍ مَا دُونَ الذَّرَّةِ، وَتَمْتَلِكُ أَيْضاً قَضَايَا حَوْلَ مَجْمُوعَةِ ذَرَّاتٍ: الكُتَلِ المُتَحَرِّكَةِ فِي المِيكَانِيكِ. وَالعَلَاقَةُ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ وَافِيَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْفِيزْيَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ بِالنِّسْبَةِ لِلْعُلُومِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ؛ فِي المِيكَانِيكِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَالِجَ الكُتْلَةَ الصَّلْبَةَ كَوَحْدَةٍ مُتَمَرْكِزَةٍ فِي نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ الاِلْتِفَاتِ إِلَى سُلُوكِ ذَرَّةٍ بِمُفْرَدِهَا. أَمَّا فِي العُلُومِ

---

[1]ـ الاساسيات = المبادئ.

[2]ـ النتائج هنا تعني القوانين العلمية المستخلصة.

[3]ـ أو Béhaviorisme فرع من علم النفس أسسه (ج. واطسن J.watson) في أمريكا باعتماد التجريب.

الاجْتِمَاعِيَّة، صَحِيحٌ أَنَّنا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَالِجَ المُؤَسَّسَةَ وَكَأَنَّها عُنْصُرٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنَّنا نُدْرِكُ أَنَّ هَذَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ تَقْرِيبٌ أَوَّلِيٌّ لِلْحَقِيقَةِ ، لأَنَّنا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُعَلِّلَ لِمَاذَا تَتَصَرَّفُ المُؤَسَّسَةُ بِشَكْلٍ مُعَيَّنٍ، أَوْ لِمَاذَا تَتَصَرَّفُ بِشَكْلٍ يَخْتَلِفُ عَنِ المُؤَسَّسَاتِ الأُخْرَى، لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُهْمِلَ الأَفْرَادَ ». [1]

صفوت الأخرس [2]

أسئلة :

1 – حدّدْ الفارق بين الاكتشاف والتعليل بناء على ما ورد في النص.

2 – اشرحْ لماذا، في تقدير المؤلف، يتعذر اعتماد تعليل تجريبي في علم النفس والعلوم الاجتماعية الأخرى كما هو الشأن في علوم المادة الجامدة .

3 – توسّعْ، من خلال اجتهادك الخاص، في بيان العوائق الأخرى التي يعانيها منهج البحث في علم النفس خاصة، وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عامّ .

[1]. د. صفوت الاخرس ، العلوم الاجتماعية : طبيعتها، ميادينها، طرائق بحثها، ط1، دار الفكر، بيروت 1972. ص، (97– 98) .

[2]. هو باحث وأستاذ جامعي عربي معاصر. تخصص في الدراسات الاجتماعية والإنسانية. من مؤلفاته: العلوم الاجتماعية: طبيعتها، ميادينها، طرائق بحثها، و مقالات اجتماعية .

61 - العلم وتهذيب العقل

[كَيفَ يُمْكِنُ لِلْعُلومِ تَطْويعُ العَقْلِ وتَكْيِيفُهُ مَعَ المُسْتَجَدَّاتِ بِالرَّغْمِ مِن أَنَّهُ جُمْلَةٌ مِن المَبَادِئِ الثَّابِتَةِ والمُطْلَقَةِ ؟]

« الْعِلْمُ فِي الْجُمْلَةِ ، يُهَذِّبُ الْعَقْلَ وَيُعَلِّمُهُ [1]. وَمِنْ وَاجِبِ الْقَوْلِ أَنْ يُطِيعَ الْعِلْمَ، الْعِلْمُ الْأَكْثَرُ تَطَوُّرًا، الْعِلْمَ التَّطْويرِيَّ. [2] وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ الْحَقُّ فِي تَعْظِيمِ تَجْرِبَةٍ مُبَاشِرَةٍ وَتَكْبِيرِهَا؛ بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، مِنْ وَاجِبِهِ أَنْ يَتَوَازَنَ مَعَ التَّجْرِبَةِ [3] الْمَبْنِيَّةِ بِغِنًى شَدِيدٍ. وَفِي كُلِّ الظُّرُوفِ، لَابُدَّ لِلْفَوْرِيِّ الْمُبَاشِرِ [4] مِنْ إِخْلَاءِ الْمَكَانِ أَمَامَ الْمَبْنِيِّ . وَغَالِبًا مَا يُكَرِّرُ « دِستُوش » : [5] إِذَا كَانَ عِلْمُ الْحِسَابِ قَدْ تَكَشَّفَ، مِنْ خِلَالِ تَطْوِيرَاتٍ بَعِيدَةٍ، أَنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، فَمِنَ الْمُمْكِنِ إِصْلَاحُ الْعَقْلِ لِإِزَالَةِ التَّنَاقُضِ، وَالْحِفَاظِ مَعَ ذَلِكَ، عَلَى سَلَامَةِ عِلْمِ الْحِسَابِ. لَقَدْ قَدَّمَ عِلْمُ الْحِسَابِ مِنَ الْبَرَاهِينِ عَلَى الْفَعَالِيَّةِ وَالدِّقَّةِ وَالتَّمَاسُكِ مَا يَكْفِي لِلْقَوْلِ بِعَدَمِ إِمْكَانِ الْحُلْمِ بِالتَّخَلِّي عَنْ نِظَامِهِ وَانْتِظَامِهِ.

فَفِي مُوَاجَهَةِ تَنَاقُضٍ مُفَاجِئٍ، وَبِكَلَامٍ أَدَقَّ فِي مُوَاجَهَةِ الضَّرُورَةِ الْمُفَاجِئَةِ لِاسْتِعْمَالٍ تَنَاقُضِيٍّ لِعِلْمِ الْحِسَابِ ، قَدْ تُطْرَحُ مَسْأَلَةٌ [6]، لَا عِلْمُ الْحِسَابِ [...] .

---

[1] – العلم يتعهد العقل بالتربية والتقويم والتصويب والتوجيه لأن هذا العقل قد تتصلب فيه تصورات جاهزة وعدم التنازل عنها قد يتسبب في تشويه البحث الموضوعي الصحيح .

[2] – العلم الاكثر تطورا هو في هذا السياق العلم الذي قطع أشواطا في الاكتشاف ومرت عليه السنون؛ والعلم التطويري هو الذي يشكل دائما الدفعة الجديدة للبحث والاستكشاف.

[3] – التجربة التي يبنيها العلم ويثريها .

[4] – إن الانطباعات والإحساسات أو مجرد ملاحظات عابرة لا تشكل السبيل المؤدي إلى الحقيقة العلمية .

[5] – يؤكد « ديتوش » (Jean-Louis Destouches) على أهمية الثقة بالعلم مهما تقادم به الزمان بالمقارنة مع العقل بمفهومه الفلسفي لدى العقلانيين؛ إن العقل مهما أوتي من عبقرية، يبقى دائما مفتوحا على ما تجود به البحوث العلمية المختلفة .

[6] – تطرح على بساط المناقشة مثلا، قضية تصور المكان ، لا علم الهندسة كعلم .



فَعِلْمُ الْحِسابِ غَيْرُ مُؤَسَّسٍ عَلى الْعَقْلِ. إِنَّما عَقيدَةُ الْعَقْلِ هِيَ الْمُؤَسَّسَةُ عَلى عِلْمِ الْحِسابِ الْأَوَّلِيِّ. فَقَبْلَ تَعَلُّمِ الْعَدِّ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ قَطُّ ما هُوَ الْعَقْلُ [1]. وَبِوَجْهٍ عامٍّ، يَتَوَجَّبُ عَلى الْعَقْلِ أَنْ يَخْضَعَ لِشُروطِ الْعِلْمِ. يَجِبُ أَنْ يَتَعَبَّأَ وَيَتَحَرَّكَ حَوْلَ تَوْليفاتٍ [2] تَتَوافَقُ مَعَ جَدَلِيّاتِ الْعِلْمِ. فَماذا يُمْكِنُ لِوَظيفَةٍ ما أَنْ تَكونَ بِدونِ فُرَصِ الْعَمَلِ [3] ؟ وَماذا يُمْكِنُ لِعَقْلٍ أَنْ يَكونَ بِدونِ فُرَصِ التَّعَقُّلِ وَالتَّدَبُّرِ الْعَقْلِيِّ؟ إِذَنْ، يَجِبُ عَلى تَهْذيبِ الْعَقْلِ أَنْ يُفيدَ مِنْ كُلِّ فُرَصِ التَّعَقُّلِ. يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ الْبَحْثُ عَنْ تَنَوُّعِ الْمُعاقَلاتِ [4] أَوْ بِكَلامٍ أَفْضَلَ عَنْ تَبايُناتِ التَّعَقُّلِ. وَالْحالُ، فَإِنَّ تَبايُناتِ التَّعَقُّلِ هِيَ لِلْآنَ كَثيرَةٌ في عُلومِ الْهَنْدَسَةِ وَالْفيزْياءِ؛ وَهِيَ كُلُّها مُتَكافِلَةٌ مَعَ جَدَلِ الْأُسُسِ الْعَقْلِيَّةِ، مَعَ نَشاطِ فَلْسَفَةِ الرَّفْضِ [5]. يَجِبُ تَقَبُّلُ الْعِبْرَةِ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ. وَمَرَّةً أُخْرى، يَتَوَجَّبُ عَلَى الْعَقْلِ أَنْ يَخْضَعَ لِلْعِلْمِ. فَالْهَنْدَسَةُ وَالْفيزْياءُ وَعِلْمُ الْحِسابِ عُلومٌ كُلُّها؛ وَالْعَقيدَةُ السَّلَفِيَّةُ الْقائِلَةُ بِعَقْلٍ مُطْلَقٍ وَثابِتٍ، ما هِيَ إِلَّا فَلْسَفَةٌ. إِنَّها فَلْسَفَةٌ بالِيَةٌ وَبائِدَةٌ». [6]

غاستون باشلار [7]

---

[1] – لان العقل يتشكل من تقدم العلوم وازدهارها .

[2] – توليفات أي تاليفات .

[3] – فالعمل والميدان والتعامل مع الأشياء كل ذلك يشكل العقل والنظر لا العكس .

[4] – إن الاحتكاك بالواقع يدعو العقل إلى تنشيط استعداداته الذهنية وتهذيبها للانطباق معه .

[5] – وهي فلسفة ترفض الاعتراف بصلابة الشروط العقلية للتفكير وإنكار قابليته للانسجام مع تغير الواقع الحسي . وهنا يدعو باشلار إلى بناء فلسفة جديدة تتماشى والاكتشافات الجديدة .

[6] – غاستون باشلار ، فلسفة الرفض ، ترجمة/ خليل أحمد خليل، ط 1، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، 1985، ص، (162 – 164) .

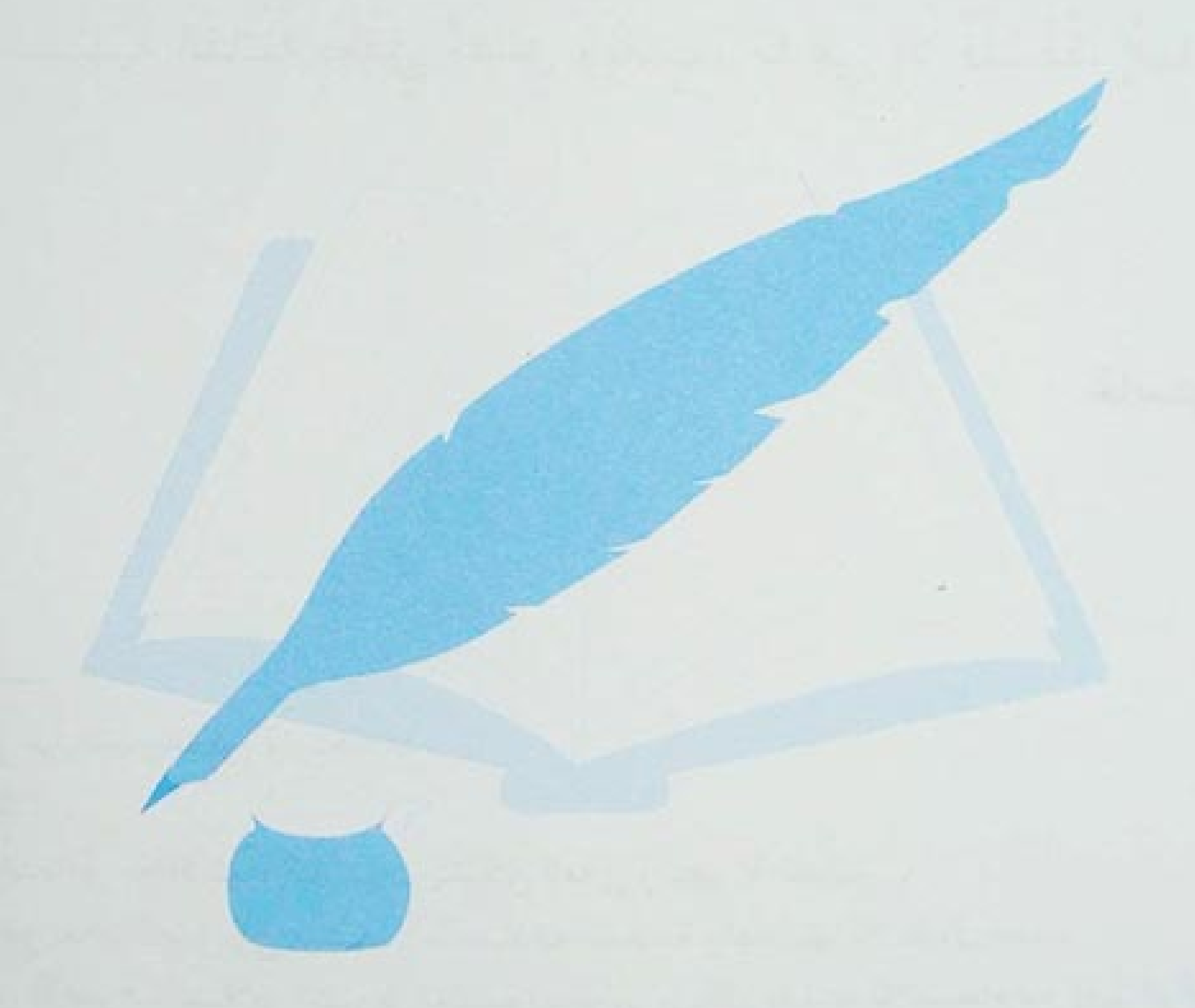
[7] – Gaston Bachelard هو فيلسوف فرنسي اختص بفلسفة العلوم (1884 – 1962)؛ من أهم ما ألف: الروح العلمية الجديدة، وفلسفة الرفض، وتكوين الروح العلمية .

أسئلة :

1 – مهّدْ للنص بعرض كلمة حول العقل النظري (المجرد) والعقل العلم (التجريبي).

2 – بيّنْ العقل كمصدر للمبادئ المنطقية والعلم بمفهومه التجريبي تأثير جدلي؛ ومع ذلك ، فكيف يمكن للعقل أن يراجع نفسه مع تقدم الاكتشافات العلمية ويفيد من خبرات أهلها؟

3 – ما هي فلسفة الكاتب التي يمكن استشفافها من خلال مضمون النص، وما هي فائدتها؟



62 - الاستنساخ

[لماذا يُثيرُ الاسْتِنْساخُ سُخْطَ الكَثيرِ من العُلَماءِ والفَلاسِفَةِ وَرِجالِ الدِّينِ ؟ أَلَيْسَ إِبْداعاً يَسْتَحِقُّ التَّشْجيعَ ؟]

« اَلْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتي يَقُومُ بِهَا الْعُلَمَاءُ في زَمَانِنَا هَذَا، قَدْ تَخَطَّتْ سُنَنَ الطَّبِيعَةِ، وَحَادَتْ بِهَا عَنْ طَرِيقِهَا الْمَشْرُوعِ. فَبَدَلاً مِنْ أَنْ تُقَابِلَ الْخَلاَيَا الْجِنْسِيَّةُ بَيْنَ ذُكُورِ النَّوْعِ وَإِنَاثِهِ لِتُؤَدِّيَ إِلَى إِنْتَاجِ ذُرِّيَّةٍ جَدِيدَةٍ، يُمْكِنُ أَنْ تَنْشَأَ الذُّرِّيَّةُ مِنْ خَلاَيَا الْمَخْلُوقِ الْجَسَدِيَّةِ لاَ الْجِنْسِيَّةِ [1].

إِنَّ بُلُوغَ هَذَا الْهَدَفِ قَدْ يَدْعُو إِلَى الْفَزَعِ حَقًّا. فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْسَخَ مِنْ ذَاتِهِ نُسْخَةً جَدِيدَةً هِيَ صُورَةٌ طِبْقَ الْأَصْلِ مِنْهُ بِحَيْثُ لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ ذَاتِهِ الْبِيُولُوجِيَةِ الْقَدِيمَةِ، وَذَاتِهِ الْجَدِيدَةِ ، اَللَّهُمَّ إِلاَّ بِالْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتي تَفْصِلُ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ.

وَلِكَيْ نُوَضِّحَ أَكْثَرَ، نَقُولُ : إِنَّ « زَيْدًا » مِنَ النَّاسِ قَدْ يُبْعَثُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْأَرْضِ بِخَلِيَّةٍ وَحِيدَةٍ مِنْ جِسْمِهِ . وَكَأَنَّمَا ذَاتُهُ الْبِيُولُوجِيَةُ قَدْ عَادَتْ مَرَّةً أُخْرَى فِي الزَّمَانِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَبِحَيْثُ يَرَى نَفْسَهُ، وَكَأَنَّمَا هُوَ قَدْ عَادَ طِفْلاً فَصَبِيًّا فَشَابًّا بِكُلِّ صِفَاتِهِ الَّتي نَشَأَ عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ الَّذِينَ يُعَاصِرُونَ شَخْصِيَّةَ « زَيْدٍ » الْمُتَقَدِّمَةَ فِي الْعُمُرِ، وَشَخْصِيَّتَهُ الْحَدِيثَةَ الْأَصْغَرَ عُمُرًا ، سَوْفَ تَنْتَابُهُمْ [2] الْحَيْرَةُ وَالاِرْتِبَاكُ عِنْدَمَا يَرَوْنَ هَذَا صُورَةً مُصَغَّرَةً مِنْ ذَاكَ، أَوْ كَأَنَّمَا هُمَا تَوْأَمَانِ مُتَطَابِقَانِ وَمُتَشَابِهَانِ تَمَامًا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْفَتْرَةَ الزَّمَنِيَّةَ الَّتي تَفْصِلُ بَيْنَ عُمُرَيْهِمَا قَدْ تَكُونُ ثَلاَثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، لاَ كَمَا هُوَ الْحَالُ بَيْنَ وِلاَدَةِ تَوْأَمَيْنِ مُتَطَابِقَيْنِ يَفْصِلُ بَيْنَ مَوْلِدِهِمَا عِدَّةُ دَقَائِقَ أَوْ سَاعَاتٍ [3] [...].

---

[1] – وإنتاج الذرية الجديدة بهذا الأسلوب غير الطبيعي يدعوه العلماء والفلاسفة اليوم ، بالاستنساخ ؛ وهو أسلوب يثير سخط رجال الدين ومفكري الأخلاق ، لأنه يخالف الخلقة البشرية ويحارب المألوف البيولوجي والاجتماعي .

[2] – تنتابهم أي تأخذهم و تستولي عليهم .

[3] – هذا إذا تعلق الأمر بنسخة واحدة فقط ، فكيف لو تعددت النسخ في وقت واحد وقد بلغت غاية التطابق.



إِنَّ النَّامُوسَ الطَّبِيعِيَّ [1] لِإِنْتَاجِ ذُرِّيَّاتٍ مِنَ الْبَشَرِ لاَ يَخْتَلِفُ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَحْدُثُ فِي الْقُرُودِ وَالْحَمِيرِ وَالْفِئْرَانِ وَالضَّفَادِعِ وَالْحَشَرَاتِ، أَوْ حَتَّى فِي النَّبَاتِ. فَكُلُّ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ تَنْشَأُ عَنْ عَمَلِيَّاتِ تَلْقِيحٍ تَتِمُّ بَيْنَ ذُكُورِ النَّوْعِ وَإِنَاثِهِ. وَفِيهَا تَنْدَمِجُ أَنْوِيَةُ الْخَلاَيَا الْجِنْسِيَّةِ الذَّكَرِيَّةِ (الْحَيَوَانَاتُ الْمَنَوِيَّةُ لِلْحَيَوَانِ، وَحُبُوبُ اللِّقَاحِ فِي النَّبَاتِ) بِأَنْوِيَةِ الْخَلاَيَا الْجِنْسِيَّةِ الْأُنْثَوِيَّةِ (الْبُوَيْضَاتُ). وَمِنْ هَذَا الِانْدِمَاجِ بَيْنَ أَنْوِيَةِ الْخَلاَيَا الْجِنْسِيَّةِ لِلنَّوْعِ الْوَاحِدِ، تَنْتُجُ ذُرِّيَّاتٌ جَدِيدَةٌ تَحْمِلُ صِفَاتِ أَبَوَيْهَا. وَبِهَذَا يَخْتَلِفُ الْبَشَرُ بَشَرًا، وَالْقِطَطُ قِطَطًا، وَالْبَاذِنْجَانُ بَاذِنْجَانًا، إِلَخ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ بَشَرٌ، إِلاَّ أَنَّهُمْ لَيْسُوا جَمِيعًا نُسَخًا مُكَرَّرَةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ. فَاخْتِلاَفُ سَحَنَاتِهِمْ [2] وَأَصْوَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَبَصَمَاتِهِمْ وَفَصَائِلِ دِمَائِهِمْ وَبُرُوتِينَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَأَمْزِجَتِهِمْ، هُوَ خَيْرُ دَلِيلٍ عَلَى مَا نَقُولُ. وَبِهَذَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ « زَيْدٍ » وَ« عُبَيْدٍ »، أَوْ « زَيْنَبَ » وَ« فَاطِمَةَ ». وَالَّذِي يَحْكُمُ عَدَمَ التِّكْرَارِ بَيْنَ صِفَاتِ الْبَشَرِ أَوْ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ هِيَ عَوَامِلُ وِرَاثِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ تَكْمُنُ فِي أَنْوِيَةِ الْخَلاَيَا الْجِنْسِيَّةِ لِلنَّوْعِ الْوَاحِدِ. فَخَلْطُهَا يُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ تِكْرَارِ مَا يَنْتُجُ مِنْهَا عَلَى الْإِطْلاَقِ. وَبِهَذَا، يَحْتَفِظُ كُلُّ فَرْدٍ بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ. وَقَدْ يَحْدُثُ بَعْضُ التَّشَابُهِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ الْوَاحِدَةِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ تَشَابُهًا مُطْلَقًا، لِأَنَّ الظَّاهِرَ هُنَا، غَيْرُ الْبَاطِنِ. وَالْبَاطِنُ هُوَ الْأَسَاسُ، وَالْأَسَاسُ يَنْصَبُّ عَلَى الْبُرُوتِينَاتِ [3].

وَيَتَّضِحُ لَنَا ذَلِكَ أَعْظَمَ اتِّضَاحٍ عِنْدَ عَمَلِيَّةِ زَرْعِ عُضْوٍ أَوْ نَسِيجٍ مِنْ إِنْسَانٍ فِي إِنْسَانٍ آخَرَ، حَتَّى وَلَوْ كَانَا أَخَوَيْنِ أَوْ أُخْتَيْنِ، إِذْ تَبْرُزُ أَجْهِزَةُ الْمَنَاعَةِ فِي الْأَجْسَامِ الْحَيَّةِ، وَتُحَارِبُ الْجُزْءَ الْمَزْرُوعَ حَتَّى تُبِيدَهُ [4]. وَسِرُّ ذَلِكَ لاَ يَخْفَى عَلَى لَبِيبٍ، فَبُرُوتِينَاتُ جِسْمِي غَيْرُ بُرُوتِينَاتِ جِسْمِكَ،

---

[1] – أي القانون أو القاعدة الطبيعية.

[2] – السحنات ج. سحنة وهي الهيئة والبشرة.

[3] – البروتينات (Les protéines) هي الهيوليات أي المواد الأولى التي تتركب من سلسلة طويلة من الحوامض الأمينية (Les acides aminées).

[4] – تبيده أي تقضي عليه.



وَغَيْرُ بُرُوتِينَاتِ جِسْمِ أَيِّ إِنْسَانٍ آخَرَ مُنْذُ أَنْ جَاءَ جِنْسُنَا عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [1]. وَاخْتِلَافُ الْأَلْوَانِ أَوْ أَيَّةِ صِفَةٍ أُخْرَى، إِنَّمَا تَحْكُمُهَا خُطَطٌ وِرَاثِيَّةٌ وَبُرُوتِينِيَّةٌ. وَهِيَ عَلَامَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [2] » . [3]

عَبْدُ الْمُحْسِنِ صَالِحٌ [4]

أسئلة :

1 – ما الاستنساخ؟ ولماذا يخيف رجال الدين والأخلاق بوجه أخص؟

2 – هل هذا الاكتشاف الجديد يُعلي من شأن العلم أم يحط من قدره؟ وهل عواقبه تابعة للعلم أم للإنسان؟

3 – إذا كان لا بد من أن تشارك في تطوير العلم في هذا السياق، مع الحفاظ على كرامة الإنسان وقيمه السامية، فما سيكون موقفُك؟ عبِّر عنه في كلمات مختصرة.

---

[1] – الروم ، 22 .

[2] – الأعلى ، (2 – 3) .

[3] – عبد المحسن صالح ، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان ، ط . 2 ، مطابع دار القبس ، الكويت ، 1984 ، ص، (49–53 ، وما بعدها) .

[4] - هو مفكر مصري معاصر ، يعمل حاليا رئيسا لقسم صحة البيئة بجامعة الإسكندرية، متخصص في علم الكائنات الدقيقة؛ من مؤلفاته : الإنسان الحائر بين العلم والخرافة ، الميكروبات والحياة ، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان .

الإشكالية الرابعة: في الفن والتصوف بين النسبي والمطلق

إذا كان أهل الفن وأهل الذوق يمثلون التجربة النسبية، فكيف يصرحون بأنهم قد بلغوا المطلق؟ كيف يستطيع الفنان إدراك الجمال المثالي والمتصوف إدراك الكشف الرباني، وكلاهما يعيش في عالم التغير، وتحاصره حدود الزمان و المكان؟ كيف يستطيع الإنسان في تجربته الفنية أو الذوقية أن يرحل بذاتيته إلى السعادة المطلقة؟

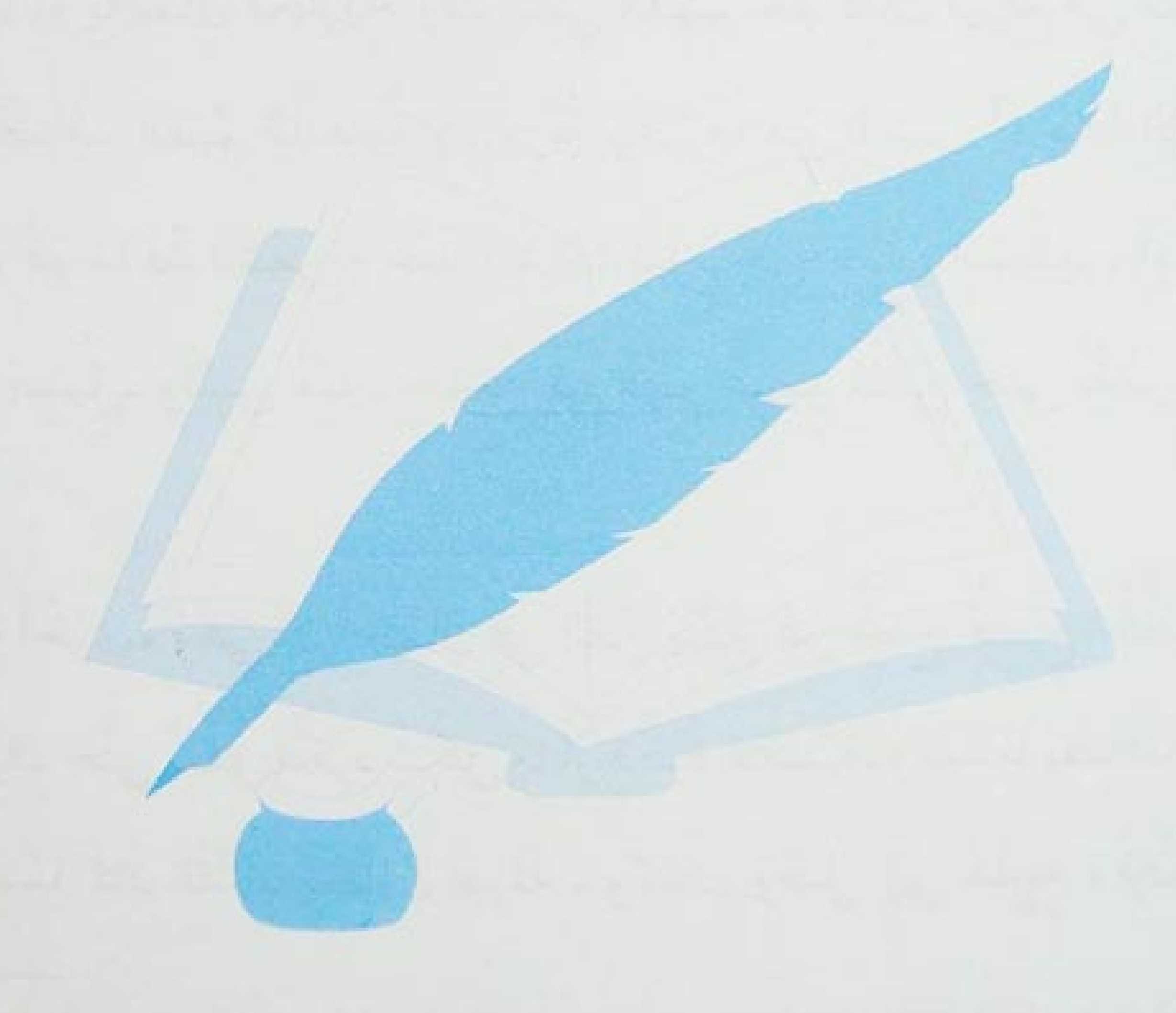
مدخل

- **المشكلة الجزئية الأولى** : في الآثار الفنية والتجربة الذوقية

كيف يمكن إثبات القول بأن الآثار الفنية ليست مجرد تعبير عن الجمال، وبأن التجربة الذوقية ليست مجرد تجربة حميمية؟

- **المشكلة الجزئية الثانية** : في التصوف بين النسبي والمطلق

كيف يمكن إثبات «بطلان القول بأنه لا مجال لتوفير سبل التقاء النسبي بالمطلق وبأن التصوف لا دخل له في تحقيق ذلك، وفي رسم مناهج بلوغ السعادة المطلقة»؟



63 - الاستمتاع في الفن

[كيفَ السَّبيلُ إلى إثْباتِ القَوْلِ: إنَّ الفنَّ يُولِّدُهُ الذَّوْقُ ويدْعَمُهُ الفَهْمُ والخِبْرَةُ؟]

« يَكُونُ الاسْتِمْتَاعُ فِي الْفَنِّ وَتَذَوُّقُهُ عِنْدَ الشَّخْصِ الْعَادِيِّ غَيْرِ الْمُطَّلِعِ، غَالِبًا مُحَدَّدًا بِالاتِّجَاهِ الَّذِي يَقِيسُ أَهَمِيَّةَ عَمَلٍ فَنِّيٍّ مَا بِوَاسِطَةِ مَدَى الإِثَارَةِ أَوْ المَأْسَاةِ فِي حَيَاةِ الفَنَّانِ. وَمَهْمَا يَكُنْ الأَمْرُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ اللازِمِ أَنْ يَكُونَ الاتِّجَاهُ الأَوَّلِيُّ لِعَمَلٍ فَنِّيٍّ غَامِضًا أَوْ مُعَقَّدًا، أَوْ بِدُونِ إِثَارَةٍ. فَلا يُوجَدُ لَدَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَيَّةُ مَعْرِفَةٍ فَنِّيَّةٍ مَهْمَا يَكُنْ نَوْعُهَا، وَلَكِنَّهُمْ يَسْتَخْلِصُونَ الْمُتْعَةَ مِنْ أَبْسَطِ صِلَةٍ حِسِّيَّةٍ بِصُورَةٍ مَا، أَوْ تِمْثَالٍ، أَوْ بِعَمَلٍ فَنِّيٍّ آخَرَ. وَهَذِهِ الاسْتِجَابَةُ الطَّبِيعِيَّةُ يَسْتَمْتِعُ بِهَا أَشْخَاصٌ كَثِيرُونَ فَيَحْتَفِظُونَ فِي بُيُوتِهِمْ بِلَوحَاتٍ مُلَوَّنَةٍ، أَوْ بِنُسَخٍ مِنْ تَمَاثِيلَ، أَوْ بِأَعْمَالٍ فَخَارِيَّةٍ. وَقَدْ يَأْتِي الفَهْمُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَرْفَعَ مِنْ مُسْتَوَى مُتْعَتِهِمْ الأَصْلِيَّةِ عِنْدَمَا تُضَافُ القِيَمُ الذِّهْنِيَّةُ وَالرَّمْزِيَّةُ وَغَيْرُهَا مِنَ القِيَمِ [1]؛ هَذَا الإِحْسَاسُ الأَوَّلُ بِالْمُتْعَةِ الْمَادِيَّةِ، هُوَ مَا قَدْ نَشْعُرُ بِهِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِنَا لِرَجُلٍ حَسَنِ الْمَظْهَرِ، أَوْ امْرَأَةٍ حَسْنَاءَ، أَوْ مَنْظَرٍ طَبِيعِيٍّ جَمِيلٍ. وَلَيْسَ هُنَاكَ حَاجَةٌ إِلَى فَهْمٍ عَمِيقٍ لِلْفَنِّ حَتَّى نُقَدِّرَ الجَمَالَ المَادِّيَ المَحْضَ [...].

وَ ثَمَّةَ حَقِيقَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ الجَمَالَ فِي الفَنِّ يَنْتُجُ عَنْ نَجَاحِ تَجْمِيعِ الخُطُوطِ وَالأَشْكَالِ وَالمَلامِسِ وَالأَلْوَانِ حَتَّى يَنْقُلَ فِكْرَةَ شَكْلٍ مَا أَوْ فِكْرَةً عَاطِفِيَّةً. وَعِنْدَمَا يُضَافُ عُنْصُرُ الفَهْمِ، وَعِنْدَمَا نَتَحَقَّقُ مِمَّا كَانَ الفَنَّانُ يُحَاوِلُ عَمَلَهُ، وَكَيْفَ وَصَلَ إِلَى هَدَفِهِ، فَإِنَّ الاسْتِمْتَاعَ

---

[1] - ومثال ذلك ما يقوم به النقاد في تحليلهم للاعمال الفنية سواء عبر صفحات المجلات المتخصصة، أو الحصص الإذاعية والتلفزية، أو المؤلفات والبحوث الاكديمية . والغاية هي المساعدة على فهم هذه الاعمال، وفك رموزها، وبيان أبعادها المختلفة .



المُمْكِنُ حُدُوثُهُ يُصْبِحُ أَعْظَمَ بِكَثِيرٍ؛ فَالاتِّجَاهُ الأَوَّلِيُّ إِلَى جَمَالِ الإِنْسَانِ مَثَلاً ، يُمْكِنُ تَطْبِيقُهُ عَلَى أَعْمَالٍ فَنِيَّةٍ لاَ حَصْرَ لَهَا مِنْ مُخْتَلِفِ العُصُورِ وَالثَّقَافَاتِ. وَتَأْتِي هَذِهِ المَفَاهِيمُ فَقَط بَعْدَ التَّجْرِبَةِ ؛ أَيْ بَعْدَ أَنْ نَكُونَ قَدْ تَعَلَّمْنَا كَيْفَ نَنْظُرُ إِلَى الجَمَالِ. وَيَكُونُ الانْفِعَالُ المَادِّيُّ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ لا يَزَالُ هُوَ الأَكْثَرُ بَسَاطَةً. وَتَمَامًا كَمَا اتَّجَهْنَا إِلَى بَعْضِ الأَعْمَالِ لِمُجَرَّدِ الجَمَالِ الظَّاهِرِ لِإِنْسَانٍ فِيهَا، فَإِنَّنَا نَتَّجِهُ إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى تَتَّصِلُ أَسَاسًا بِالطَّبِيعَةِ [...].

وَعَلَى الرَّغْمِ مِن أَنَّ الفَلْسَفَةَ الَّتِي وَرَاءَ هَذَيْنِ العَامِلَيْنِ [1] مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ طُرُقِ الأَدَاءِ الفَنِّيَّةِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا، فَإِنَّ لَهُمَا مَعًا أَهَمِيَّةً مُبَاشِرَةً وَجَاذِبِيَّةً إِلَى حَدٍّ أَنَّهُمَا يَنْقُلَانِ المُتْعَةَ الكَامِلَةَ الَّتِي نُحِسُّهَا دَائِمًا تُجَاهَ الأَعْمَالِ الفَنِّيَّةِ. وَفِي الحَقِيقَةِ، أَنَّهُ أَثْنَاءَ المُشَاهَدَةِ، وَلَوْ لِلَحْظَةٍ قَصِيرَةٍ نِسْبِيًّا، تَبْدَأُ عَوَامِلُ أُخْرَى فِي التَّأْثِيرِ فِينَا – بِالإِضَافَةِ إِلَى العَوَامِلِ المَادِّيَّةِ [2] الظَّاهِرَةِ – كَالعَاطِفَةِ وَالذِّكْرَى وَالإِحْسَاسِ وَالشَّاعِرِيَّةِ. وَعَلَى ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَعْتَرِفَ، عَلَى الرَّغْمِ مِن مُحَاوَلَتِنَا هُنَا عَرْضَ كُلٍّ مِنَ الانْفِعَالاَتِ الأَوَّلِيَّةِ وَكَأَنَّهَا كِيَانٌ مُسْتَقِلٌّ، بِأَنَّهُ مِنَ النَّادِرِ جِدًّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهَا مَوْجُودًا بِدُونِ امْتِزَاجِهِ بِآخَرَ، وَبِدُونِ بَوَاعِثَ مُعَقَّدَةٍ مُتَزَايِدَةٍ » . [3]

برنارد مايرز [4]

---

[1]- يقصد بهما عامل الاستمتاع الأوّلي القائم على الانفعال الطبيعي ، وعامل الفهم والمعرفة الفنية المكتسبة عن طريق التجربة و التحليلات النقدية .

[2]- إن العوامل المادية هنا لا تعني سوى العوامل الطبيعية ؛ وتقابلها في هذا السياق العوامل المكتسبة .

[3]- برنارد مايرز، الفنون وكيف نتذوقها، ترجمة/س. المنصوري وم. القاضي، مكتبة النهضة العربية ، ط1، القاهرة 1966 ص ، (23 – 24 – 25) .

[4]- Bernard.S.Myers هو مفكر وناقد فني أمريكي معاصر(وُلد عام 1925) . له إسهامات جليلة في علم الجمال وفلسفة الفن. درّس في جامعتي نيويورك وكولورادو ، وعمل كمحرر في موسوعة الفن العالمي، وكمؤلف للعديد من التصانيف المتخصصة من أشهرها : الفن والحضارة، تاريخ الفن، الفنون وكيف نتذوقها، وأعظم خمسين فناناً .

أسئلة :

1 – حدّدْ أهمّ الشروط التي يقوم عليها الاستمتاع الفني من خلال ما ورد في النص.

2 – ما دور كل من الفهم والمعرفة والتجربة الخارجية في زيادة درجة هذا الاستمتاع حسب المؤلف؟

3 – دوّنْ فقرة تلخّص فيها رأيك من الموقف العام المبرَّر في ثنايا النص، والذي مؤدّاه أن الاستمتاع – كظاهرة معقّدة – يقوم على الذوق الانفعالي الطبيعي للإنسان، والثقافة الفنية المكتسبة بالتجربة والفهم في آن واحد؟



64 - الفن ومعرفة الإنسان

[لِماذا لا نعُدُّ الفَنَّ انْفعالاً ذَوْقِيًا فقطْ، بَلْ أيضاً مَعْرِفَةً بِأبعادِ الإنْسانِ الثَّقافِيَّةِ؟]

« قَدْ يُزَوِّدُنا الفَنُّ بِقَناعاتٍ شَخْصِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ يُمْكِنُ قِياسُها بِما نَشْعُرُ بِه عِنْدَ قِراءَةِ الكُتُبِ، أَوْ مُشاهَدَةِ المَسْرَحِيّاتِ، أَوْ الاِسْتِماعِ إِلى المُوسيقى. وَهَذِهِ القَناعاتُ تَأْتي مِن الاِسْتِجاباتِ الجِسْمِيَّةِ وَالعاطِفِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ لِما قَدْ يُمارِسُهُ الفَنّانُ، وَما يُحاوِلُ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَيْنا. وَإِنَّ مُجَرَّدَ تَقْديرِنا المادِّيِّ لِعَمَلٍ مِنَ النَّحْتِ، وَالرِّضى البَصَرِيِّ وَالعَقْلِيِّ عِنْدَ اسْتيعابِ مُحْتَوى لَوْحَةٍ فَنِّيَّةٍ، وَالعاطِفَةِ الجَيّاشَةِ بِالرَّهْبَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالغَضَبِ وَالسُّرورِ الَّذي تُثيرُهُ عِدَّةُ أَنْواعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الأَعْمالِ، يُشْعِرُنا كُلُّ هَذا بِالاِمْتِلاءِ العاطِفِيِّ [1].

وَلَكِنَّ وَظيفَةَ الفَنِّ تَذْهَبُ إِلى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ لِتَجْعَلَ الاِنْفِعالَ واحِداً مِنَ التَّجارِبِ العَظيمَةِ الَّتي يَسْتَطيعُ الإِنْسانُ أَنْ يَخوضَها؛ ذَلِكَ أَنَّ الفَنَّ يَدُلُّنا جُزْئِيًّا عَلى كَيْفِيَّةِ حَياةِ النّاسِ فِي العُصورِ الماضِيَةِ وَمَآلِهِمْ. وَهُوَ باقٍ كَسِجِلٍّ لِتَجارِبِهِمُ المادِّيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَلِأَفْكارِهِمْ وَمَطامِحِهِمْ. وَثَمَّةَ طُرُقٌ كَثيرَةٌ كَشَفَ بِها أَسْلافُنا عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ خِلالِ فُنونِهِمْ [2]، وَلِكَيْ نَفْهَمَ الفَنَّ، يَنْبَغي أَنْ نَضَعَ فِي أَذْهانِنا أَنَّهُ مَهْما يَظْهَرُ لَنا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ غَريباً وَ غَيْرَ عادِيٍّ، إِنَّما هُوَ إِنْتاجٌ يُنْتِجُهُ أُناسٌ مِنْ أَجْلِ أُناسٍ آخَرينَ. وَقَدْ يَكونُ طَريقُنا إِلى الشَّيْءِ الفَنِّيِّ فِي بَعْضِ الحالاتِ مُغْلَقاً بِسَبَبِ جَهْلِنا لِلُغَةِ الفَنِّ وَبِمَظاهِرِ الأَداءِ فيهِ، لَكِنْ يُمْكِنُ التَّغَلُّبُ عَلى ذَلِكَ بِسُهولَةٍ أَكْبَر فِي الفَنِّ التَّقْليدِيِّ، المَأْلوفِ لِلْكَثيرِ مِنّا، عَنْهُ فِي الأَشْكالِ المُعاصِرَةِ حَيْثُ

---

[1]- الامتلاء العاطفي = مزيج من اللذة الحسية والمتعة العاطفية؛ أو ما يمكن التعبيرعنه بـ" النشوة ".

[2]- والشاهد على ذلك تعرفنا على حضارات الفراعنة والبابليين والفينيقيين وقدماء الصينيين، فضلا عن الإغريق والرومان من خلال الأعمال الفنية العظيمة التي تركوها كتراث ثقافي عالمي خالد.

تَكُونُ المُشْكِلَةُ أَنَّ وُجُهاتِ النَّظَرِ التَّجْرِيدِيَّةَ [1] وَغَيْرَهَا قَدْ لَا نَسْتَسِيغُهَا جَيِّداً؛ فَهِيَ أَكْثَرُ تَعْقِيداً نَوْعاً مَا، وَلَكِنَّهَا بَعِيدَةٌ عَنْ أَنْ تَكُونَ مَوْضِعَ يَأْسٍ [...].

وَسَوْفَ تَمْنَحُنَا دِرَاسَةُ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ المَوَادِّ الفَنِّيَّةِ فَوَائِدَ تَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ، وَسَوْفَ نَكْسِبُ مَعْرِفَةً بِكَيْفِيَّةِ فِعْلِ الثَّقَافَاتِ وَالأَجْنَاسِ المُخْتَلِفَةِ، وَكَيْفَ فَكَّرَتْ وَأَحَسَّتْ. وَمَا هُوَ أَكْثَرُ أَهَمِّيَّةً كَذَلِكَ ، انْتِفَاعُنَا بِتَقَبُّلِنَا المُتَزَايِدِ بِأَفْكَارِ الآخَرِينَ . وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي نَتَحَقَّقُ فِيهَا مِنْ أَنَّ الاخْتِلَافَاتِ أَسَاسِيَّةٌ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِسَبَبِ الجَهْلِ، فَإِنَّنَا نَكُونُ قَدْ قُمْنَا بِخُطْوَةٍ هَامَّةٍ نَحْوَ فَهْمِ أَخِينَا الإِنْسَانِ ». [2]

برنارد مايرز [3]

أسئلة :

1 – لا يخلو الفن من مصاحبة القناعات الشخصية له؛ عيّنْ هذه القناعات المبيّنة في النص .

2 – اشرحْ بتوسّع ما ذهب إليه صاحب النص من أن الفن يتعدّى ذاتية الفرد، إلى الإسهام في معرفة أبعاد الإنسان الموضوعية والثقافية العامة؟

3 – هل ترى أن استعمال الفن أداة من أجل المعرفة يُفقده معناه الأصيل؟ علّلْ إجابتك.

---

1. من نماذجها: مذاهب السيريالية والتكعيبية والرمزية في الفن المعاصر .
2. برنارد مايرز، الفنون وكيف نتذوقها، ترجمة /س. المنصوري وم . القاضي، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة 1966 ، ص، (11– 12– 13) .
3. تمّ التعريف به في موضع آخر (أنظر النص رقم: 63) .

65 - الفن والواجب والمقدس

[إلى أي حدٍّ يُمْكِنُ فَهْمُ ماهيَةِ الفَنِّ مِنْ خِلالِ علاقَتِهِ بالأخْلاقِ والدِّين؟]

«إنَّ الفَنَّ، بتَأرْجُحِه [1] بَيْنَ تَسلُّطِ الجَمالِ وَانْتِصارِ الخَيْرِ، يَكُونُ تارَةً في خِدْمَةِ الأَخْلاقِ، وَطَوراً سَيِّدَ نَفْسِهِ فَوْقَ الجَميعِ، وَحِينًا مُشارِكًا في اتِّحادٍ صُوفِيٍّ، وَحِينًا آخَرَ رَامِيًا الحِرْمَانَ عَلَى الأَخْلاقِيَّةِ. وَيَنْتَهِي فِي هَذَا العَمَلِ النِّسْبِيِّ إِلَى حَلٍّ وَسَطٍ يُظْهِرُ الإِنْسَانَ فِي عِرَاكٍ مُسْتَمِرٍّ مَعَ اسْتِحَالَةِ وُجودِ قِيمَةٍ مُطْلَقَةٍ.

وَالوَاقِعُ أَنَّ الأَخْلاقَ تَتَحَرَّزُ [2] جِدًّا إِزَاءَ اللَّذَةِ، وَهِيَ مِنْ مُشْتَقَّاتِ الوَاجِبِ؛ فَيَبْدُو إِذَنْ، أَنَّ الأَخْلاقَ تُطَالِبُ بِاسْمِ حُكْمِهَا القَطْعِيِّ، بِخِدْمَةِ جَمِيعِ التَّعَالِيمِ الأُخْرَى، بَيْنَمَا يَبْدُو أَنَّ الفَنَّ يُطَالِبُ مِنْ نَاحِيَتِهِ بِسِيَادَةٍ مُشَابِهَةٍ. مِنْ هُنَا خِلَافُ المُتَنَسِّكِينَ [3] الدِّينِيِّينَ مَعَ المُتَعَشِّقِينَ الجَمَالِيِّينَ . وَلَكِنَّ فِكْرَةَ الخِدْمَةِ هَذِهِ بِحَدِّ ذَاتِهَا، غَيْرُ جَمَالِيَّةٍ وَغَيْرُ أَخْلاقِيَّةٍ لأَنَّهَا، بِوَضْعِ اللَّذَةِ تَحْتَ تَصَرُّفِ خَصْمِهَا، تَعْدِمُ الحُرِّيَّةَ وَحُسْنَ النِّيَّةِ، وَبِالتَّالِي الأُسْلُوبَ؛ وَبَدِيهِيٌّ أَنَّ الأَخْلاقِيَّةَ تُصِيبُ القُوَّةَ الأُخْرَى عِنْدَمَا تَتَمَوْضَعُ هَذِهِ الدِّعَايَةُ الأَجِيرَةُ [4] بِجَوْهَرِهَا تَحْتَ أَوَامِرِ الغَرِيزَةِ المُخْتَلَّةِ، وَتُصْبِحُ مُثُلاً خَلاعِيَّةً [5]. فَالفَنُّ مُتَنَاسِقٌ مَعَ الأَخْلاقِ وَغَيْرُ خَاضِعٍ لَهَا، وَذَلِكَ بِاسْتِقْلالِهِ وَصِدْقِهِ .

وَيَبْدُو لَنَا أَنَّ الدِّينَ هُوَ أَلِفُ الجَمَالِيَّةِ وَيَاؤُهَا [6]؛ فَالفَنُّ يَبْدَأُ وَيَنْتَهِي بِالمُقَدَّسِ. وَكَمَا أَنَّ

---

1. التأرجح = عدم الاستقرار على قرار أو رأي .
2. تتحرز= تحتاط وتتحفظ .
3. جمع متنسك : وهو المتعبد المحافظ على تعبده والمواظب في أداء مناسكه .
4. تاخذ أجرة على خدمة تقدمها . والمقصود بالدعاية هنا أن اللذة الفنية تخضع للغريزة لا للاخلاق .
5. خلاعية = إباحية وفاحشة ولا أخلاقية .
6. ألفها وياؤها = تعبير مجازي عن الاحتواء والاشتمال والتضمن .



الذُّهُولَ [1] يُشَكِّلُ خَاصَّةَ الجَمَالِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ الوَحِيدَةِ، كَذَلِكَ لَا يَفْرِضُ الفَنُّ الحَقُّ نَفْسَهُ إِلَّا بِالبَحْثِ المُنجزِ بِتَأْثِيرِ فِكْرٍ تَدَيُّنِيٍّ، وَبِتَأْثِيرِ حِمْيَةٍ [2] تَتَنَاقَضُ وَالتِّقْنِيَّاتِ المَادِّيَّةَ الَّتِي يَنْفُرُ مِنْهَا المُبْدِعُونَ الكِبَارُ .

وَعَلَى هَذَا النَّمَطِ ، فَكَمَا أَنَّ الحَقَّ هُوَ مَدَارُ جَمِيعِ القِيَمِ، فَإِنَّ القُدْسِيَّ هُوَ هَدَفُهَا، وَالمَثَلُ الأَعْلَى الَّذِي تَتَّجِهُ نَحْوَهُ بِالضَّرُورَةِ . وَمَا الفَنُّ إِذَنْ، إِلَّا دَرَجَةٌ مِنْ دَرَجَاتِ الصُّعُودِ نَحْوَ المُطْلَقِ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ المَرْحَلَةَ الأَوْفَرَ ثُبُوتا، وَالوَسِيلَةَ الأَشَدَّ صَلَابَةً الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ لِتَجْسِيدِ المِثَالِيِّ فِي الوَاقِعِيِّ، وَالإِلَهِيِّ فِي الإِنْسَانِيِّ ». [3]

دوني هويسمان [4]

أسئلة :

1 – استدلّ من النص على فكرة تأرجح الفن بين الاستقلالية والتبعية لقيم الإنسان الأخرى.

2 – كيف أثبت صاحب النص الطرح القائل بأن اللذة تمثل نقطة افتراق بين الفن والأخلاق؟

3 – أذكرْ ما يوحي في النص بوجود انسجام تامّ بين الفن والدين. وبيّنْ رأيك فيه.

[1]- الذهول = الانبهار والاندهاش والإعجاب الشديد .

[2]- حمية = نظام حماية و وقاية .

[3]- دوني هويسمان ، علم الجمال، ترجمة/ ظافر الحسن ، ط 2، SNED، الجزائر، 1975. ص ، (182 وما بعدها) بتصرف.

[4]- Denis Huisman هو باحث فلسفي فرنسي معاصر (وُلد عام 1929) متخصص في تاريخ الفلسفة، وضليع في علم الجمال وفلسفة الفن. من مؤلفاته : تاريخ الفلسفة الفرنسية، علم الجمال، معجم الفلاسفة .

66 - المطلق [1] في الفن

[لماذا نعتبرُ علاقةَ الإنسانِ بالمُطلقِ مَبدأً للفنِّ وغايةً لهُ في نفسِ الوقتِ ؟]

« الشُّعُورُ الفَنيُّ فِي الإِنْسَانِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ عَوَاطِفَ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ مُنْسَجِمَةً مُتَآلِفَةً ، تَلْتَقِي فِي نَزْعَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَوَاجِدَةٍ فِي قِوَى المُطْلَقِ، وَالطُّقُوسِ المُتَّبَعَةِ لإِرْضَائِهَا. هَذَا الشُّعُورُ الَّذِي يُوَحِّدُ بَيْنَ تَطَلُّعِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ، هُوَ مَا يَجْعَلُ نُفُوسَهُمْ تَتَنَاغَمُ مَعَ مُعْطَيَاتِ الفَنِّ، وَتَتَّخِذُ مِنْهَا مَثَلَهَا ، وَرُمُوزَ مُقَدَّسَاتِهَا ، وَرَوَابِطَ الْتِقَاءَاتِهَا . فَالإِنْسَانُ الَّذِي يَتَحَرَّرُ مِنَ يَوْمِيَّاتِ العَالَمِ، يَلْقَى نَفْسَ الشُّعُورِ بِالتَّحَرُّرِ فِيْ مِحْرَابِ [2] الْفَنِّ [...].

إِنَّ إِبْدَاعَاتِ الفَنِّ هِيَ طَرِيقُ التَّحَقُّقِ لِلإِنسَانِ، وَمَجَالُ التَّعْبِيرِ عَنْ رَغْبَةِ السَّيْطَرَةِ وَالتَغَلُّبِ الدَّائِمَةِ فيه . وَحَتَّى فِيْ أَكْثَرِ مَظَاهِرِ الحِسِّ الإِنْسَانِيِّ سَلْبِيَّةً، نَجِدُ الخَيَالَ الفَنِّيَّ يَعْمَلُ لِتَأْكِيدِ هَذِهِ النَّزْعَةِ؛ فَالْحِسُّ المُرْهَفُ أَمَامَ المُطْلَقِ الَّذِي يُعَانِيهِ المُتَصَوِّفَةُ وَالنُّسَّاكُ [3] وَالمُحِبُّونَ، هُوَ عَيْنُهُ حِسُّ الفَنَّانِ المُتَطَلِّعِ إِلَى امْتِلَاكِ العَالَمِ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِ، وَفِعْلُهُمْ هُمْ هُوَ انْقِطَاعُهُمْ لِلْمُطْلَقِ ذَاتِهِ لِيَرْفَعُوهُ مَعَ رَغَبَاتِهِم بِدَافِعٍ فَنِّيٍّ مُلِحٍّ، فَوْقَ الفَشَلِ وَالعَجْزِ وَالجُمُوْدِ، وَهُوَ عَيْنُهُ مَا حَمَلَ الإِنْسَانَ فِي بِدَائِيَّتِهِ لأَنْ يَرَى قِوَى الطَّبِيعَةِ المُتَحَرِّكَةِ، وَكَأَنَّهَا كَائِنَاتٌ لَهَا قُدْرَةُ المُطْلَقِ [4] [...].

فَالإِنْسَانُ مُنْذُ ابْتِدَأَ، وَبِكُلِّ نَوَازِعِهِ الإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ، ابْتَدَأَ مَعَهُ الفَنَّانُ؛ فَهُوَ الَّذِي قَادَهُ إِلَى الرُّقِيِّ وَالصُّعُودِ بِحِسِّهِ وَعَقْلِهِ، بَعْدَ أَنْ صَوَّرَ لَهُ العَالَمَ فَضَاءً لا يَنْتَهِي، وَمَدَى يَتَجَدَّدُ

---

1. المطلق = الحقيقة الكبرى التي هي علة من وراء الوجود؛ وهو القوة الإلهية الخالقة والمفارقة .
2. المحراب = موضع للتعبّد .
3. النساك = المتعبدون المنقطعون لعبادتهم (مثل الرهبان) .
4. يكفي أن نعود إلى تلك النقوشات التي خلفها الإنسان البدائي، لنتلمس مزيجا من مشاعر الرهبة الدينية ومشاعر الانبهار الجمالية؛ فهي جميعا تؤكد هذا المعنى.



مَع تجدُّدِ الرَّغبَةِ بتجاوُزِه . فَالفَنَّانُ بخَيالِه الفَذِّ ، وَطُمُوحِه المُتَنَامِي إِلَى الكَشْفِ، يَقْلِبُ الأشْياءَ دَائِمًا لِيَكْشفَ مَا وَرَاءَهَا، وَيَتوَغَّلُ فِي ضَبَابِيَّةِ ذَلِكَ المَاوَرَاءِ، وَهُوَ الَّذي قَادَ إِلَى الحَضَارَةِ وَجَمَعَ شَتَاتَ النَّاسِ المَذْعُورِينَ [1]، طَالِبِي الغِذَاءِ وَالدِّفْءِ، فِي وِحْدَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ تَطْمَئِنُّ إِلَى غَايَةٍ تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا نَزَعَاتُ الأَفْرَادِ، وَيُمَارِسُونَ مِنْ خِلَالِهَا مَا وَعَوْا مِنْ حُرِّيَّتِهِمْ فِي مُجْتَمَعٍ مَتَمَاسِكٍ بِعَقَائِدِهِ وَأَسَالِيبِ حَيَاتِهِ ». [2]

يوسف الحوراني [3]

أسئلة :

1 – وضّحْ، انطلاقا من النص، كيف يوحّد الفن الأفراد والشعوب؟

2 – اشرحْ علاقة الفن بالكشف والتطور الإبداعي للإنسان كما عرضها المؤلف.

3 – حلّلْ وانقدْ الطرح المتضمن في النص؛ والذي مفاده أن الفن بدأ مبكّراً؛ أي مع الوجود الإنساني الأول حينما كان يجابه الرجل البدائي مخاطر الطبيعة.

---

1. يقصد الأقوام البدائية التي كانت في حالة ذعر (خوف) دائم بسبب الصراع الضاري مع قوى الطبيعة .
2. يوسف الحوراني ، الإنسان والحضارة، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة ولا تاريخ ، ص، (96 – 97) .
3. مؤرخ ومترجم ومفكر عربي لبناني معاصر. من مؤلفاته المعروفة : القومية والوحدة في الفكر السياسي العربي، جماليات الحكمة في التراث الثقافي البابلي، الإنسان والحضارة، والبنية الحضارية في الشرق المتوسطي القديم .

67 - حقيقة الإحساس بالجمال

[أَيُّهَا يُتَرْجِمُ طَبِيعَةَ الفَنِّ : تَصَوُّرَاتُنَا حَوْلَ الأَشْيَاءِ ، أَمْ الاسْتِجَابَةُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ؟]

« إِنَّ الفَنَّ وَالإِحْسَاسَ بِالجَمَالِ يُعْتَبَرَانِ مِنَ الصِّفَاتِ البَشَرِيَّةِ البَحْتَةِ. كَمَا أَنَّ عَمَلَ أَشْيَاءَ يُقَالُ عَنْهَا إِنَّهَا « جَمِيلَةٌ »، إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ التِي تَعْلُو بِالإِنْسَانِ فَوْقَ الوُحُوشِ؛ وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الفَنَّ وَالإِحْسَاسَ بِالجَمَالِ، فِي سِيَاقِ تَطَوُّرِ الإِنْسَانِ، مَسْأَلَةً مُثِيرَةً لِلتَّفْكِيرِ.

وَلْنَكُنْ وَاضِحِينَ مُنْذُ البِدَايَةِ، فِي القَوْلِ بِأَنَّ جَمَالَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا هُوَ إِحْسَاسٌ إِنْسَانِيٌّ نَحْوَ بَعْضِ الأَشْيَاءِ فِي الطَّبِيعَةِ وَلَيْسَ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ نَفْسِهَا؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ هُوَ الذِي يَتَأَثَّرُ بِعَظَمَةِ سَلاَسِلِ الجِبَالِ المُغَطَّاةِ بِالثُّلُوجِ، وَالإِنْسَانُ هُوَ الذِي يُحِبُّ رَوْعَةَ الفَرَاشَةِ وَهِيَ تَتَرَاقَصُ تَحْتَ الشَّمْسِ المَدَارِيَّةِ [1]، أَوْ حَتَّى وَهِيَ مُثَبَّتَةٌ فِي وَسَطِ مَجْمُوعَةٍ حَشَرِيَّةٍ؛ وَالقِيمَةُ البِيُولُوجِيَّةُ [2] لِكُلِّ هَذِهِ العَظَمَةِ فِي الصُّوَرِ وَالأَلْوَانِ قِيمَةٌ نَفْعِيَّةٌ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا تَتَّخِذُ فِي الحَيَوَانَاتِ عَلاَمَاتٍ مُمَيِّزَةً لِلنَّوْعِ.

عَلَى أَنَّهُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ حَقًّا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَدَى الحَيَوَانَاتِ نَوْعٌ مَا مِنَ الإِحْسَاسِ بِالجَمَالِ [3] [...]؛ فَبَعْضُ الطُّيُورِ لاَ تَكْتَفِي بِاخْتِيَارِ الأَشْيَاءِ الَّتِي تَبْدُو جَمِيلَةً، وَلَكِنَّهَا تُبْقِيهَا عَلَى حَالَةٍ جَذَّابَةٍ. فَهِيَ تَسْتَبْدِلُ الزُّهُورَ الجَافَّةَ وَالثِّمَارَ المُتَحَلِّلَةَ، وَتَتَمَسَّكُ بِنُظُمٍ لَوْنِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَالطَّيْرُ الَّذِي يَسْتَعْمِلُ الأَزْهَارَ الزَّرْقَاءَ يَرْمِي بَعِيدًا الزَّهْرَةَ الصَّفْرَاءَ الَّتِي يَكُونُ قَدْ غَرَسَهَا غَيْرُهُ؛ فَنَمُوذَجُ بِنَاءِ الأَعْشَاشِ وَطَرِيقَةُ تَزْيِينِهَا إِنَّمَا هُمَا مِنَ الخَصَائِصِ النَّوْعِيَّةِ لِلطُّيُورِ، وَأَنَّ الطَّيْرَ « الفَنَّانَ » لاَ يُحَاوِلُ تَجْرِيبَ الدِّيكُورَاتِ [4] المُخْتَلِفَةِ، وَلَكِنَّهُ يَخْتَارُ مَا يَبْدُو أَنَّهُ الأَحْسَنُ لَدَيْهِ [...].

---

[1]- نسبة إلى المدار وهو خط اعتدال جغرافي (السرطان ، والجدي). والمقصود الجو الربيعي المعتدل.

[2]- أي القيمة المتعلقة بالتكيف الحيوي أو التكاثر وحفظ البقاء للنسل من خلال تثبيت خصائص النوع .

[3]- هو مجرد إحساس لا يرتقي لكي يكون انطباعا ؛ وهو غريزي في الحيوان لا يعيه ولا يعي الغاية منه.

[4]- كلمة أجنبية تعني العرض والخلفية التزيينية والمناظر التي تستعمل في المشاهد السينمائية والمسرحية.



وَقَدْ بُذِلَتْ مُحَاوَلاَتٌ مُخْتَلِفَةٌ كَثِيرَةٌ لِوَضْعِ نَظَرِيَّةٍ تُفَسِّرُ وَظَائِفَ الفَنِّ وَالإِحْسَاسِ بِالجَمَالِ فِي الإِنْسَانِ. وَوِفْقًا لِذَلِكَ، فَإِنَّ خِبْرَةَ الإِنْسَانِ بِالعَالَمِ لَهَا ثَلاَثُ مُكَوِّنَاتٍ: الإِحْسَاسُ بِالجَمَالِ، وَالإِحْسَاسُ العَاطِفِيُّ، وَالتَّأَمُّلُ. وَتُوجِّهُ هَذِهِ المُكَوِّنَاتُ نَظَرَ الإِنْسَانِ إِلَى أَشْيَاءَ مُعَيَّنَةٍ، وَإِلَى النَّفْسِ، وَإِلَى البِيئَةِ عَلَى التَّوَالِي. فَالفِعْلُ المُتَكَامِلُ لِهَذِهِ المُكَوِّنَاتِ الثَّلاَثَةِ يُعْطِي مَفْهُومًا وَاضِحًا وَتَرَابُطًا لِلْأَشْيَاءِ. وَوَظِيفَةُ المُكَوِّنِ الخَاصِّ بِالإِحْسَاسِ بِالجَمَالِ هِيَ الإِبْقَاءُ عَلَى الاسْتِجَابَةِ لِلشَّيْءِ أَوْ المَوْقِفِ الَّذِي نُوَاجِهُهُ. إِنَّهُ يُوَجِّهُ السُّلُوكَ نَحْوَ تَوضِيحِ الخَاصِيَّةِ الجَوْهَرِيَّةِ لِكِلَيْهِمَا بِكُلِّ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ غِنًى وَقُوَّةٍ؛ وَخِبْرَتُنَا بِالإِحْسَاسِ بِالجَمَالِ إِنَّمَا هِيَ حَالَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لِمَعْرِفَتِنَا بِالعَالَمِ وَبِأَنْفُسِنَا، وَالتَّعْبِيرُ وَالخَلْقُ الفَنِّيُّ هُمَا نَتَائِجُ هَذِهِ الخِبْرَةِ. وَيَبْدُو أَنَّ بَعْضَ صُوَرِ الفَنِّ لَهَا عَلاَقَةٌ بِاللَّعِبِ، وَأَنَّ تَنْمِيَةَ المَهَارَةِ تَكُونُ مَصْدَرًا لِمُتْعَةٍ عَظِيمَةٍ؛ وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ الأَخِيرَةُ تَجْعَلُ مِنَ النَّشَاطِ الفَنِّيِّ مَصْدَرًا لِلتَّرَابُطِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَأَنَّ القِيمَةَ التَّكَيُّفِيَّةَ لِهَذَا التَّرَابُطِ فِي المُجْتَمَعَاتِ البَشَرِيَّةِ لاَ يُمْكِنُ إِغْفَالُ تَقْدِيرِهَا». [1]

ثيودوسيوس دوبزانسكي [2]

أسئلة:

1 – علّلْ لماذا اعتبر المؤلف الإحساس بالجمال ليس مجرد سلوك انفعالي من حيث المبدأ؟

2 – اربطْ، من خلال النص، بين الفن والخبرة في الحياة.

3 – اكتبْ فقرة تضمّنها رأيك في إمكانية وجود الإحساس الجمالي عند غير الإنسان.

---

[1] - ثيودوسيوس دوبزانسكي، تطور الجنس البشري، ترجمة/ عبدالحليم منتصر، المكتبة المصرية، ط1، القاهرة 1969، ص، (267 – 268).

[2] - Theodosius Dobzhanski عالم وراثة وعالم حيوان أمريكي من أصل روسي (1900– 1975). بدأ أبحاثه الكثيرة بجامعة كييف بأوكرانيا قبل أن ينتقل إلى أمريكا حيث طور هذه الأبحاث في جامعات كولومبيا، ديفيس، وروكفيلير. له ثلاثية مشهورة: المورثات وأصل الأنواع، تطور الجنس البشري، و تطور العقل البشري.

68 - التوجيه الجمالي

[ما أَهَمِيَّةُ الفَنِّ والإِحْسَاسِ بالجَمَالِ فِي تَهْذِيبِ السُّلوكِ وَتَدْعِيمِ تَمَاسُكِ المُجْتَمَعِ؟]

«إِنَّ الأَفْكَارَ بِصِفَتِهَا رُوحَ الأَعْمَالِ التِّي تُعَبِّرُ عَنْهَا أَوْ تَسِيرُ بِوَحْيِهَا، إِنَّمَا تَتَوَلَّدُ مِنَ الصُّوَرِ المُحَسَّةِ [1] المَوْجُودَةِ فِي الإِطَارِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَالَّتِي تَنْعَكِسُ فِي نَفْسِ مَنْ يَعِيشُ فِيهِ. وَهُنَا تُصْبِحُ صُوَرًا مَعْنَوِيَّةً يَصْدُرُ عَنْهَا تَفْكِيرُهُ. فَالجَمَالُ المَوْجُودُ فِي الإِطَارِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى أَلْوَانٍ وَأَصْوَاتٍ وَرَوَائِحَ وَحَرَكَاتٍ وَأَشْكَالٍ، يُوحِي لِلإِنْسَانِ بِأَفْكَارِهِ وَيَطْبَعُهَا بِطَابَعِهِ الخَاصِّ مِنَ الذَّوْقِ الجَمِيلِ، أَوْ السَّمَاجَةِ [2] القَبِيحَةِ. فَبِالذَّوْقِ الجَمِيلِ الَّذِي يَنْطَبِعُ فِيهِ فِكْرُ الفَرْدِ، يَجِدُ الإِنْسَانُ فِيْ نَفْسِهِ نُزُوعاً إِلَى الإِحْسَانِ فِي العَمَلِ، وَتَوَخِّياً لِلْكَرِيمِ مِنَ العَادَاتِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ لِلْجَمَالِ أَهَمِّيَّةً اجْتِمَاعِيَّةً هَامَّةً، إِذَا مَا اعْتَبَرْنَاهُ المَنْبَعَ الَّذِي تَنْبُعُ مِنْهُ الأَفْكَارُ، وَتَصْدُرُ عَنْهُ بِوَاسِطَةِ تِلْكَ الأَفْكَارِ أَعْمَالُ الفَرْدِ فِي المُجْتَمَعِ. وَالوَاقِعُ أَنَّ أَزْهَدَ [3] الأَعْمَالِ - فِي نَظَرِنَا - لَهُ صِلَةٌ كُبْرَى بِالجَمَالِ، فَالشَّيْءُ الوَاحِدُ قَدْ يَخْتَلِفُ تَأْثِيرُهُ فِي المُجْتَمَعِ بِاخْتِلَافِ صُورَتِهِ الَّتِي تَنْطِقُ بِالجَمَالِ، أَوْ تَنْضَحُ [4] بِالقُبْحِ. وَنَحْنُ نَرَى أَثَرَ تِلْكَ الصُّورَةِ فِي تَفْكِيرِ الإِنْسَانِ وَفِي عَمَلِهِ وَفِي السِّيَاسَةِ الَّتِي يَرْسُمُهَا لِنَفْسِهِ. وَلَعَلَّ مِنَ الوَاضِحِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنَّنَا أَصْبَحْنَا اليَوْمَ نَفْقِدُ ذَوْقَ الجَمَالِ، وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا فِي ثَقَافَتِنَا، إِذَنْ لَسَخَّرْنَاهُ لِحَلِّ مُشْكِلَاتٍ جُزْئِيَّةٍ تَكُوْنُ فِي مَجْمُوعِهَا جَانباً مِنْ حَيَاةِ الإِنْسَانِ.

وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ المُحِيطِ تَدْخُلُ فِي كُلِّ عَمَلٍ فَرْدِيٍّ أَوْ جَمَاعِيٍّ فِي وَسَطٍ مُتَحَضِّرٍ، وَلَكِنَّهَا تَدْخُلُ ضِمْناً فَقَطْ لَا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ الَّذِي نُرِيدُ القِيَامَ بِهِ هُنَا حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَحَدِ

[1] - المحسّة = التي تمّ الإحساس بها.
[2] - السماجة = المذاق السيء والمقزز.
[3] - أزهد الأعمال = أقلها قيمة.
[4] - تنضح = تفوح وتصدر رائحة.



مُقَوِّمَاتِ الثَّقَافَةِ وَهُوَ الجَمَالُ. وَالإِطَارُ الحَضَارِيُّ بِكُلِّ مُحْتَوَيَاتِهِ مُتَّصِلٌ بِذَوْقِ الجَمَالِ، بَلْ أَنَّ الجَمَالَ هُوَ الإِطَارُ الَّذِي تَتَكَوَّنُ فِيهِ أَيَّةُ حَضَارَةٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ نُلَاحِظَهُ فِي نُفُوسِنَا».[1]

مالك بن نبي[2]

أسئلة:

1 – استنبطْ من النص ما يثبت التأثير الإيجابي للذوق الجمالي في فكر وسلوك الإنسان.

2 – توسّعْ، استناداً إلى النص، في بيان طبيعة العلاقة بين الإحساس الجمالي ورقي الثقافات والحضارات.

3 – تأمّلْ وأجبْ: " إننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال. ولو أنه كان موجوداً، إذن لسخّرناه لحل مشكلات جزئية ... للإنسان". فهل لهذا الطرح ما يبرره؟

[1] ـ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة/ع . ك مسقاوي وع . شاهين ، ط3، دار الفكر، بيروت 1969، ص، (138–139 – 143) بتصرف.

[2]ـ سبق التعريف به في موضع آخر. (أنظر النص رقم : 39) .



69 - التجربة الجمالية والحضارة

[مَا هِيَ المَكانَةُ الَّتي تَحْتَلُّهَا التَّجْرِبَةُ الفَنِّيَّةُ فِي سِيَاقِ الإِبْدَاعِ الثَّقَافِيِّ وَالحَضَارِيِّ؟]

« التَّجْرِبَةُ الجَمَالِيَّةُ مَظْهَرٌ لِلْحَيَاةِ وَتَسْجِيلٌ لَهَا وَاحْتِفَالٌ بِهَا فِي حَضَارَةٍ مَا، وَهِيَ وَسِيلَةٌ لِتَرْقِيَةِ تَقَدُّمِهَا، وَهِيَ، إِلَى ذَلِكَ، الحُكْمُ النِّهَائِيُّ عَلَى صِفَةِ الحَضَارَةِ. ذَلِكَ أَنَّ التَّجْرِبَةَ الجَمَالِيَّةَ فِي الوَقْتِ الَّذِي يَبْتَدِعُهَا أَفْرَادٌ وَيَسْتَمْتِعُ بِهَا آخَرُونَ، فَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَكُونُونَ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ فِي مَضْمُونِ خِبْرَتِهِمْ بِسَبَبِ الثَّقَافَاتِ الَّتِي يُشَارِكُونَ فِيهَا.

وَهُنَاكَ عَنَاصِرُ عَابِرَةٌ وَأُخْرَى بَاقِيَةٌ فِي الحَضَارَةِ. وَالعَنَاصِرُ البَاقِيَةُ لَيْسَتْ مُنْفَصِلَةً، لِأَنَّهَا وَظَائِفُ لِكَثْرَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الأَحْدَاثِ الجَارِيَةِ الَّتِي تُنَظَّمُ فِي مَعَانٍ تُكَوِّنُ العُقُولَ. وَالفَنُّ هُوَ القُوَّةُ العُظْمَى الَّتِي تُحَقِّقُ هَذَا التَّمَاسُكَ. فَالأَفْرَادُ أَصْحَابُ العُقُولِ يَذْهَبُونَ وَاحِداً بَعْدَ آخَر، عَلَى حِينِ أَنَّ الآثَارَ الَّتِي أُودِعَتْ فِيهَا المَعَانِي وَعُبِّرَ عَنْهَا تَعْبِيراً مَوْضُوعِيّاً تَبْقَى، وَتُصْبِحُ جُزْءاً مِنَ البِيئَةِ، وَالتَّفَاعُلُ مَعَ هَذَا الوَجْهِ مِنَ البِيئَةِ هُوَ مِحْوَرُ الاسْتِمْرَارِ المُتَّصِلِ فِي حَيَاةِ الحَضَارَةِ [...].

إِنَّ مَجْدَ الإِغْرِيقِ، وَعَظَمَةَ الرُّومَانِ، تُلَخِّصَانِ لِمُعْظَمِ النَّاسِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ جَمِيعاً فِيمَا عَدَا دَارِسَ التَّارِيخِ، تِلْكَ الحَضَارَتَيْنِ؛ وَالمَجْدُ وَالعَظَمَةُ صِفَتَانِ جَمَالِيَّتَانِ. وَمِصْرُ القَدِيمَةُ [1] - فِيمَا عَدَا دَارِسَ تَارِيخِهَا القَدِيمِ- هِيَ بِالنِّسْبَةِ لَنَا آثَارُهَا وَمَعَابِدُهَا وَآدَابُهَا. إِنَّ تَوَاصُلَ الثَّقَافَةِ فِي انْتِقَالِهَا مِنْ حَضَارَةٍ إِلَى أُخْرَى وَفِي جَرَيَانِهَا دَاخِلَ الثَّقَافَةِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ شُرُوطٌ تَقُومُ عَلَى الفَنِّ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. فَهَذِهِ (طَرْوَادَةُ) [2] إِنَّمَا تَعِيشُ فِي خَوَاطِرِنَا بِالشِّعْرِ وَبِالآثَارِ الفَنِّيَّةِ الَّتِي اكْتُشِفَتْ مِنْ أَطْلَالِهَا. وَلَقَدْ ذَهَبَتْ آلِهَةُ الوَثَنِيِّينَ وَطُقُوسُهُمْ وَطَوَاهَا الزَّمَانُ وَلَا تَزَالُ مَعَ ذَلِكَ بَاقِيَةً إِلَى اليَوْمِ فِيمَا نَسْتَخْدِمُهُ مِنْ بَخُورٍ وَأَثْوَابٍ وَأَعْيَادٍ [...].

1- أي الفرعونية.

2- من مدن اليونان القديمة؛ شهدت معركة شهيرة خلدها الشعر الملحمي الكلاسيكي.

وَلَوْ أَنَّكَ اسْتَبْعَدْتَ الطُّقُوسَ وَالشَّعَائِرَ، وَمَا نَمَا عَنْهُمَا مِنْ تَمْثِيلٍ إِيمَائِيٍّ [1]، وَ رَقْصٍ، وَغِنَاءٍ، وَ آلَاتٍ مُوسِيقِيَّةٍ تَصْحَبُهُ، وَاسْتَبْعَدْتَ الأَدَوَاتِ وَالأَوَانِي المُسْتَعْمَلَةَ فِي الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ وَالَّتِي شُكِّلَتْ عَلَى نَمُوذَجِ حَيَاةِ الجَمَاعَةِ وَطُبِعَتْ بِطَابَعِهَا الَّذِي ظَهَرَ فِي الفُنُونِ الأُخْرَى، لَغَرِقَتْ أَحْدَاثُ المَاضِي السَّحِيقِ فِي غَيَاهِبِ [2] النِّسْيَانِ ». [3]

جون ديوي [4]

أسئلة:

1 – على أيّ أساس بنى جون ديوي فكرته بأن الفن هو مسوّغ نشأة ورقيّ الحضارة؟

2 – توسّعْ، اعتمادا على النص، في التصور القائل أن الفن هو بمثابة الذاكرة الحية للإنسان.

3 – لتقويم النص، بيّن إنْ كان الفن هو العامل الوحيد في الرقي الحضارات؟

---

[1] التمثيل الإيمائي هو أول أشكال التمثيل المسرحي اليوناني القديم.

[2] الغياهب (جمع غيهب)؛ وهو الظلمة الحالكة والشديدة السواد.

[3] جون ديوي، الفن كخبرة، ترجمة/ أحمد فؤاد الأهواني في كتابه: "جون ديوي"، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، ط 2، دار المعارف بمصر، القاهرة 1968، ص، (203).

[4] John Dewey هو فيلسوف وعالم تربية أمريكي معاصر (1859 – 1952)، يُعَدّ أحد أهم أعلام المذهب البراغماتي. حاضر في جامعات: ميشيغان، شيكاغو، وكولومبيا. من مؤلفاته: المنطق أو نظرية البحث، الطبيعة الإنسانية والسلوك، الديمقراطية والتربية، الفن كخبرة، عقيدتي الفلسفية.



70 - معالم التصوف الإسلامي

[هَلْ يُقِرُّ التَّصَوُّفُ الإِسْلامِيُّ، مَعَ كَثْرَةِ مَذَاهِبِه، بِمَبادِئَ عَامَّةٍ و وَاحِدَةٍ؟]

« يَنْسِبُ الصُّوفِيَّةُ صِفَةَ الوَحْدَةِ لله؛ أي أَنَّهُ لا إِلَهَ سِوَاهُ، وَهِيَ وَحْدَةٌ فِي الْجَوْهَرِ وَفِي التَّرْكِيبِ. وَ اللهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الْعُظْمَى الَّتِي لا تَتَغَيَّرُ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يُظَنُّ مِنْ تَغَيُّرٍ فِي الصِّفَاتِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ مُكَوَّنًا مِنْ أَجْزَاءٍ، وَلَا يُمْكِنُ تَعْرِيفُهُ وَالْإِحَاطَةُ بِهِ. وَصِفَاتُ اللهِ غَيْرُ ذَاتِهِ [1]؛ إِنَّهَا مَظَاهِرُ ذَاتِهِ، وَهِيَ انْبِثَاقٌ مِنَ الْوَحْدَةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَوِ انْعِكَاسٌ لَهَا، وَبِوَاسِطَتِهَا تَحْدُثُ ظَوَاهِرُ الْكَوْنِ.

هَذِهِ هِيَ الْمَعَالِمُ الَّتِي يَتَّفِقُ عَلَيْهَا كُلُّ الصُّوفِيَّةِ تَقْرِيبًا، ثُمَّ تَتَشَعَّبُ اتِّجَاهَاتُهُمْ. عَلَى أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرَى أَنَّ اللهَ جَمَالٌ وَكَمَالٌ، وَيَرَاهُ بَعْضُهُمْ إِرَادَةً، وَيَرَاهُ آخَرُونَ نُورًا، وَتُبْرِزُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ فِيهِ صِفَةَ الْعِلْمِ فَيَرَوْنَهُ عِلْمًا كَمَا هُوَ حَالُ ابْنِ عَرَبِيٍّ.

وَلَمَّا كَانَ الْعَالَمُ انْعِكَاسًا لِلْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ انْبِثَاقًا [2] مِنْ ذَاتِ اللهِ الَّتِي هِيَ كَمَالٌ وَجَمَالٌ وَنَقَاءٌ، فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ أَيْضًا كَامِلَةٌ وَجَمِيلَةٌ وَنَقِيَّةٌ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ دَرَجَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِنِسْبَةِ قُرْبِهَا أَوْ بُعْدِهَا مِنْ مَصْدَرِهَا. وَرُوحُ الْإِنْسَانِ انْبِثَاقٌ مِنَ اللهِ كَانْبِثَاقِ الشُّعَاعِ مِنَ الشَّمْسِ، وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الشُّعَاعَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ شُعَاعًا، كَانَ يُؤَلِّفُ مَعَ الشَّمْسِ وَحْدَةً وَاحِدَةً. فَكَذَلِكَ الرُّوحُ قَبْلَ أَنْ تَتَّحِدَ بِالْأَجْسَامِ؛ وَالْأَجْسَامُ بِوَاسِطَةِ هَذَا الْاتِّحَادِ غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ، الَّذِي يُشْبِهُ اتِّحَادَ الضَّوْءِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الشُّعَاعِ مَعَ ذَرَّاتِ الرِّمَالِ، تُعْطِي مَظْهَرًا يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ مَظْهَرِهَا قَبْلَ اتِّحَادِهَا مَعَ الْأَرْوَاحِ.

1- وفي هذا الموضع يخالفون المتكلمين الذين يرى بعضهم (كالمعتزلة) أن صفات الله هي عين ذاته .

2- يقترب معنى الانبثاق هنا من فكرة الفيض التي قال بها مذهب الأفلاطونية الجديدة. ولا يخفى أن كثيرا من متصوفة الإسلام قد نهلوا من هذا المذهب كما نهلوا أيضا من الاتجاهات الروحية الوافدة من الشرق .

وَالْإِنْسَانُ هَيْكَلٌ مُصَغَّرٌ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ [1]، أَسْهَمَتْ صِفَاتُ اللهِ الْعُلْيَا فِي خَلْقِهِ، وَلَكِنْ بِصُورَةٍ غَيْرِ كَامِلَةٍ. وَعَلَى هَذَا فَلِلْإِنْسَانِ مَكَانَةٌ فَرِيدَةٌ؛ وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَقِرٍّ لِأَنَّهُ دَائِمُ الْحَرَكَةِ وَالْجُهْدِ رَجَاءَ أَنْ يُعِيدَ وَحْدَتَهُ مَعَ مَصْدَرِهِ. وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ تَتَجَلَّى فِي رَغْبَةٍ هِيَ الْحُبُّ. وَالْحُبُّ هُوَ مَضْمُونُ الْإِيمَانِ [2]؛ فَالْبَاحِثُ عَنِ اللهِ لَا يَجِدُهُ إِلَّا فِي الْقَلْبِ.

وَيَمْضِي الْمُتَصَوِّفُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ صَاعِدًا إِلَى الْمَحْبُوبِ [3]، فَيَعْبُرُ خِلَالَ رِحْلَتِهِ إِلَى اللهِ دَرَجَاتٍ مُتَعَدِّدَةً، مُبْعِدًا الشُّرُورَ عَنْ نَفْسِهِ، مُتَخَلِّقًا بِأَحْسَنِ الصِّفَاتِ؛ فَالْجَنَّةُ هِيَ فَرْطُ السُّرُورِ بِالاتِّحَادِ مَعَ اللهِ أَوِ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَالنَّارُ هِيَ الْأَلَمُ الْمُنْبَعِثُ نَتِيجَةَ الْبُعْدِ وَالانْفِصَالِ عَنْهُ [4]؛ وَالْهَدَفُ الْجَدِيرُ بِهَذَا الْحُبِّ هُوَ اللهُ بِوَصْفِهِ الْجَمَالَ الْمُقَدَّسَ، وَلِلْوُصُولِ إِلَيْهِ يَجِبُ عَلَى الصُّوفِيِّ أَنْ يُرَبِّيَ نَفْسَهُ عَلَى حُبِّ أَلْوَانِ الْجَمَالِ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ يَتَأَمَّلَهَا وَيُفَكِّرَ فِيهَا بِعُمْقٍ لِأَنَّهَا مَظَاهِرُ الذَّاتِ الْعُلْيَا، وَلِأَنَّهَا دَرَجَاتٌ تُوصِلُ إِلَى هَذِهِ الذَّاتِ، وَحُبُّ الْإِنْسَانِ لِلْجَمَالِ يُرْضِي اللهَ لِأَنَّهُ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْجَمَالِ». [5]

أحمد شلبي [6]

---

[1] .يقول الإمام علي (كرم الله وجهه) في هذا المعنى : " وفيك (أيها الإنسان) انطوى العالم الأكبر " .

[2] .كان هذا حال شهيدة الحب الإلهي في صدر الإسلام الزاهدة (رابعة العدوية) .

[3] .وهو الله .

[4] .هذا مثال عن ولع المتصوفة بتأويل مصطلحات العقيدة (كالجنة والنار) حسب رؤى وطرق خاصة بهم.

[5] .د. أحمد شلبي ، الفكر الإسلامي: منابعه وآثاره، الأنجلومصرية ، بدون طبعة ، القاهرة 1962، ص، (135– 136) .

[6] .هو مفكر وكاتب عربي معاصر، تخصص في تاريخ الأديان ومقارنتها. من آثاره: الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي ، موسوعة التاريخ الإسلامي، الفكر الإسلامي، أديان الهند الكبرى .



أسئلة :

1 – اضبطْ، من خلال النص، تصور الصوفية لمفهوم الذات الإلهية.

2 – بيّنْ ما في النص من شواهد تترجم موقفهم من الروح والإنسان والعالم.

3 – للصوفية في الإسلام، كغيرهم من المشتغلين بالتصوف، منهج في الممارسة والتقرب إلى الذات الإلهية، فما هي، حسب صاحب النص، سمات هذا المنهج؟ وما رأيك فيه؟



71 - زواج القلب والعقل

[هَلْ بِمَقْدُورِنَا إِزَالَةُ تَعَارُضِ التَّصَوُّفِ مَعَ العِلْمِ، وَإِقْرَارُ نَوْعٍ مِنَ التَّآلُفِ بَيْنَهُمَا؟]

«قَدْ تَمِيلُ بَعْضُ عُقُولِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى مُحَاوَلَاتٍ مُعْتَدِلَةٍ، وَتَبْحَثُ عَنِ الْهُدُوءِ الْعَقْلِيِّ فِي حَالَةِ الْجَذْبِ وَالْوَجْدِ [1]؛ أَيْ حِينَمَا يُخْفِقُ الْمَنْطِقُ. فَلَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ لَحَظَاتٍ يَظْهَرُ فِيهَا الْعَالَمُ لَهُمْ فِي غَايَةِ الْانْسِجَامِ وَالْاتِّسَاقِ، وَيَمْلَأُ ذَلِكَ الْمَعْنَى قُلُوبَهُمْ، فَلَا يَبْقَى فِيهَا مَحَلٌّ لِسُؤَالٍ، وَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا شَاذًّا يُمْكِنُ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ وَيُقَالَ: لِمَاذَا هُوَ هَذَا دُونَ ذَاكَ؟ وَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَكُونُ الْقُوَّةُ الْعَاقِلَةُ عِنْدَهُمْ هَادِئَةً نَائِمَةً، لِأَنَّ الشُّعُورَ قَدْ رَبَّتَ عَلَيْهَا [2] فَهَدَّأَهَا. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ شَعَرَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَدْ أَحَسَّ بِمَعْرِفَةٍ يُحِيطُ بِهَا السَّلَامُ وَالْهُدُوءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَهِيَ مَعْرِفَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْتِجَهَا بُرْهَانٌ. بَلْ تَبْدُو التَّأَمُّلَاتُ وَالْبُحُوثُ النَّظَرِيَّةُ، فِي مِثْلِ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْمَلِيئَةِ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالرِّضَى النَّفْسِيِّ، شَيْئًا عَلِيلًا مُحْتَقَرًا، وَخَطَأً مَمْقُوتًا.

وَبِمَا أَنَّ الْقَلْبَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُبْعِدَ عَنِ الْعَالَمِ تِلْكَ اللَّامَنْطِقِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْعَقْلُ لَهُ، فَإِنَّ تَحْوِيلَ عَمَلِيَّةِ الْقَلْبِ هَذِهِ وَسَبْكَهَا [3] إِلَى قَاعِدَةٍ مُنَظَّمَةٍ، يَكُونُ أَهَمَّ عَمَلٍ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَلَكِنَّهُ، كَمَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُتَصَوِّفَةُ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، لَيْسَ عَامًّا؛ إِذْ أَنَّهُ غَيْرُ مَقْدُورٍ إِلَّا لِلْقَلِيلِ مِنَ الْأَفْرَادِ فِي أَوْقَاتٍ خَاصَّةٍ.

وَمَعَ هَذَا، فَالْقَادِرُونَ عَلَيْهِ عُرْضَةٌ لِأَنْ يُقَاسُوا تَجَارِبَ شَدِيدَةً وَنَوْبَاتٍ عَصِيبَةً. وَإِذَا اتَّفَقَ النَّاسُ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ طَرِيقَ الصُّوفِيَّةِ هُوَ مَلْجَأٌ لَا يُتَمَسَّكُ فِيهِ بِالْمَنْطِقِ وَلَا بِالْمَعْقُولِ، وَعَلَى

---

[1] الجذب = الهوى ، والوجد = العشق الشديد .

[2] أي أجرى عليها ما يشبه اللمسات الخفيفة التي تعمد إليها الأم لمساعدة طفلها على الخلود إلى النوم .

[3] سبكها = إعادة قولبتها وتشكيلها .



أَنَّ التَّفْكِيرَ فِي اللَّاوُجُودِ لَا يُمْكِنُ طَرْدُهُ مِنَ الذِّهْنِ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ لِلرَّغْبَةِ فِي الْبَحْثِ أَنْ تَظَلَّ غَيْرَ رَاضِيَةٍ وَغَيْرَ مُشْبَعَةٍ، وَيَكُونُ كُلٌّ مِنَ الْغَرَابَةِ وَالْإِبْهَامِ صِفَةً جَوْهَرِيَّةً فِي طَبَائِعِ الْأَشْيَاءِ، وَيَكُونُ تَأْكِيدُهُمَا وَإِظْهَارُهُمَا عَمَلًا مُسْتَمِرًّا مِنْ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ». [1]

وليم جيمس [2]

أسئلة :

1 – أوضحْ ما يدلّ في النص على أنه، بفضل التجربة الصوفية لا العقلية، نصل إلى السكينة والهدوء والطمأنينة.

2 – اشرحْ شرحاً وافياً خصوصية التجربة الصوفية، مستفيداً مما جاء في النص متصلا بذلك.

3 – ما هي مسوّغات وحجج وليم جيمس في الدعوة إلى تعميم هذه التجربة؟ وما تقديرك لنسبة نجاح هذه الدعوة ميدانياً؟

---

[1]- وليم جيمس ، العقل والدين ، ترجمة / د. محمود حب الله، دار الحداثة، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ. ص، (46 – 47) بتصرف.

[2]- سبق التعريف به في موضع آخر. (أنظر النص رقم : 51) .

72 - الحدس الصوفي عند برغسون[1]

[إِلَى أَيِّ مَدَى يُؤْمِنُ بِرْغْسُون بِأَنَّ الْحَدْسَ الصُّوفِيَّ امْتِدَادٌ لِلْحَدْسِ الْفَلْسَفِيِّ؟]

«إِنَّ الْحَدْسَ الصُّوفِيَّ[2] [عِنْدَ بِرْغْسُون] يَكْشِفُ لِصَاحِبِهِ مَاهِيَّةَ الْحَقِيقَةِ الْمِيتَافِيزِيقِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى التَّصَوُّرَاتِ وَلَا عَلَى الْعَقْلِ وَالْأَفْكَارِ. بِعِبَارَةٍ أُخْرَى، إِنَّ الْحَدْسَ الصُّوفِيَّ تَكْثِيفٌ وَامْتِدَادٌ لِلْحَدْسِ الْفَلْسَفِيِّ؛ وَهَذَا يَجْعَلُ مِنَ التَّصَوُّفِ الْكَامِلِ نَوْعًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْفَائِقَةِ لِلْعَقْلِ تُحَقِّقُ، مُبَاشَرَةً وَدُفْعَةً وَاحِدَةً، أَهْدَافَ الْبَحْثِ الْفَلْسَفِيِّ وَغَايَاتِهِ دُونَ اللُّجُوءِ إِلَى أَسَالِيبِهِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْجَدَلِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. إِنَّ فِي وُسْعِ الْعَقْلِ أَنْ يَتَبَيَّنَ حُدُودَهُ وَحُدُودَ مَلَكَاتِهِ[3] الَّتِي تَقِفُ عَاجِزَةً أَمَامَ الْحَقَائِقِ الْمُطْلَقَةِ، وَمَا يَبْدُو غَامِضًا لِلْعَقْلِ قَدْ يَكُونُ وَاضِحًا كُلَّ الْوُضُوحِ لِلْحَدْسِ الصُّوفِيِّ الَّذِي يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كُلِّيًّا عَنِ الْمَعْرِفَةِ التَّصَوُّرِيَّةِ الَّتِي يُنْتِجُهَا الْعَقْلُ، وَالْأَفْكَارُ الْمُجَرَّدَةُ، وَيَتْرُكُهَا خَلْفَهُ، لِأَنَّهَا نَابِعَةٌ مِنْ مَجَالِ السُّكُونِ وَيَجِبُ أَنْ تَبْقَى هُنَاكَ [...].

وَيُورِدُ بِرْغْسُونْ ثَلَاثَ خَصَائِصَ أَسَاسِيَّةٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ التَّصَوُّفَ الْكَامِلَ وَالْحَقِيقِيَّ يَنْفَرِدُ بِهَا. وَهِيَ: الْعَمَلُ، وَالْخَلْقُ، وَالْمَحَبَّةُ. وَيَتَضَمَّنُ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ مِنَ التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ إِشْرَاقًا[4] يَمْلَأُ رُوحَ الْمُتَصَوِّفِ وَقَلْبَهُ، فَيَصِلُ إِلَى أَوْجِهِ فِي حَالَةِ الرُّؤْيَا وَالنَّشْوَةِ وَالْوَجْدِ، وَيَكُونُ فِيهِ اتِّحَادُ الْمُتَصَوِّفِ بِاللهِ اتِّحَادًا جُزْئِيًّا. أَمَّا الطَّوْرُ الثَّانِي فَيَتَعَدَّاهُ إِلَى اتِّحَادٍ كُلِّيٍّ كَمَا هُوَ فِي الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ [...].

---

1. (عد، في التعريف به، إلى هامش صفحة رقم: 59).
2. هو المعرفة التي يكونها المتصوفة عن الكون والذات الإلهية دون حاجة إلى برهان.
3. الملكة = القدرة العقلية.
4. تعود فكرة الإشراق (أو النور الذي يعمّ القلب) إلى ما قبل برغسون؛ فقد قال بها في الإسلام على وجه الخصوص: ابن سينا، والغزالي، والسهروردي. وإن تباينت منطلقاتهم.

وَتَقْتَرِنُ فِكْرَةُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ اقْتِرَانًا وَثِيقًا بِالْمَحَبَّةِ، لِأَنَّهُ يَعْتَبِرُ الْخَلْقَ نَاتِجًا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنِ انْفِعَالَاتٍ أَوْ عَوَاطِفَ فَائِقَةٍ لِلْعَقْلِ وَطَبِيعَتِهَا. وَتَحْقِيقُ التَّجْرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ الْكَامِلَةِ عَمَلٌ خَلَّاقٌ بِحَدِّ ذَاتِهِ يُنْتِجُ لَنَا إِنْسَانًا جَدِيدًا. كَمَا أَنَّ نَشَاطَ الْمُتَصَوِّفِينَ الْخَلَّاقَ، إِنْ كَانَ فِي مَجَالِ الْفِكْرِ أَوْ فِي مَجَالِ الْعَمَلِ، هُوَ نَتِيجَةٌ مُبَاشِرَةٌ لِانْفِعَالٍ فَائِقٍ لِلْعَقْلِ يَتَأَجَّجُ فِي صُدُورِهِمْ. وَهَذَا الْخَلْقُ قَدْ يُوَفِّرُ الْحُلُولَ النِّهَائِيَّةَ لِمُشْكِلَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْكُبْرَى» .[1]

صادق جلال العظم [2]

أسئلة :

1 – عيّنْ، استناداً إلى الرؤية البرغسونية المعروضة في النص، أوجه الالتقاء بين الفلسفة والتصوف.

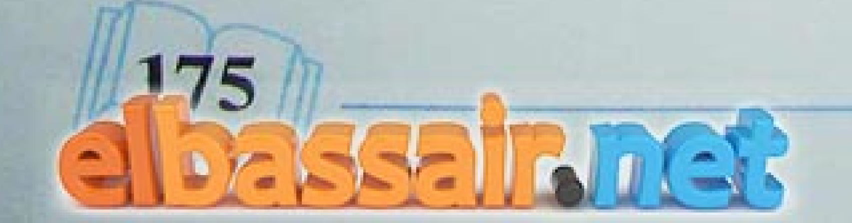
2 – استخرج من النص خصائص التصوف الكامل وأطواره.

3 – هل توافق برغسون في القول بأن الحدس الصوفي يتضمن بطبيعته الخلق والإبداع؟

---

[1] -صادق جلال العظم، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، دار العودة، ط 3، بيروت 1979، ص، (178 – 179) .

[2] -سبق التعريف به في موضع آخر؛ (أنظر النص رقم : 21) .



73 - الكشف ليس من الشرع

[هل الكَشْفُ عِنْدَ المُتصوِّفَةِ مُؤَسَّسٌ عَلى أَسانيدَ كافيَةٍ من العقْلِ والشَّرْعِ؟]

«وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ [1] إِعْطَاءِ حَقَائِقِ الْعُلْوِيَّاتِ، وَتَرْتِيبِ صُدُورِ الْكَائِنَاتِ، فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ [2] لِمَا أَنَّهُ وِجْدَانِيٌّ عِنْدَهُمْ، وَفَاقِدُ الْوِجْدَانِ عِنْدَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَذْوَاقِهِمْ فِيهِ، وَاللُّغَاتُ لَا تُعْطِي لَهُ دَلَالَةً عَلَى مُرَادِهِمْ مِنْهُ، لِأَنَّهَا لَمْ تُوضَعْ لِلْمُتَعَارَفِ الَّذِي أَكْثَرُهُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا نَتَعَرَّضَ لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَنَتْرُكَهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ فَهْمَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُوَافِقِ لِظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرِمْ بِهَا مِنْ سَعَادَةٍ، وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الْمُوهِمَةُ الَّتِي يُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِالشَّطَحَاتِ [3] وَيُؤَاخِذُهُمْ بِهَا أَهْلُ الشَّرْعِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ، أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ، وَالْوَارِدَاتُ [4] تَمْلِكُهُمْ حَتَّى يَنْطِقُوا عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ، وَصَاحِبُ الْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ، فَمَنْ عُلِمَ مِنْهُمْ فَضْلُهُ حُمِلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ.

وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَعْلَامُ الْمِلَّةِ [5]، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ، وَلَا هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ، إِنَّمَا كَانَ هَمُّهُمُ الْاتِّبَاعَ وَالْاقْتِدَاءَ مَا اسْتَطَاعُوا، وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ، بَلْ يَفِرُّونَ مِنْهُ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمِحَنِ،

---

1. مصطلح صوفي يعبر عن مرحلة متقدمة من الاستغراق الروحي تزول فيها الحجب والحواجز الحسية ليرى فيها المتصوف ما لا يراه غيره من الحقائق المغيبة، وقد يصل في آخرها إلى « الحضرة الإلهية ».
2. المتشابه = الذي يكون موضع شبهة أو ظن أو اتهام.
3. وصف شهير لبعض سلوكات وأقوال المتصوفة الشاذة؛ مثل قول أحدهم: " أنا الله والله أنا " في التعبير عن فرط اتحاده بالله بالحلول. وهذا الأمر أنكره كل فقهاء الإسلام وطرحوه وحذروا منه.
4. الواردات = ما يردهم ويؤثر فيهم أثناء غيبوبتهم و استغراقهم وبعدهم عن الواقع المحسوس.
5. الملة = الدين عقيدةً وشريعةً.



وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ النَّفْسِ مَخْلُوقٌ وَحَادِثٌ [1]، وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ؛ وَعِلْمُ اللهِ أَوْسَعُ، وَخَلْقُهُ أَكْبَرُ، وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكُ، فَلَا يَنْطِقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُدْرِكُونَ، بَلْ حَظَرُوا [2] الْخَوْضَ فِي ذَلِكَ، وَمَنَعُوا مَنْ يُكْشَفُ له الْحِجَابُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ، بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْاتِّبَاعِ وَالْاقْتِدَاءِ، وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا؛ وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ [3] » . [4]

ابن خلدون [5]

أسئلة :

1 – عدِّدْ، بناء على النص، مجمل الاعتراضات التي أبداها إبن خلدون حول صدقية التصوف من الوجهة العقلية والموضوعية؟

2 – اشرحْ لماذا يُعتبر التصوّف شُبهة ومطعوناً فيه من الوجهة الشرعية عند علماء الإسلام.

3 – لتقويم النص منهجياً، اكتبْ فقرة تبيّن فيها مدى عقلانية التفكير النقدي الخلدوني.

---

[1] - أي طارئ ومن وضع الإنسان وليس مما دعت إليه الشريعة الإسلامية .

[2] - حظروا = منعوا .

[3] - المريد = الذي يريد الوصول إلى الحقيقة؛ وهو التابع المقتدي، ولكن باجتهاد واستبصار .

[4] - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة ، دار إحياء التراث العربي ، دون طبعة ولا تاريخ، الكتاب الأول، الباب السادس، الفصل الحادي عشر، ص، (474 – 475) بتصرف.

[5] - سبق التعريف به في موضع آخر.(أنظر النص رقم : 36) .



74 - طبيعة المعرفة الكشفية

[كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى بَيَانِ أَنَّ المَعْرِفَةَ الكَشْفِيَّةَ الصُّوفِيَّةَ تَخْتَلِفُ عَنِ المَعْرِفَةِ العِلْمِيَّةِ؟]

«تَبْدَأُ النَّظْرَةُ الصُّوفِيَّةُ عِنْدَمَا يُحِسُّ الْمُتَصَوِّفُ بِأَنَّ أَمْرًا كَانَ مُلْغَزًا [1] قَدِ انْزَاحَ عَنْهُ الْحِجَابُ [2]، فَانْكَشَفَتْ لَهُ فَجْأَةً حَقِيقَةٌ كَانَتْ خَبِيئَةً وَرَاءَ ذَلِكَ الْحِجَابِ، فَيَرَاهَا هُوَ رُؤْيَةً مُبَاشِرَةً لَا سَبِيلَ فِيهَا إِلَى شَكٍّ، حَتَّى وَإِنْ خَفِيَتْ عَنْ سَائِرِ الْعَالَمِينَ ؛ إِنَّهَا رُؤْيَةُ " الْيَقِينِ " ، وَهِيَ رُؤْيَةٌ بِالْبَصِيرَةِ لَا بِالْبَصَرِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً لَشَهِدَهَا كُلُّ ذِي عَيْنَيْنِ؛ وَقَدْ يَنْعَمُ الصُّوفِيُّ بِرُؤْيَتِهِ تِلْكَ وَيَصْمُتُ، قَاصِرًا خِبْرَتَهُ الرُّوحِيَّةَ تِلْكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ أَيْضًا قَدْ يَتَأَمَّلُ فِيمَا بَعْدُ مَا قَدْ تَمَرَّسَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْخِبْرَاتِ الرُّوحِيَّةِ، أَوِ الْحَالَاتِ الَّتِي انْكَشَفَ لَهُ فِيهَا الْحِجَابُ عَمَّا وَرَاءَهُ ، ثُمَّ يُحَاوِلُ أَنْ يُجْرِيَ تِلْكَ الْحَالَاتِ فِي لَفْظٍ يَنْقُلُ إِلَى الْآخَرِينَ عَنْ طَرِيقِ الْإِيحَاءِ [3] شَيْئًا قَرِيبًا مِمَّا مَرَّ بِهِ [...].

فَالتَّحْلِيلُ عِنْدَ الصُّوفِيِّ يُفْسِدُ عَلَيْنَا حَقِيقَةَ الشَّيْءِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ هِيَ فِي جُمْلَتِهِ مُجْتَمِعَةً فِي مُرَكَّبٍ وَاحِدٍ [4]، لَا فِي أَجْزَائِهِ وَهِيَ فُرَادَى؛ وَالْخُلَاصَةُ هِيَ أَنَّهُ بَيْنَمَا " الْعِلْمُ " يَقِفُ دَائِمًا عِنْدَ حُدُودِ مَا يَظْهَرُ لَنَا مِنَ الْكَوْنِ يَزْعُمُ الْمُتَصَوِّفَةُ أَنَّ الْعَالَمَ الْحَقَّ هُوَ مَا يَكْمُنُ وَرَاءَ الظَّوَاهِرِ ، فَهُمْ بِذَلِكَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمٍ غَيْرِ عَالَمِنَا الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، وَمِنْ ثَمَّ يَبْطُلُ بَيْنَنَا تَبَادُلُ الْمَعْرِفَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي نَأْلَفُهُ فِي الْعُلُومِ وَفِي الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ ؛ وَإِنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْمَسْتُورَ عَنَّا وَالْمَكْشُوفَ لِلصُّوفِيِّ، يَبْهَرُهُ بَهْرًا [5] قَدْ يُشِيعُ فِيهِ رَجْفَةَ الْخَوْفِ، وَكَثِيرًا مَا يَرَاهُ الصُّوفِيُّ وَكَأَنَّهُ

---

[1]- ملغزا = ينطوي على ألغاز كثيرة وأمور مبهمة أو سرية .

[2]- المقصود بالحجاب ؛ الإحساس الذي يحجب الحقيقة بغشاوته .

[3]- الإيحاء = الرمز .

[4]- وهذا ما يبرر ابتعادهم عن العقل لأنه مولع بالتحليل فيما الكشف عندهم يتمّ حدساً ودفعة واحدة .

[5]- البهر أو الإنبهار = الاندهاش .

يَرَى نُورًا سَاطِعًا يَسْتَعْصِي عَلَى الرُّؤْيَةِ الْكَامِلَةِ ، وَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ [1] أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْبَاهِرَةَ تِلْكَ تَرُوغُ [2] مِنْهُ وَتَخْتَفِي كُلَّمَا ظَنَّ أَنَّهُ أَوْشَكَ عَلَى شُهُودٍ [3] كَامِلٍ، فَتَرَاهُ عِنْدَئِذٍ يَنْحُو بِاللاَّئِمَةِ [4] عَلَى مَا يَزَالُ بَاقِيًا عِنْدَهُ مِنْ غَلاَلاَتِ [5] الْأَبَاطِيلِ الَّتِي تَخْلُقُهَا فِي الْإِنْسَانِ حَوَاسُّهُ؛ وَإِنَّنَا إِذْ نُشَبِّهُ رُؤْيَةَ الْمُتَصَوِّفِ هَذِهِ بِرُؤْيَةِ الشَّاعِرِ وَالْفَنَّانِ وَالْعَاشِقِ الْوَلْهَانِ بِمَوْضُوعِ حُبِّهِ، فَإِنَّمَا نُضِيفُ الْقَوْلَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَشْبَاهَ جَمِيعًا لَا يَتَلَقَّوْنَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْمَحْجُوبِ إِلَّا لَمَعَاتٍ [6] خَافِتَةٍ يَرَوْنَهَا ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى حَيَاةِ الْحِسِّ الْمَأْلُوفِ، أَمَّا الْمُتَصَوِّفُ فَيَغْمِسُ رُوحَهُ فِي ذَلِكَ الضَّوْءِ غَمْسًا، فَلَا عَجَبَ أَنْ نَجِدَ الْمُتَصَوِّفَةَ عَلَى عَقِيدَةٍ رَاسِخَةٍ بِأَنَّ مَا يَعْرِفُونَهُ هُمْ عَنِ " الْحَقِّ " بِمِثْلِ تِلْكَ الرُّؤْيَةِ الْمُبَاشِرَةِ الْمُسْتَغْرِقَةِ فِيمَا تَرَاهُ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَاسَ إِلَيْهَا أَيُّ مَعْرِفَةٍ أُخْرَى » . [7]

زكي نجيب محمود [8]

---

[1]- أي يتصور تصورا واهما .

[2]- تروغ منه (من المراوغة)؛ أي تنحرف عنه وتفلت منه .

[3]- من مصطلحات المتصوفة ويعني رؤية اليقين المطلق في حضرة الذات الإلهية .

[4]- ينحو باللائمة : يلوم ويعاتب .

[5]- غلالات (جمع غلالة) وهي ما يفور من غليان الماء = أبخرة .

[6]- لمعات (جمع لمعة) = إضاءات خاطفة .

[7]- زكي نجيب محمود ، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ، ط 3، دار الشروق ، بيروت 1981، ص ، (377 و ما بعدها) .

[8]- هو فيلسوف ومفكر عربي معاصر (1902– 1993) تأثر بالوضعية المنطقية، وحاول تقريب أفكار هذا المذهب إلى أفهام العرب المسلمين ؛ فكتب فيه ثلاثيته : خرافة الميتافيزيقا ، المنطق الوضعي ، و نحو فلسفة علمية . لكنه عدل ، في آخر المطاف، عن ذلك نسبيا، واتجه إلى التأليف في التراث العربي الإسلامي في الفلسفة والتصوف ، وكذا في قضايا الأمة المعاصرة . وهو ما تصوره مثلا كتبه : المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، تجديد الفكر العربي، وقشور ولباب .



أسئلة :

1 – أوضحْ ، على ضوء ما عُرض في النص، كيف يتمّ الكشف عن الحجب وصولا إلى الحقيقة عند الصوفي ؟

2 – حدِّدَ صاحب النص خصائص هذا الكشف التي تميّزه عن كل من المعرفة العادية والتجارب الذوقية الأخرى، بيّنها من خلال مقارنة منهجية.

3 – اسْتُعْمِلَتْ في النص ألفاظ ظنيّة (مثل : يُخيّل إليه – يزعم) وأخرى وُضِعَتْ بين هلالين (مثل : اليقين– الحق)؛ ألا ترى أنها ألفاظ مفتاحية تدلّ على موقف ما لصاحب النص من التصوف؟ برّر إجابتك.



75 - التصوف تجربة إنسانية

[كَيْفَ يُمكِنُ إِثْبَاتُ أَنَّ تَبايُنَ مَذاهِبِ الْمُتَصَوِّفَةِ، فِي تُراثِ الشُّعُوبِ عَبْرَ التَّارِيخِ، لاَ يُلْغِي الْبُعْدَ الإِنْسَانِيَّ وَالرُّوحِيَّ لِلتَّصَوُّفِ؟]

«إِنَّنَا نَعْرِفُ كَمْ يَصْعُبُ إِيجَادُ تَحْدِيدٍ دَقِيقٍ وَشَامِلٍ لِلتَّصَوُّفِ كَمَوْقِفٍ رُوحِيٍّ، هَذَا الْمَوْقِفُ الَّذِي يَتَّسِمُ بِالنَّشَاطِ وَالتَّأَمُّلِ، وَيَتَمَيَّزُ بِحَالاَتٍ نَفْسِيَّةٍ فَرِيدَةٍ. وَيَعْنِي التَّصَوُّفُ تَجْرِبَةَ التَّدَرُّجِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي السِّرِّ الإِلَهِي [1]، وَالاتِّصَالَ بِالْمُطْلَقِ وَلَكِنْ كَشَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ الْمَعْرِفَةِ الْحَدْسِيَّةِ [2]، الْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَرْتَفِعُ عَبْرَ السُّبُلِ التَّأْوِيلِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وُصُولاً إِلَى الشُّعُورِ الْحَيِّ بِتَحْقِيقِ الْوَحْدَةِ الْكُلِّيَّةِ مَعَ مَا هُوَ جَوْهَرِيٌّ [3]، إِلَى دَرَجَةِ الاتِّحَادِ مَعَهُ وَبُلُوغِ النَّشْوَةِ الرُّوحِيَّةِ الْكَامِلَةِ.

وَ تَتَبَايَنُ أَشْكَالُ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ، وَتَخْتَلِفُ الطُّرُقُ الْمُعْتَمَدَةُ لِبُلُوغِهَا بِاخْتِلاَفِ الشُّعُوبِ وَالأَفْرَادِ؛ فَنَحْنُ نَجِدُ فِي التَّصَوُّفِ الْهِنْدِيِّ مَثَلاً [4]، أَنَّ النَّاسِكَ الْمُتَعَبِّدَ يَبْحَثُ عَنِ الاتِّحَادِ بِالْمُطْلَقِ الْكَوْنِيِّ الَّذِي تَتَبَايَنُ دَرَجَةُ الْمُفَارَقَةِ فِيهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الشُّعُورِ بِهِ وَإِدْرَاكِهِ دَاخِلَ الأَنَا الَّتِي يَذُوبُ فِيهَا [5]. وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ الْبُعْدَ الإِلَهِيَّ مَاثِلٌ فِي الْعِلْمِ وَمُلاَزِمٌ لِلطَّبِيعَةِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ فَمِنْ تَعَالِيمِهِ: " أَنَّ الذَّاتَ تُسَاوِي الْمُطْلَقَ ".

كَمَا يُحَاوِلُ مُمَارِسُ الْ(يُوغَا) [6] بِفَضْلِهَا أَنْ يَتَجَاوَزَ ثُنَائِيَّةَ الذَّاتِ الْعَارِفَةِ وَالْمَوْضُوعِ الْمَعْرُوفِ مِنْ أَجْلِ الذَّوَبَانِ فِي الْمُطْلَقِ الْكُلِّيِّ، وَالْقِيَامِ بِقَفْزَةٍ فِي أَعْمَاقِ الْفَرَاغِ الْفِكْرِيِّ.

---

[1] - من هنا يعتبر المتصوفة أنفسهم، على مرّ التاريخ، خاصّة الخاصّة لأنهم حماة هذا السر الإلهي.

[2] - المعرفة الحدسية، (كما مرّ في النص رقم : 72)، نقيض للمعرفة الاستدلالية لأنها لا تحتاج إلى دليل.

[3] - وهو الله عند أنصار الحلول كالبسطامي، والكون مع الله عند أنصار وحدة الطبيعة كابن عربي.

[4] - كانت الهند، ولا تزال مرتعا لكل المذاهب الروحانية، وقد نهل صوفية الفرس والعرب كثيرا عنهم.

[5] - بمعنى أنه كلما استغرق المتعبد في تأملاته كلما انعدمت المفارقة بينه وبين الذات الإلهية، فاتحدت الروح (أو الأنا) بالمطلق الكوني. أما بقية الناس فلا يظفرون بشيء من ذلك ويظل الإله مفارقا لهم.

[6] - تعرف بالرياضة الروحية الأولى في العالم بفضل ترويضها للنفس على التركيز والتأمل بحثا عن صفاء الذهن والطمأنينة. وهي تحتاج إلى مثابرة وصبر وتحمّل.



فَلا بُدَّ مِنْ إِدْرَاكِ الذَّاتِ لِتَحَرُّرِهَا لِكَيْ تَتَخَلَّصَ مِنْ قُيُودِ الْجَهْلِ مُسَبِّبِ الأَوْجَاعِ وَالْمَآسِي. فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْفِكْرُ الْيُونَانِيُّ [1] يُشَكِّلُ بَحْثًا مُتَرَفِّعًا عَنِ الْحَقِيقَةِ ، نَجِدُ الْفِكْرَ الْهِنْدِيَّ يَتُوقُ بِكَامِلِهِ إِلَى التَّحَرُّرِ وَالانْعِتَاقِ.

وَلا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ إِنَّ التَّجْرِبَةَ الصُّوفِيَّةَ فِي جَمِيعِ الدِّيَانَاتِ التَّوْحِيدِيَّةِ [2]، تَتَحَقَّقُ بِفَضْلِ جُهُودِ الْفَرْدِ الْخَاصَّةِ ، تَتَحَقَّقُ فِي فَرْدِيَّتِهِ الْمُمْتَدَّةِ نَحْوَ الشُّمُولِ الْكَوْنِيِّ الْمُفَارِقِ لِلطَّبِيعَةِ . وَهِيَ تُوَفِّرُ حَيَاةً رُوحِيَّةً تَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ التَّقَرُّبِ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ الْخَلَّاقِ وَالَّذِي تَرْنُو الرُّوحُ إِلَى الاتِّحَادِ مَعَهُ فِي حُبٍّ لا حُدُودَ لَهُ. وَتَلْعَبُ الْكُتُبُ الْمُقَدَّسَةُ دَوْرًا جَوْهَرِيًّا فِي تَعْمِيقِ رُوحِيَّةِ الْمُؤْمِنِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْكَشْفِ، فَتَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ الصُّوفِيَّةُ إِلَى تَأْوِيلٍ بَاطِنِيٍّ لِعَالَمِنَا الظَّاهِرِ الَّذِي نُدْرِكُ فِيهِ وَحْدَةَ الْعَالَمِ، وَيَتَجَاوَزُ عِنْدَئِذٍ التَّصَوُّفُ الإِطَارَ الْمُغْلَقَ لِلأَنْطُولُوجِيَا [3] وَالتَّأَمُّلاتِ الْمُجَرَّدَةِ بِوَصْفِهِ نِعْمَةً إِلَهِيَّةً تَبْحَثُ لأَجْلِ طُمَأْنِينَةِ الْمُؤْمِنِ . وَتَعْجِزُ كُلُّ النَّظَرِيَاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ عَنْ إِدْرَاكِ الْوَاقِعِ الصُّوفِيِّ لأَنَّهُ يَتَجَاوَزُ الْفِكْرَ وَالْحِسَّ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ يُمَثِّلُ ظَاهِرَةً إِنْسَانِيَّةً رُوحِيَّةً ،

فَحَيْثُمَا يَبْحَثُ فِيهِ الْمُتَصَوِّفُ عَنِ اللهِ، يَبْحَثُ عَنْهُ بِكُلِّ حُبٍّ وَشَغَفٍ وَصِدْقٍ، مُتَجَاوِزًا أَحْوَالَ هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي » . [4]

لويس ماسينيون [5]

---

[1].لم يول الفكر اليوناني القديم في عصره الذهبي عناية كافية بالتصوف لاهتمامه بالتحليلات العقلية ، ولكن بعد قيام الإمبراطورية الهيلينية مع فتوحات الإسكندر، والاحتكاك بالثقافات الشرقية ، تسربت التعاليم الصوفية إليه ؛ (كما تعبر عنه فلسفة أفلوطين وفورفوريوس ضمن اتجاه الأفلاطونية الجديدة) .

[2].وهي الديانات السماوية الثلاثة المعروفة .

[3].أو (Ontologie) = مبحث الوجود من حيث هو وجود بصرف النظر عن ظواهره .

[4] – Louis Massignon ، Mystique et dialogue ، édité par ALBIN MICHEL ، Paris 1992 ، p ، (42) .

[5]. Louis Massignon هو مستشرق فرنسي معاصر(1842– 1962) ، احتلّ كرسي علم الاجتماع الإسلامي ، وتخصص في دراسة التصوف وخاصة التصوف الحلولي . من مؤلفاته : الحلاج شهيد التصوف في الإسلام ، محاولات في أصل المفردات التقنية للتصوف الإسلامي ، وتصوف وحوار .

أسئلة :

1 - اضبطْ، بالاستناد إلى النص، مفهوم التصوف كمعرفة متميِّزة .

2 - قارنْ بين خصائص التصوف الشرقي والتصوف في الديانات السماوية كما عرضها صاحب النص .

3 - قيِّمْ ، في أسطر قليلة، أدلة ماسينيون في إثبات البعد الإنساني للتصوّف، وحدّدْ موقفك الخاص مدعّماً بشواهد ومبرّرات .



فهرس مصادر النصوص

أولاً : باللغة العربية

1. **الأخرس** (صفوت) ، العلوم الاجتماعية : طبيعتها، ميادينها، طرائق بحثها، ط1، دار الفكر، بيروت، 1972 . [60]

2. **الأهواني** (أحمد فؤاد) ، جون ديوي، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، ط2، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1968. [69]

3. **بارودي** (دومينيك) ، المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، ترجمة محمد غلاب، الأنجلو المصرية، ط2، القاهرة، 1958 . [32]

4. **باشلار** (غاستون) ، فلسفة الرفض، ترجمة/خليل أحمد خليل، ط 1، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، 1985 . [61]

5. **بدوي** (عبد الرحمن) ، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت 1977. [55].

6. **برغسون** (هنري) ، الطاقة الروحية، ترجمة/ سامي الدروبي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1971 . [21 – 22]

7. **بن عيسى** (حنفي) ، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر 1980. [8]

8. **بن نبي** (مالك) ، تأملات، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ . [39 – 47]

9. **بن نبي** (مالك)، شروط النهضة، ترجمة/ عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، بيروت، 1969 . [68]

10. **بوانكاري** (هنري) ، قيمة العلم، ترجمة/ الميلودي شغموم، دار التنوير، ط1، بيروت، 1982. [12]

11. **البيطار** (ميخائيل) ، علم النفس وأثره في حياتنا الحديثة، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ . [1]
12. **جيمس** (وليم) ، البراغماتية، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965. [51]
13. **جيمس** (وليم) ، العقل والدين، ترجمة / محمود حب الله، دار الحداثة، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ . [71]
14. **الحوراني** (يوسف) ، الإنسان والحضارة، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة ولا تاريخ. [66]
15. ابن **خلدون** (عبد الرحمن) ، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ . [58]
16. ابن **خلدون** (عبد الرحمن) ، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، دون طبعة ولا تاريخ. [36– 73]
17. **خليفة** (أحمد محمد) ، في المسألة الاجتماعية، دار المعارف، بدون طبعة، القاهرة، 1970 . [42]
18. **خليل** (حامد) ، مشكلات فلسفية، المطبعة الجديدة، ط 1، دمشق ، 1984 . [29 – 35] .
19. **دوبزانسكي** (ثيودوسيوس) ، تطور الجنس البشري، ترجمة/عبدالحليم منتصر، المكتبة المصرية، ط1، القاهرة ، 1969 . [67]
20. **دوركايم** (إيميل) ، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة/ عبدالرحمان بوزيدة، موفم للنشر، بدون طبعة، الجزائر، 1990. [28]
21. **دوركايم** (إيميل) ، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة/ محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961 . [59]
22. **دول** (جان ماري) ، من فرويد إلى بياجي، ترجمة/غنيمي الحاج وعلي أفرفار، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1998 . [7 – 20]
23. **ديكارت** (روني) ، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة/عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1969. [24]
24. **ديكارت** (روني)، تاملات ميتافيزيقية، ترجمة/كمال الحاج، ط 3، دار عويدات، بيروت ، 1982. [2]

25. **راسل** (برتراند) ، السلطان، ترجمة /خيري حماد، ط1، دارالطليعة، بيروت، 1962. [37]

26. **رويه** (ريمون) ، نقد الإيديولوجيات المعاصرة، ترجمة /عادل العوا، عويدات، ط1، بيروت، 1978. [43 – 44 – 45]

27. **سارتر** (جان بول) ، الانفعال، ترجمة / هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة ولا تاريخ . [6]

28. **شفيتزر** (آلبرت) ، فلسفة الحضارة، ترجمة / عبد الرحمن بدوي، ط 2، دار الأندلس، بيروت، 1980 . [27 – 46]

29. **شلبي** (أحمد) ، الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره، الأنجلومصرية، بدون طبعة، القاهرة، 1962 . [70]

30. **شيخ الأرض** (تيسير) ، مبادىء الفلسفة ، مطابع ألف باء – الأديب ، بدون طبعة، دمشق، 1969 . [25 – 41 – 48]

31. **صالح** (عبد المحسن) ، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، ط 2، مطابع دار القبس، الكويت، 1984 . [62]

32. **العظم** (صادق جلال) ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، ط3، دار العودة، بيروت، 1979. [31 – 72]

33. **علي** (ماهر عبد القادر محمد) ، مقدمة في الأخلاق، دار النهضة العربية، بدون طبعة، بيروت، 1985 . [34]

34. **غيتس** (آرثر) ، علم النفس التربوي، ترجمة / إبراهيم حافظ، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1966 . [18]

35. **فخري** (ماجد) ، نصوص مختارة من الفكر الأخلاقي العربي، ط1، الأهلية للنشر و التوزيع ، بيروت، 1979. [26 – 30]

36. **فرويد** (سيغموند) ، الأنا و الهو، ترجمة / محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط 4، بيروت، 1982 . [14]

37. **فرويد** (سيغموند)، معالم التحليل النفسي، ترجمة /محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 5 ، الجزائر، 1986 . [13 – 15]



38. **الفندي** (محمد ثابت) ، فلسفة الرياضة، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1969 .[53]

39. **كانط** (إيمانويل) ، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة/محمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر ، بدون طبعة، الجزائر، 1991 . [33]

40. **مايرز** (برنارد) ، الفنون وكيف نتذوقها، ترجمة/سعد المنصوري ومسعد القاضي، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1966 . [63 – 64]

41. **محمود** (زكي نجيب) ، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ط3، دار الشروق، بيروت،1981 . [74]

42. **هوسرل** (إدموند) ، تأملات ديكارتية، ترجمة/تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1958 . [52]

43. **هويسمان** (دوني) ، علم الجمال، ترجمة/ ظافر الحسن ، ط 2 ، SNED ، الجزائر، 1975. [65]

44. **هيغل** (فريديريك) ، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة/إمام عبد الفتاح إمام، ج1، دار الثقافة، بدون طبعة، القاهرة، 1986 . [40]

45. **وقيدي** (محمد) ، ما هي الإبيستيمولوجيا؟، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1983. [16]

46. **ياسبيرس** (كارل) ، مستقبل النوع الإنساني، ترجمة/أورخان ميسّر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1974 . [49]

ثانياً : باللغة الفرنسية

1 - **Alain** ، Eléments de philosophie ، Collection idées ، Editions Gallimard France ، 1941 . [3]

2 - **Bernard** (Claude) ، Introduction à l'étude de la médecine expérimentale ، Garnier Flammarion ، Paris ، 1966 . [57]

3 - **Blanché** (Robert) ، L'axiomatique ، Edition، P.U.F، 1967 . [54]

4 - **Couderc** (Paul) , La Relativité, P.U.F , 1941 . [65]

5 - **Guillaume** (Paul) , La formation des habitudes , P.U.F , Collection SUP , Paris ,1968 . [23]

6 - **Gusdorf** (Georges) , La parole , P.U.F , Paris ,1977 . [10]

7 - **Halbwachs** (Maurice) , Les cadres sociaux de la mémoire , P.U.F , Paris , 1952 . [19]

8 - **Massignon** (Louis) , Mystique et dialogue , édité par ALBIN MICHEL , Paris 1992 . [75]

9 - **Merleau ponty** (Maurice) , Phénoménologie de la perception , N.R.F , Paris , 1964 . [5]

10 - **Piaget** (Jean) , La psychologie de l'intelligence , Armand celin 1962 [4]

11 - **Ribot** (Théodule) , Les maladies de la mémoire , Alcan ,1909 . [17]

12 - de **Saussure** (Ferdinand) , Cours de linguistique Générale , Editions TALANTIKIT , Béjaia (Algerie) , 2002 . [9]

13 - **Spinoza** (Baroch) , Œuvres1 , Court traité , Garnier Flammarion ,1964 [50]

14 - de **Tocqueville** (Alexis) , De la démocratie en Amerique , T2 , ENAG/ éditions 2ème édition ,1991 . [38]

15 - **Yngve** (Victor) , La traduction des langues à la machine , trad . R . Pagès cité dans Le langage , Classiques Hachette , Paris , 1959 . [11]

فهرس المحتويات




elbassair.net